
اسكندرية ٦٧
رواية
مصطفى نصر
الهيئة المصرية
العامة للكتاب
أدب الحرب

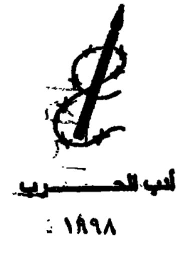
منحة 2005
SIDA
السويد

ادب الحرب

إسكندريّة ٦٧

رواية

مصطفى نصر



أدب الحرب

١٩٩٨



رئيس مجلس الإدارة:

أ. د. سمير سرحان

رئيس التحرير:

جمال الغيطانى

مدير التحرير:

خيرى عبدالجواد

المشرف الفنى: صبرى عبد الواحد

- ١ -

يسير الحـاج الدسوقي وحده . كان يرتدى جلبابه الثقيل والبالطو رغم أن الجو ـ اليوم ـ حار نسبيا .. فلقد انصرم شهر ابريل وحل مايو منذ أيام قلائل .

معروف الحاج فى حى الأنفوشى ، فهو شيخ الصيادين هناك ، يمتلك عددا لا بأس به من مراكب الصيد المتوسـطة الحجم . ويعمل عنده عدد كبير من سكان السيالة ، والحـوارى حولها . يعملون فوق مراكب الصيد التى يمتلكها وفى محلاته المتعددة فى حلقة السمك والمنشية .

اقترب الحاج من شارع النصر الذى صنعته حكومة الثورة كمدخل بحرى جميل يتفق مع مركز الاسكندرية كمينـاء هام ، بعد هدم العديد من المبـانى القديمة والأزقة الضيقة الملتوية ، التى كانت تعترض طريق القادم من الجمرك حتى المنشية ، وبنى على طول الطريق مبانى متشابهة جميلة الشـكل ، شغلت بأسر الخبراء الروس الذين يعملون فى السد العـالى وبعض المشروعات المصرية الأخـرى .

ما كان يجب أن يرتدى الحاج الدسوقى البالطو · لكن ابنته « صابرين » أصرت وألحت وقالت انه يزيدك هيبة · ابتسم لها « أبدون البالطو لا تكون لى هيبة ومكانة » ؟ !

الزحام شديد عند مدخل شارع نوبار ·· قريبا من سراى الحقانية ·· الباعة فى كل مكان ، يبيعون كل الأشياء أحبال من الخيوط واللوف والبلاستيك ، ومفارش الموائد ، ومشابك الغسيل ، ولعب الأطفال ، والأسماك الطازجة والمدخنة والمملحة ، والكبد والقوانص ، وفاكهة من كل نوع ، وورود صناعية من البلاستيك ·· الخ ·

أخرج الحاج الدسوقى منديله ، جفف عرقه · أحس بأن العرق يسيل على ظهره من شدة الحر ·

البنت صابرين محقة فيما قالته له عن ارتدائه للبالطو · فالجو هذا العام غير مستقر · أحيانا شديد البرودة · وفجأة يتحول الى برد قارس · غريب جو هذا العام · قلما يحدث ان تمطر السماء فى مايو · واذا حدث فسحابة عابرة · لكنها أمطرت هذا العام وكأننا فى عز طوبة ·

ذكره هذا المطر المفاجىء بأيام النوات التى يخشاها · ويعول همها · ويضع ــ وقتها ــ يده على قلبه خشية أن تعصف بمراكبه · وتقتل رجاله الذين يعملون عليها ·

اعتاد الدسوقى ــ فى هذه الأيام ــ الانتقال من مكان الى آخر بالعربة الحنطور · اتفق مع عربجى من المنطقة ــ اسمه محمود ــ على ان يأتى الى بيته القريب من مسجد سيدى ياقوت العرش كل صباح لينقله الى شاطىء الأنفوشى حيث مراكبه ،

بعضها فى البحر ، والآخر على الرصيف ليقوم العمال باصلاحها أو صيانتها ، أو يذهب العربجى به الى القهوة القريبة جدا من الشاطىء . يجلس وسط الصيادين .

قرر الحاج بالأمس أن يرتاح اليوم . وأن يقضى اليوم كله فى البيت مع ابنته صابرين ، ومن يريده من الصيادين فى شىء . يأتى الى بيته لمقابلته .

يعيش الدسوقى وحده الآن . الا من ابنته صابرين ، وبعد وقت طال أو قصر ستتزوج وتذهب الى بيت زوجها وتتركه وحده .

تنهد فى أسى : ليس مهما . المهم أن تتزوج . فالبنات ليس لهن سوى السترة .

تغير فى الصباح كل ما قصده الحاج ونواه . فقد جاءه تلغراف من ابنه أحمد الذى يدرس الطب فى المانيا منذ اربع سنوات « حاضر باكر ...... »

لو كان يعلم الدسوقى أن ذلك التلغراف سيأتى . لاتفق مع العربجى ليأتيه فى الصباح كالعادة . قالت ابنته :

ـ دمك خفيف يا حاج . كل مسألة بسيطة تعقدها .

ـ لماذا ؟

ـ اركب أى عربة حنطور . أو حتى تاكسى .

ـ لا . سأمشى . دكتور يوسف قال أن المشى مفيد لحالتى .

اجتاز الدسوقى شريط الترام أمامه . عدد كبير من المارة ينتظرون مرور الترام المسرعة . ليجتازوا الطريق .. مستشفى السبع بنات (التى اطلق اسمها على الشارع كله) أمامه .

كان العاملون فيها من الأجانب ، يهود ويونانيين ومالطيين ، ومازال يعمل بها بعضهم للآن · ويقال ان المستشفى إعتمد على سبع راهبـات كن يشرفن على العمل · ولأن الراهبـة لا تتزوج · فهى فى عرف أولاد البلد مازالت بنتا حتى لو شاخت وكبرت ·

يعرف الحاج الدسوقى الحجرة التى يعمل الدكتور يوسف بها · سيذهب اليها وحده دون معاونة من أحد · من ؟ ! انهـا آمال · ابنة عم الدكتور يوسف ، وطبيبـة معه فى المستشفى · صاحت آمال من بعيد فرحة :

ـ عمو الحاج الدسوقى ؟ !

ـ أهلا · دكتورة آمال ·

ـ لم نلتق منذ وقت طويل ·

ـ أنت نسيت عمك الحاج ·

ـ وهـل أقـدر ؟ !

سارا معا فى ردهـة المستشفى الضيقة والتى يلمع جدرانها وبلاطها من شـدة النظافة · مازالت الراهبات تقمن على العمل بها (بالطبع راهبات غير السبع التى سميت المستشفى والشارع باسمهن) ·

لا يدرى الحـاج هل مازلن يحرصن على أن يكون عددهن سبعة للآن أم زادت واحدة أو قلت عن ذلك ··

ـ مالك ياحاج · جئت للعلاج ؟

ـ لا · انما لمقابلة الدكتور يوسف ·

مد الحاج يده داخل جيب جلبابه ، والبالطوا يعوقه · أخرج مظروفا مطويا ومده اليها ·

ـ تلغراف من أحمد ابنى ·

هللت آمال فرحة :

ـ احمد ، كيف حاله ؟

ـ سيعود من المـانيا فى الغد ·

ـ حقـا ؟ !

كانت فرحة ····

ـ أحمد أخوك · وأخو الدكتور يوسف أيضا ·

ـ طبعا يا حاج · أكثر من اخوة · فقد تربينا معا ·

سار الحاج فى طريقه الى حجرة يوسف · قالت آمال :

ـ ادخل معك يا حـاج ؟

ـ شكرا · فأنا أعرف الطريق ·

* * *

جلس الدكتور يوسف مسترخيا ، فقد خرج آخر مريض من الحجرة منذ لحظات · وذهب عوض التومرجى لشراء بعض لوازم الدكتور من السوق ·

احس يوســف بالتعب · فالمرضى كثـيرون اليوم · عـادة ما يزدحمون يوم السـبت على أســاس أن فى الغد ـ الأحـد ـ اجــازة ·

دق الباب · لن يقوم الدكتور من مكانه · صاح فى ضيق :

ــ أدخل يا عوض ·

فوجىء بالحاج الدسوقى أمامه بجسده العملاق ، الذى يذكره بجسد ابنه أحمد ــ هب يوسف من المفاجأة :

ــ عمى الحــاج ·

ــ أسرع اليه · أرتمى بجسده الضــامر القصير فى جســد الدسوقى الطويل العريض :

ــ كيف حالك يا يوسف يابنى ؟

ــ بخير يا حاج · تفضل اجلس · اننى سعيد بحضورك ·

ــ ماذا أفعل وأنت وابنة عمك آمال لا تسألان عنى ·

ــ انت تعلم يا حاج مدى مشاغلى · بالنهار فى المستشفى وفى المساء بالعيادة ·

ــ كان الله فى العون ·

ــ انتهى ــ عادة ــ من عمل العيادة بعد منتصف الليل ·

ــ لا تقل لى يا دكتور · كل أهل بحرى يتحــدثون عن همتك وشطارتك ·

وقف الحــاج واكمل :

ــ ولهذا · لن أعطلك ·

اخرج التلغراف من جيب البالطو وقدمه اليه :

ــ تلغراف من أخيك أحمد ·

ـ كيف حـاله ؟

ـ سيأتى فى الغد .

حقـا !!

ـ سأسافر فجر الغد الى القاهرة لاستقباله فى المطار .

ـ سأذهب معك .

ـ لا يابنى . أنت وراءك عمـــل كثـــير فى المستشـفى والعيـادة .

ـ أحمد مثل أخى . كما أننى اجازة فى الغد . غدا الأحـد يا حـاج .

ـ لا أريد ان أتعبك .

ـ سنتقابل فى العيـادة مسـاء اليـوم لنتنق ، لا تنس يا حـاج .

* * *

عاد يوسف الى الاسترخاء . مد ساقيه القصيرتين اللتين لا تمكنانه من وضـع واحدة فوق الأخرى . أنتهى عمل المستشفى. ولولا حضـور الحاج الدسوقى لكان الآن فى بيته القريب من مسجد أبى العبـاس سـيأتى عوض التومرجى بلوازمه الى البيت ، اذا ما جاء المستشفى ولم يجده .

اعادت زيارة الحاج الى يوسف مواجعه القديمة . والجروح التى لم تندمل رغم مرور السـنوات . أحمد الدسـوقى زميل الطفولة فى المدارس الابتدائية . وفى مدرسة الطائفة الاسرائيليـة

الثانوية · الدسوقى والده لا يعرف شيئا عن المدارس · وأحمد وسط الشلة يبحث عن مدرسة ثانوية : العباسية أم اسكندرية أم الناصرية أم راس التين ·· اقترح يوسف عليه الطائفة الاسرائيلية · لكى نكون معا · ووافق أحمد وأصبح زميلا حتى فى المدرسة الثانوية ·

يوسف وأحمد نقيضان · أحمد طويل وعريض · وجهه مستدير · عينان واسعتان سوداوان وأنف مستقيم وشفتان حمراوان كشفتى امرأة فى ريعان شبابها · بينما يوسف عليل الجسم منذ طفولته · وجسده على بعضه لا يزيد عن كيلوات قليلة ·

ذهب اليهود عن مصر بعد حرب ٥٦ ، ولم يتبق سوى القليل · فاستولت حكومة الثورة على مدرسة الطائفة الاسرائيلية وضمتها لمدارس الوزارة الأخرى · كما فعلت فى المستشفى الاسرائيلى وجعلته خاصا لتلاميذ المدارس يعالجون فيها ·

أصبح اليهود أغرابا فى المدرسة التى أنشأها أجدادهم وسميت باسم طائفتهم · المسلمون هم الأكثر · ليس كل أولاد المدرسة فى طول أحمد وعرضه · لكن معظمهم أطول من يوسف وأصح منه · لذا ، اختار يوسف أحمد ليستظل بظله · ويتوارى خلفه ·

عامله أحمد ـ أول الأمر ـ بجفاء · لكنه استجاب عندما انشغل يوسف بخدمته وتقديم العون له ·

يضيق أحمد ـ أحيانا ـ بصداقته فيبطش به · وسرعان ما تصفوا النفوس وتروق · فيضيع ذراعه الطويلة والقوية فوق كتف يوسف · يذهبان الى سينما بارك القريبة من المدرسة ويشتريان سندوتشات الفول والطعمية من بنيامين (بائع الفول

والطعمية المشهور فى آخر الشارع ناحية سعد زغلول) يشتريان السندوتشات على حساب أحمد فوالده غنى ويعطيه مصروفا كبيرا ٠

والتحقا بعد التوجيهية بكلية الطب معا ٠ ثم لحقتهما آمال بعد سنة واحدة ٠

* * *

دقات الباب أخرجت يوسف من شروده ٠ دخلت آمال ٠ كانت ترتدى ملابس الخروج :

ــ يوسف ٠ ما الذى أخرك هكذا ٠ ظننتك فى البيت الآن ٠

أفاق . انه مازال فى البالطو الأبيض والسماعة المعلقة فى رقبته :

ــ عندك حق يا آمال ٠

وقف ٠ وضع البالطو فوق المشجب واقترب من وجهها ٠ طولها مقارب لطوله ٠ وان كانت هى أطول بسنتيمترات قليلة ٠ قال :

ــ لقد جاء الحاج الدسوقى ٠

قابلته قبل أن يدخل حجرتك ٠

ــ أخبرك بحضور أحمد باكر ؟

ــ نعم ٠

ــ وماذا ترى ؟

دهشت من قوله ٠٠ ماذا يعنى بسؤاله ؟

ـ ألى الخيار فى أن يأتى أولا يأتى من ألمـانيا ؟

ـ أعلم أنك تحبينه ٠

ضحـكت :

ـ أحبه طبعا ، كما أحبك ٠ وأحب باقى الشلة التى كانت معنا فى كليه الطب ٠

ـ ارجو أن تكونى صريحة معى ٠

ـ ماذا تقصـد ؟

ـ آمال ٠ أنا أحبك منذ أن كنا صغارا ٠

ـ يوسف ٠ اننى أعيش وحدى مع أبى ٠ سـافرت أمى واخوتى وتركونى ٠ وليس لى سـواك الآن فى مصر ٠

ـ لذا ٠ أريدك أن تصـدقى القول معى قبل أن يعود احمد وتتورطين معه ٠

أحست بالضيق وبرغبة فى أن تبكى ٠

ـ يوسف ٠ ماالذى تقوله ؟ !

ـ نعم ٠ هناك مشكلة تنسينها دائما وهى اختلاف الأديان بينكمـا ٠

بكت آمال ٠ حاولت أن تحبس دموعها ، لم تستطع ٠٠

ـ لم أفكر يا يوسف فى هذا من قبل ٠

اقترب يوسف منها ٠ ربت على ظهرها :

ـ آسف لأننى سببت لك ألمـا ٠

- ٢ -

تقع عيـادة الدكتور يوسـف داود فى شـارع محمد كريم « التتويج » سابقا ٠٠ الذى يبدأ من نهاية المنشية وينتهى قبل حلقة السمك بقليل ٠

تقع العيـادة فى منتصفه تقريبـا ٠ قريبـا من قهوة فاروق المشهورة هناك ٠ والتى سميت باسم الملك فاروق ٠٠ ومازالت تسمى بنفس الاسم رغم قيام الثورة ونفى فاروق ٠

يذهب عوض التومرجى الى العيادة بعد أن يصلى العصر فى المسجد مباشرة ٠ يكنس العيادة ٠ ينظفها ٠ ويفرش الأسرة الأربعة فيها ٠ رغم أنه من النادر ما تستخدم ٠ فالدكتـور قلمـا يجرى عمليات جراحية ، واذا ما فعل ، فعمليات صغيرة ٠٠ كفتح خراج ٠ أو ازالة كيس دهن ٠٠ الخ ٠

يعمل اقارب عوض فى صيد الأسماك ٠ بعضهم يعمل على مراكب الحاج الدسوقى شيخ الصيادين ٠ وعوض نفسه كان يعمل مثلهم فى البحر ٠ لكنه كرهه بعد موت أخيه الأصغر عباس فى نوة

قاسية . اخذت العديد من الصيادين وترك عبـاس ثلاثة أطفال . أكبرهم الولد حسن الذى يعمل ـ الآن ـ عندالحاج الدسوقى . ملزم عوض برعاية أطفال أخيه رغم دخله المحدود .

وقتها تحدث عوض مع الحاج الدسوقى ، يطلب من الدكتور يوسف أن يجد له عملا فى مستشفى السبع بنات التى يعمل بها . المهم أن يبعد عوض عن البحر والمراكب والصيد . فرحب يوسف بذلك . وبعد أن سعى لتعيينه فى المستشفى ، طلب منه أن يكون تومرجيا فى عيادته .

لا يستطيع عوض تنظيف العيادة فى المساء . فهى تسهر ـ احيانا ـ للساعة الثانيـة صباحا . المرضى كثيرون يجلسون داخل العيادة وخارجها . ويصـل بهم الأمر لأن يجلسوا على السـلالم فى مدخل العيادة . فالدكتور « سيطه » ملأ المكان كله . هو دائم الابتسام . يمازح الولد الصغير والمرأة والفتـاة والرجل . كل نوع له حديثه ومزاجه ونوادره . اذا ما كان شابا أو فتاة لم تتزوج يقول مازحـا :

ـ سيزول كل هذا بعد الزواج .

واذا كان شيخ عجوز بلا زوجة يلح الدكتور عليه بالبحث عن فتاة أو امرأة نصف عمر لتعيد له شبابه .

يخرج الجميع من عيادته سـعداء . كما أن أجرته قليلة جدا. ولا يهتم بالحصـول عليها . فيمكن للمريض ان يكشف أكثر من مرة بنفس الأجر القديم نفسه . بل يدفـع الدكتور أحيانا للفقراء من جيبـه .

عيب الدكتور الوحيد ـ فى رأى عوض ـ علاقته بليلى التى

تعمل مغنية فى اذاعة الاسكندرية . وفى كازينو كازابلانكا الذى يمتلكه فيكتور اليهودى .

تزور ليلى الدكتور كثيرا فى العيادة . تجلس وسط المرضى. تدخن السجائر المستوردة . وتعطى عوض واحدة ومن يريد من المرضى تعطيه . تستفز الزبائن الفقراء بملابسها غالية الثمن وعطرها الفواح الذى يملأ المكان ويمكن أن تشمه من خارج العيادة . وشعرها المصبوغ بكل الوان الدنيا . والذى يطير حول وجهها الملون بالأصباغ .

تدخل ليلى فى دورها . الكل يظنها مريضة عادية جاءت للعلاج . واذا ما أراد عوض أن يدخلها فور وصولها ، ليخلص منها ومن تصرفاتها الرعناء ، تقول مبتسمة :

ـ لست مستعجلة . اترك الدكتور على راحته . وأنا جالسة مع الأحباب .

وتشير الى المرضى الذين يتابعونها فى ضيق وانتقاد .

أراد عوض أن ينصح الدكتور بالزواج . فذلك سيعصمه من ليلى ومثيلاتها . لكن عوض فضل الصمت . فقد يغضب الدكتور منه ، ويعتبر أن هذا تجاوزا منه وقلة ذوق . فكيف لتومرجى مثله أن « يعدل » على الدكتور الذى يشغله ، ويعطيه أجره أول كل شهر . وكيف له أن يدخل نفسه فى خصوصياته ؟ !

بعد أن ينتهى عوض من تنظيف العيادة ويطمئن على أن كل شىء فى مكانه ـ كما يريد الدكتور ـ يغلق باب العيادة وينزل الى القهوة . هى تحت العيادة مباشرة . يجلس فى الخارج ليرى الدكتور عندما يأتى بسيارته فاذا ما جاء . أسرع عوض الى السيارة يفتح بابها . ويحمل عنه حقيبته ويسير خلفه .

عندما نزل عوض الى القهوة ، وجد الصول عبد الله يدخن شيشته ، يرشف قهوته فى اناة وتلذذ . كانت قدماه حافيتين ، وماسح أحذية فى ركن القهوة يمسح حذائه .

عبد الله ملازم فى البحرية الآن . هو حقيقة بدأ مساعدا (صول) بعد التحاقه . لكنه حصل على ترقية وفى القريب سيحصل على الثانية . ومازالوا ـ هنا ـ ينادونه بالصول عبد الله . حاول كثيرا ان يفهمهم بانه أصبح ملازما دون جدوى . فصمت الرجل . وعندما سيحصل على الترقية الثانية ويصبح ملازما أول . لن يقول شيئا ـ فهو ـ لو قدر له واصبح لواء . سيظل فى نظرهم « الصول عبد الله » .

تجاوز عبد الله الثلاثين بقليل . تطوع فى الأسطول بعد حصوله على التوجيهية عام ٦٤ . يهوى كتابة الشعر . وقد اذاعت اذاعة الاسكندرية عددا لا بأس به من تمثيلياته .

اعتدل عبد الله عندما راى عوض آتيا اليه :

ـ أهلا يا عوض . اجلس .

واشار الى مقعد خال بجواره ، قال عوض :

ـ من مدة لم أرك .

أخرج عبد الله مبسم الشيشة من فمه وصاح :

ـ مشغولون هذه الأيام .

ـ ماذا . هناك قلاقل .

ـ اسرائيل تهدد بضرب سوريا . تشرب قهوة ؟

ـ شكرا • سأشرب فى العيادة بعد أن يأتى الدكتور •

ـ بل ستشرب قهوة معى •

ونادى عبد الله القهوجى •••

عبد الله صديق للعديد من أهل الحى • خاصة الذين يقاربونه فى السن • العديد من أصحابه تفرق وذهب عنه • أحمد بن الحاج الدسوقى فى ألمانيا الآن • كان من أعز أصحابه • ويسهل التفاهم بينهما • فأحمد مثله يهوى القراءة • ويوسف داود مشغول الآن بعيادته وعمله فى المستشفى • لم يتبق لعبد الله سوى نساء كازينو فيكتور اليهودى حتى صابرين خطيبته غاضبة منه • وفى آخر زيارة لها ، رمت له الدبلة • وقالت انها لا تريده • وتكفيه نساء الكازينو اللائى يذهب اليهن كلما كان فى اجازة •

عبد الله من أسرة كبيرة فى الأنفوشى • ويقولون ان سبب التحاقه بالأسطول ، رغبته فى البعد عن البيت • خاصة أمه التى فضلت عليه خطيب ابنتها • فأصبح الثقل فى الكل فى البيت • ففضل عبد الله الانسحاب والنوم فى السفينة عن النوم فى البيت • ذلك موضوع سخيف لا يحب عبد الله الخوض فيه • المهم ان جده الأكبر الشرقاوى باشا ــ كان يمتلك أراضى شاسعة • وكان له مدفن خاص لأسرته • لا يسمح بالدفن فيه سوى لأفراد أسرته • لكن نابليون ــ منه لله ــ عندما جاء فى حملته المشهورة أصدر أمرا بمنع دفن الموتى فى البيوت • أو وسط الأحياء • فتم نقل رفات الأجداد الى عمود السوارى • وأصبح مدفنهم القديم ــ وسط السيالة ، والقريب جدا من سيدى محمد كظمانى ــ تجمعا للعفاريت ومقرا لهم ، خاصة الشرقاوى جد عبد الله الأكبر • فقد غضب الرجل لمحاولة

نقل رفاته الى مدفن عادى بجوار أحط الناس · فكان يخرج مساء ليخيف الناس الذين يقتربون من أرض المدفن القديم ·

وفى الحرب العالمية الثانيــة استولى الانجليز على أرض المدفن القديم وحولته لمعسكر يبيت فيه الجنود · ودهش النــاس لقدرة الانجليز على التحمل · وكيف لم يؤثر فيهم عفريت الشرقــاوى باشا · وبعد ذلك حوله الانجليز الى مخبــأ لكن الناس لم يذهبوا اليه · وفضلوا الموت على الدخول فيه وسط العفاريت ·

رفع والد عبد الله قضــية ضد الانجــليز لاســترداد مــلك الأجداد · وقبل أن يقضى القاضى فيها قامت الثورة وتغير الحال · فرحل الانجليز عن كل بر مصر · وأصبح المدفن القديم كله ملكا للبلدية · فحولته الى حديقــة عامة ومرحاض عمومى لا يستخدمه سوى الأغراب عن الحى الذين لا يعلمون بحقيقة الأمر ·

كاد عبد الله أن يكمــل الشــهر ولم يخرج من السفينــة « الحرية » التى يعمل عليها · فهناك طوارىء لاحتمال قيــام حرب بيننا وبين اسرائيــل · هكذا قال لهم العقيد حســن المختــار كومندان السفينة ·· ابتسم عبد الله ، لذكرى حسن المختار · فهو كحتة سكرة · لو ســألوا عبد الله ــ من يحبــه أكثر لاختــار : صابرين ــ خطيبته ــ رغم ما فعلته معه ، وابوها الحاج الدسوقى واخوها أحمد والعقيد حسن المختار · ولن يختار احدا من أسرته · فأزواج اخواته البنات يقاضينه فى المحــاكم لأخذ نصيب زوجاتهم فى الميراث · واين الميراث · أرض المدفن القديم الكبيرة اصبحت ملكا للدولة · ولا يمتلك عبد الله الآن ســوى الفيللا القريبة من ارض المدفن والتى تؤويه وسيتزوج فيها عندما ترضى صابرين عليه ولن يسمح بأن يشــاركه فيها أحد · أيريد أزواج أخواته أن يشاركوه الفيللا · يسكنون حجراتها معه ؟ !

يجلس عوض بجانب عبد الله · يرشــف قهوته ولا يحس بالأتون الذى يغلى داخل صــدر عبد الله ·

تنهد عبد الله فى أسى · شــارد هو فى السفينة التى قضى بها ـ هذه المرة ـ ما يقرب من شهر أكل فاصــوليا حتى كرههــا (علما بأنه كان يفضلها ويرتاح لأكلها قبل التحاقه بالأســطول) الآن هو يتجنبها فى البيت ولا يطبخها أبدا · يكفيه ما أكله منها فى الســفينة ·

ابتسم عبد الله ابتسامة واسعة · وكادت تتحول الابتسامة الى ضحكة ذات رنين · لو أحس به عوض ـ الذى يجلس بجواره ـ لأشاع عنه هــذا ·وقال انه جن لأنه يضحك للاشىء ·

حكى زميل له فى السفينة أنه أكل فاصوليا ليل نهار طوال شهر تقريبا داخل السفينة · فكان ينتظر الاجازة بفــارغ الصبر ، ويحلم بأكل مختلف : بسطرمة بالبيض · أو كفتة ·· الخ · لكنه عــاد الى البيت مساء ولم يجد سوى الفاصــوليا التى طبختها أمه فى الصباح بالصدفة · فلم يأكلها ونام دون عشاء ·

أول مرة يرى عبد الله ، العقيد حسن المختار منذ سنوات قليلة · قبل أن يلتحق العقيــد برئاســة السفينــة « الحريــة » وقيادتها · جاء اليهم ليدرس لهم مادة فنون بحر · فوقف عبد الله قبل أن يدخل العقيد أمام زملائه الدارسين · أغرته السبورة الكبيرة السوداء اللامعة أمامه ، لأن يكتب عليهــا ، خاصة ان خط عبد الله جميل · فكتب البيت المشهور للشاعر عبد الحميد الديب :

ان صافيتنى يا أير يوما   شربت من المنى عسلا وسكرا ·

وفجأة دخل العقيد ، فأسرع عبد الله الى مكانه دون أن يلحظه، موقنا أن اليوم لن يمر على خير • فقد أراد أن يمزح مع زملائه ، ثم يسرع بمسح السبورة « بالممسحة » قبل أن يدخل العقيد •

قرأ حسن المختار بيت الشعر وسأل :

ـ من الذى كتب هذا ؟

وقف عبد الله مبتسما • ظنه العقيد لم يفهم ما كتبه • فسألة :

ـ ماذا يقصد الشاعر بهذا ؟

ـ يقصد أنه لو اطاعه قلبه سيرتاح وكأنه شرب عسلا وسكرا •

نظر العقيد الى الوجوه أمامه فأحس بأنه يكذب • ويدعى عكس ما يضمره ، فصاح فيه :

ـ أرجوك • أخرج بره •

وخرج عبد الله وحمد الله لأن الموقف انتهى هذه النهاية ، ولم يصعد العقيد الموقف أكثر من ذلك •

ـ وسأل العقيد الجالسين أمامه :

ـ حقيقة • زميلكم لا يعرف معنى البيت ؟

قال أحدهم :

ـ كيف • وهو شاعر له قصائده التى تنشرها الجرائد وتذيعها الاذاعات ؟ !

قال العقيد :

ـ ما اسـمه ؟

ـ عبد الله الشرقاوى ٠

وابتسم العقيد ٠ فهو يعرف أن شاعرا فى الاسكندرية بهذا الاسم ٠ وقرأ له ٠

مجلات الشعر والثقافة ٠ وفى جريدة الأخبار ٠ من يومهـا أصبحا صديقين ٠ واتضح ان العقيد ـ أيضا ـ من المهتمين بالثقافة والأدب ٠ وقد نشر مقالات فى مجلة الثقافـة عن الشعراء الصعاليك وعن شـعراء دمهم خفيف مثل الحطيئة ومحمد مصـطفى حمـام وعبد الحميد الديب وغيرهم ٠

بعد ان انتهى عبد الله من تدخين شيشته استأذن من عوض ٠ قال بعد خطوات قليلة سارها :

ـ لا تدفع الحساب ٠ فقد دفعته ٠

ـ ربنا يخليك يا حضرة الصول ٠

كل الذين يجالسون الصول عبد الله يعرفون تصرفاته الغريبة٠ وما عادوا يدهشون لها ٠ ولا تثير اعتراضهم الآن ٠ فهو يجلس بينهم ـ أحيانا ـ وكأنه ليس موجودا ٠ يسحب نفس الشيشـة ٠ ويشرد بعيدا ٠ يؤكد عوض انه ـ أحيانا ـ يلمح دموعا تكاد تنبثق من مقلتيه ٠ أو أن يبتسم فجـأة للاشىء ٠ ويقوم ـ أحيانا ـ فجأة تاركا شيشته المشتعلة ويسير ولا يعود اليهم طوال الجلسـة ٠ يكون الوحى قد جاءه فجـأة بقصيدة أو فكرة تمثيلية ٠ فيسرع الى فيلته ليكتبها قبل ان تطير من دماغه ٠ لذا ٠ قال عوض لنفسه ـ وقتهـا ـ :

ـ حتما ٠ الوحى جاءه الآن ٠

لكن الكثيرين يرجعون تصرفات عبد الله الغريبة هذه ، لسكنه القريب جدا من أرض المدفن القديم . فهو يطل على الحديقة العامة والمرحاض العمومي من فراندة الفيللا التي يعيش فيها وحده . منذ أن ماتت أمه . وتزوجت أخواته البنات .

سار عبد الله بملابسه المدنية . التي يرتاح لارتدائها أكثر من الملابس العسكرية . ولم يكن يتمنى أن يكون عسكريا . فتصرفاته ليس لها صلة بالنظام والانضباط . حجرته في البيت فوضى . ملابس ملقاة في كل ركن . وكتب كثيرة مبعثرة تحت السرير وفوق التسريحة وعلى الأرض . هكذا كان من قبل أن تموت أمه وتتزوج أخواته . فكن يحملن عنه هذا . يسرعن الى حجرته لاعادة الترتيب فيها . الآن لا تزوره الأخوات . فكلهن واقعات تحت تأثير الأزواج الذين يطمعون في الفيللا .

نصحه البعض ببيعها . واستئجار شقة صغيرة : حجرتان أو ثلاث على قدره . لكنه رفض هذا بشدة . أيتخلى عن فيللا جده الشرقاوي باشا . الا يكفي ما حدث لأرض المدفن القديم ، فأخذه الانجليز ليعطونه لبلدية الاسكندرية .

لن يذهب عبد الله الى الفيللا الآن . فهو لم يذهب الى كازينو فيكتور اليهودي منذ ما يقرب من شهر . لم ير خلالها سوى الرجال . ذكور أمامه وخلفه وحوله . لم ير ظل امرأة . وحتى وان رآها فستكون في مركب بعيدة .. تسرع على الشاطىء . فماذا ستفيده الرؤية ؟ : ! سيذهب الى الكازينو المواجه لمسجد أبي العباس . على البحر لقد اشتاق لجلوسه أمام البارمان . فوق المقعد العالي ، وشرب الخمر في أناة وتلذذ ومتابعة أجساد نسوة الكازينو شبه العارية . معظمهن ممتلئات طبقا للذوق المصري العام الذي يميل للأجسام الطويلة والعريضة .

ضحك عبد الله وهو سائر · مشهور هو بين أصحابه بميله للنساء وبتقديره لهن · تزوره الكثيرات فى فيلته · وذلك جعل صابرين ـ خطيبته ـ تغضب · وترمى له الدبلة · ليس مهما الآن أن يخوض فى ذلك الموضـــوع · حتى لا يفسد على نفسه لحظـات سعادته النادرة فى هذه الأيام ·

اراد يوما أن يكرم صديقا أثيرا لديه · فدعـاه الى ســهرة مع امراتين · حدث هذا فجـأة · عندما رأى امرأة كانت تزوره كثيرا فى فيلتـه ·

عندما رأته المرأة وقفت مبتسمة :

ـ عبد الله أين أنت ؟

قالت كلمة « عبد الله » بدلال وتنغيم ، وأطالت فيها · ثم ضربت على راحة يده فى دلع ··

ـ أريدك الليلة · وأريد امرأة أخرى لصديقى هذا ·

ـ من عينى ·

سارت معهما بعض الوقت · أكد عبد الله عليها :

ـ امرأة جميلة · اياك أن تأتى بأية امرأة ·

ـ اطمئن · ستكون أتخن منى ·

وسارت · تابع الزميل جسد المرأة الذى يترجرج أمامه · ثم يلحظ عبد الله أن قول المرأة فيه شىء غريب · أو خطأ ما لكن زميله ـ الذى أراد عبد الله تكريمه والاحسان اليه ـ صـاح فيه سـاخرا :

ـ اتخن منها كيف يا عبد الله ؟ وهى أتخن من اللازم ؟ !

كرهه فى المرأة التى سبق أن تعامل عبد الله معها وسعد بهـا وأعجبته • وتعمد أن يخرج من الفيللا فى الموعد الذى حدده لها • حتى اذا ما جاءت مع زميلتها ـ الأتخن منها ـ لا تجده •

أما كازينو كازابلانكا الذى يمتلكه فيكتور اليهودى • كانت البنت عزيزة تشـوى الذرة ، وبعض الزبائن يقفون حولهـا فى انتظار أن تنضج حبات الذرة من النار الملتهبة • وعزيزة تمد ساقها اليمنى ، كاشـفة عن بنطلون بيجامة مخطط وقذر • ترتديـه تحت جلبابها ـ وتهوى بيدها على النار بقطعة كرتون • كى تزيد النار اشتعالا حياها عبد الله من بعيد • فتوقفت عن التهويـة • ردت تحيته بابتسامة • وجد عبد الله الولد « لالى » يجلس على درجة من درجات الكازينو العريضـة • داعبـه عبد الله ، بأن أمسك شعره الأصفر باسما :

ـ ها • كيف الأحوال يا لالى ؟

رد لالى التحية بخجل • وبكلمات غير مفهومة • لالى ليس طفلا • لقد تجـاوز السادسة عشرة بشـهور قليلة هو وتوأمه بوللى • انهما يعيشان مع الخواجة فيكتور صاحب الكازينو منذ ان كانا طفلين رضيعين • أسكنهما الخواجة حجرة فى مدخل بيته مع أمهما حافظـة •

فى داخل الكازينو الجو حار • فحطت الحرارة فوق الجدران المطلية ببوية الزيت • فزادت من حرارتها •• والموائد الحديدية اشتعلت • فنام فيكتور فوق مقعده • وكرشه يمتد أمامه • وشاربه تهدل فوق فمه المغلق الصغير وقطـة أثيرة لديه تغفو مثله فوق ركبتيـه • والولد بوللى ـ توأم لالى ـ يجلس بجوار البـاب رافعا قفطانه كاشفا عن لحم فخذيه الأبيض •

ليس فى الكازينو امرأة واحدة • بعد ساعات قليلة سيبدأن فى الحضــور • الواحدة تلو الأخـرى • هن نائمــات فى بيوتهن الآن • أو ربما لدى عشاقهن الذين يقضون ليلة الأمس كلها معهن •

لكن عبد الله لا يستطيع الانتظار • فالاجازة قصيرة جــدا هذه المرة • وفى الغد لابد أن يذهب الى سفينته مصر • والساعات المتبقيــة من الليل سيقضيها فى اجراء بعض اللوازم الملحــة له ولزملائه الذين لم يتمكنوا من النزول اجازة مثله •

ـ بوللى • بوللى •

ابتسم له الولد من بعيد • ولم يجبه •

ـ ليلى • لم تأت ؟

ـ لا •

ـ ولا فريدة ؟

لم يكن السؤال له مكان أو حيز داخل الكازينو النائم من أثر الكسل والحرارة التى جاءت فى مايو أعلى من معدلاتها الطبيعيــة فى مثل ذلك الوقت من كل عام • المكان الواســع أمام عبد الله ليس فيه جنس امرأة ولا رائحتها فلماذا يسأل بوللى هكذا ؟ !

عاد بوللى الى ابتسامته البلهــاء • وخــرج عبد الله الى الشارع • لم يقف « لالى » الجالس فوق درجة السلم العريضة • فجسده الممتلىء والمترهل جعل الرخــام يسخن ـ تحتــه ـ ويشتعل • ووضع العرق مادة لاصقة بين جسده ودرجة الســلم الرخامية الملساء •

لم يحدثه عبد الله هذه المرة • لن يستطيع الذهاب الى الفيللا دون امرأة • حتى وان كان لديه وقت طويل • ويستطيع أن يأتى

فى الليل لأخذ واحدة · لن يستطيع الانتظـار أكثر من هــذا · فربما تطول غيبته فى السفينة فيغيب شهرين أو ثلاثة أو ربمـا أكثر · أو قد لا يعود الى البر · فتقوم القيامة · ولا يجد امرأة وقتها أمامه · لابد من امرأة الآن ·

ابتسمت عزيزة عندما رأته · هو يعرفها منذ ســنوات ويعطيها الجنيهـات القليلة من وقت لآخر · ويمازحهـا أحيانا · صاحت عزيزة :

ــ كابتن عبد الله ·· كابتن عبد الله ·

ترى عزيزة نساء الكازينو ينادونه ب « كابتن عبد الله » فقلدتهن ·

ــ ماذا تريدين ؟

اقترب منها · امرأة تقف أمامها عن ذراعيها السمراوين · وتنظر الى كوز الذرة الذى يتلظى على النار المرأة لاهيــة عنه ، مشغولة بابنها الصغير الذى يتعجل الذرة ويبكى بجوارها ·

أحنت رقبتها وهى تحدث ابنهــا الصغير · وعبد الله مبهور بسمار جســدها الذى لونته شمس الصيف · فلم يسمع كلمــة واحدة مما تقوله عزيزة · هو الآن فى حالة لا تسمح له بتقــدير الأمور كما يجب أن تقدر · حاجته للمرأة ــ بصفة عامة ــ تجعله فاقد الوزن ·

سار بضع خطوات حتى وصل الى سياج البحر · جلس فوقه وتابع ذراعى المرأة · زميل له فى السفينة ظروفه وعاداته الغريبة (التى لا يستطيع عبد الله ان يذكرها الآن) جعلتــه يخطب عدة مرات ويفشل · ويزعم ذلك الزميل ، ان تلك التجــارب جعلته خبيرا فى أمور النساء · فحكى يقول :

ـ اذا ذهبت لرؤية فتاة ـ بغرض الزواج منها ـ لابد أن تكون فى حالة شبع جنسى . لأنك لو ذهبت اليها وأنت غير ذلك . ستراها أجمل الجميلات ولو كانت دميمة .

وانه جرب هذا . فقد رأى فتــاة جميلة جدا . ووافق على زواجه منها . لكن بعد أن شبع جنسيا ورآها ثانية اكتشف مدى المقلب الذى كان سيأخذه لو تزوجها . كان كل شىء فيها قبيحا .

حملت المرأة كوز الذرة الساخن . وشدت ابنهــا من يده وسارا وهما يتحدثان ويختلفان : الولد يريد كوز الذرة ، وهى تخــاف أن يلسعه الكوز الساخن . قالت عزيزة :

ـ أعد لك واحدا ؟

اشاح بيده . أتناديه من أجل سؤال سخيف كهذا ؟ !

ظل يتابع المرأة التى تحمل كوز الذرة وتمســك الولد الذى يحرن ويبكى بجوارها . وعندما ابتعدت عن نظر عبد الله ، وصارت أبعد من أن يراها . ذهب الى عزيزة :

ـ ألم ترى واحدة من نساء الكازينو ؟

ـ لم يأتين بعد .

لم يجبها . تعرف عزيزة أنهن يذهبن الى فيلته . ويقضين الليل معه .

سار خطوات . فصاحت عزيزة فيه :

ـ ألا أصلح أنا لذلك ؟

أراد أن يضحك ويقهقه حتى يسمعه كل من يقف بجوار سياج البحر . عزيزة ؟ ! انها دميمة . شــعرها أكرت وأنفها ـ غير

كبره الواضح ــ به ندبة كبيرة تزيده قبحا · وملابسها متسخة · وقدماها ــ رغم الشبشب البلاستيكى الذى تلبسه ــ وسختان ومقشفتـان ·

سار خطوات · ثم عـاد اليها :

ــ تعرفين الفيللا ؟

ــ أعرفهـا ·

جاءتـه عزيزة كثيرا من قبـل · كان فيـكتور ــ صـاحب الكازينو ــ يرسلهـا بطلباته ــ عندما ينشغل الولدان « بوللى ولالى » بعملهما داخل الكازينو ·

لكن عبد الله لم يدخلها الفيللا قط · فى كل مرة يأخذ منهـا الطلبات ويعطيها ما فيه القسمة · وهى واقفة على الباب ·

* * *

فتح عبد الله باب الفيـللا الخـارجى · رفع القفل الكبـير والجنزير الذى يربط الدرفتين ببعض · ثم الباب الداخلى · خلع قميصه · أحس بالراحة والحرية · سيغتسل ويأكل لقمـة · فقد جاع · ثم ينزل لقضـاء لوازمه استعدادا للعودة الى السفينة فى الصباح الباكر ·

نسى عزيزة وما قالته · وما قاله لها · هل يمكن حقا أن تأتى اليه · أكيد هى كانت تمازحه · نعم · فهو لم يعرف عنها ذلك قط · اهلها فقراء · يعملون أعمـالا بسيطة · لكن لم يفعلوا هذه الأشياء من قبل · أكيد هى لا تقصد ما قالته ·

بعد أن اغتسل . أحس برغبة فى أن يريح جسده • فهو لم يرتح منذ أن خرج من باب الجمرك فى رأس التين صباح اليوم . لم ينم • أو حتى يفرد جسده فوق الفراش • ظل منتصبا طوال الوقت • ناظرا الى الناس وهى تسير فوق الأرض • اختار الشوارع المزدحمة : سعد زغلول وصفية زغلول ثم المنشية وزنقة الستات•• كان يبعد عن الشوارع الخالية •

نام بعد أن استلقى على السرير لحظات قصـار • لم يطل نومه • سمع صوت جرس الباب الخارجى يدق فى عنف وعناد • قام اليه مضطرا وكارها للقادم دون أن يعرفه • ود لو ضربه بالمكنسة ـ مهما كان وضعه ومكانته •

وجد عزيزة أمامه ـ كما هى ـ لم تفكر حتى فى أن تغير شيئا من شكلها • شعرها نصفه عارى • والنصف الأسـفل مغطى بايشارب متآكل قديم • ووجهها فيه آثار النار والدخـان والهباب الملتصق بأنفها الكبير غير المتناسق مع باقى الوجه •

ـ عزيزة • ماذا تريدين ؟

ـ جئت • كما أمرتنى •

سار الى الداخل • لم يوقفها عند الباب ـ كما كان يفعل فى كل مرة ـ وهى أغلقت الباب وتبعته • جلس متهاويا يتابعها من جلستـه : شبشبها البلاسـتكى ترك آثارا فوق السجـادة الثمينة • لم تفكر حتى فى خلعه قبل أن تغوص فى عمق السجادة •

أراد عبد الله أن يعطيها بعض المـال ويصرفها • يقول لها انه لم يكن جادا فيما قاله لها • انما الأمر كله لم يزد عن مزحـة كبيرة معهـا •

أرادت البنت أن تغريه ، فتصرفت كما كانت تفعل نساء الكازينو معه . رفعت رقبتها لأعلى فى دلال . وحركت جيدها وقالت :

ــ ها أنا أمامك . تقدم منى .

جسدها ليس سيئا . بل هو افضل من أجساد كثيرات تعامل معهن . أفضل من جسد ليلى المغنية المشهورة المشكلة فى وجهها الدميم هذا .

قام عبد الله شدها من يدها فى عنف وأسرعت خلفه منقادة وفاقدة الارادة . وصل بها الى الحمام . قال :

ــ تعرفى . كيف تستحمين ؟

ــ اعرف .

ــ ساضبط لك الماء الساخن والبارد . واخلعى هذه الملابس وانقعى جسدك فى هذا البانيو حتى تذيبى الأوساخ .

ــ سأفعل .

ضبط لها الماء الساخن والبارد . ثم اغلق باب الحمام عليها .

جلس فى مكانه شاردا . قال من مقعده :

ــ ارمى كل ما تلبسينه من خلف الباب .

ــ لماذا ؟

ــ اسمعى ما اقوله لك .

كل همها أن يرضى عنها . ويحقق لها أعز امانيها . بأن تكون عشيقة له مثل ليلى وفريدة .

رمت كل ملابسها · رفعها بطرف المكنسة · ثم اشعل النيران فيها داخل المطبخ · وأخرج من دولابه ملابس لها · موجودة دائما لاستعمال صاحبة النصيب · لا يذكر عبد الله أن كان قد اشترى هذا القميص · أم أنه ملك لواحدة ، جاءت به مرة ونسيته · أو تركته للمرات القادمة · وكذلك الفستان ·

خرجت عزيزة من الحمام ، شعرها مبتل ، وملابسها غير منضبطة على جسدها · لكنها ــ على اى حال ــ أفضل بكثير من القرف الذى خلعته وأحرقه عبد الله بيديه ·

اخذها الى حجرة النوم · كانت فى يده كالدمية · تتحرك كما يقول لها · تأوهت بقدر ما تستطيع · وتدللت مال عبد الله عنيها · فأحس بأن وجهها مازال كما هو · وأنه غير قادر على احتماله · فقام فزعا · قالت :

ــ ماذا ، غيرت رأيك ؟

خرج من حجرة النوم ملولا · أراد أن يتركها فى الفيللا وينزل· الكازينو ليس بعيدا · وقد يجد فيه واحدة ممن يتعامل معهن ·

رأى مجلة من مجلات السينما أمامه اخذ يتصفحها لعله يهدأ قليلا · رأى صور الممثلات : أودرى هيبورن ، راكل والش ، صوفيا لورين · هند رستم · قص صورة هند رستم من المجلة · وبحث عن قطعة أستيك ودخل حجرة النوم · رأى عزيزة تجلس بالملابس الواسعة · مهزومة حزينة وباكية · قالت :

ــ أريد ملابسي ·

ارادت أن تعترض بأية طريقة على تجاهله لها ، وازدرائه :

ــ لقد أحرقتها ·

ـ آخذ هذه الملابس وأنزل الى الشارع ·

ـ لا · انزلى عارية ·

أحست بأنه سيعطيها هذه الملابس الجيدة والغالية الثمن ·

اقترب منها · جلس على حافة الفراش · اقتربت هى منه أكثر · أحست بأن هناك أملا · وأنه لم يرفضها كل الرفض · فأخذت تتمسح فى جسيده بذل · وضع صورة هند رستم فوق وجهها · وربطها فى أذنيها بالأستيك · تأوهت وناحت كأفعى · سعد بها وانتشى ·

سعدت هى ـ أيضا ـ لأنها أصبحت مثل سيدات الكازينو اللاتى يقبضن من فيكتور صاحب الكازينو ومن الزبائن الذين يتعاملون معهن ·

- ٣ -

انصلح حال الجو فى المساء . لم يعد حارا كما كان وقت الظهـيرة .

قالت صابرين لأبيها الحاج الدسوقى :

ـ الن يأتى اليك عم محمود ؟

وعم محمود هذا هو سائق الحنطور الذى يأتى الى الحـاج بعربته لينقله من مكان الى آخر . قال الحاج :

ـ لا سأسير الى دكان عمك الحاج محمد سماحة .

ـ ليتك تحييه باسـمى .

قبل ان يخرج الحاج سأل ابنته :

ـ لم يسأل الصول عبد الله ؟

صاحت غاضبة :

ـ لا أريده ان يسأل . ولا أريد ان اراه .

ـ عـوض التومرجى أخبرنى بأنه رآه · وجلس معه على القهوة ·

ـ هو حر · يجلس فى القهوة ، فى الكازينو ·

ـ لا تحزنى · الرجل أخذ على خاطره لأنك رميتى له الدبلة·

ـ تريد أن أبقى عليه بعد كل ما سمعته عنه ؟ !

ـ يا بنتى · الشباب يفعل أشياء كثيرة قبل الزواج · المهم أن يكون مستقيما بعده ·

ـ معرفتـه لنسـاء كازينو اليهودى · يجعلنى أؤكد أنـه سيظل هكذا طول عمره ·

ـ لا تغضبى هـكذا · وعندما يعود أخوك أحمد سـنرى ما سنفعل ·

بكت صـابرين · حاولت أن تتماسـك كثيرا أمام أبيهـا · وتظاهرت بأن أمر عبد الله لا يعنيها فى شىء · لكن قلبها يأكلهـا عليه · فتنظر من خـلال شيش النافذة علها تلمحه مارا تحت البيت كما كان يفعل قبل أن يخطبها · أو مارا فى طريقـه الى قهوة عبده الزردونى التى كان يحـرص على الجـلوس فيهـا أيـام اجازاتـه ·

لكن الرجل ما صدق أن أعطته الدبلة وآدى وش الضيف · قال · بركة يا جامع ····

كان عبد الله صديقا لأخيها أحمد · يأتى لزيارته كل يوم تقريبا · قبل أن يلتحق بالبحرية · يستذكر احمد دروسـه ، ويقلب هو فى محطات الراديو ، يبحث عن الموسيقى والغنـاء · يخرج الى الشارع ويأتى بالحلوى ، والفاكهة ، يأكلانها معـا ،

والبيت كله نائم .. كانت أمه موجودة وقتذاك . فتـدعو الله أن يكون من نصيب صابرين الولد غلبـان ، ابن عيلة حقا . لكنـه لا يجد صدرا حنونا . كانت أمها تعد له طعاما مخصوصا مرددة :

— غلبان . ليس لديه من تطبخ له . اكله كله أكل عذاب . البيض المقلى والفول والطعميـة والسجق . لا يعرف كيف يعد المحشى . ولا أن يحشو الفراخ .

بعد آن سافر أحمد . انغمس — هو — فى سهرات اليهودى الملعون . خاصـة ليلى التى تسأل عنه ببجاحة اذا ما غاب عنها . ربما تغريه شهرتها وأغانيها فى اذاعة الاسكندرية ، وفى الأفـراح ، وفى كازينو فيكتور اليهودى ليس مهما . فسيعود عبد الله اليها . فتأكيد سيعلم أن اخاها عاد من المـانيا . وسيأتى ليصافحه ويسأل عنه وقتها ستبتسم له وتصالحه . ستنظر اليه من بعيد . نعم . لن تضيع الفرصة هذه المرة .



سار الحاج الدسوقى حتى شارع رأس التين . حيث دكان الحاج محمد سماحة . هو فى الأصـل دكان حلاق صحى . لكنه ليس كأى حـلاق . الدكان واسع ببابين من الصـاج . يغطيهما بستارتين من القماش المخصص للستائر داخل الدكان الواسـع أربعة مقاعد للحـلاقة . يعمل صنايعية عليها . ومكتب مخصص لجلوس الحاج . لكنه قلما يجلس فوقه . فجلسته المفضلة وسـط اصحابه الكثيرين والذين يكادون لا يتركون المحل ..

يجلس فى الخارج وحوله أحبابه من كل مهنة . وان كان يغلب عليهم الأفندية . فالعديد من متعلمى بحرى ومثقفيه يأتون

الى الحاج محمد سماحة ، يسمعون اليه • ويتحدثون منه • الرجل قرأ كتبا صفراء كثيرة يدهش حتى المثقفين ــ من أهلى بحرى ــ كيف استطاع الحصول عليها •

أحد أولاده ــ الذين كبروا الآن ــ يجلس فوق المكتب ليأخذ ثمن الحلاقة من الزبائن • لكن اذا ما جاء الى الدكان أحد المعدودين فى الحى • وأحس الحاج بأنه لابد من تكريمه ، وأن يخصه بالتحية ، يقوم ويلح عليه بأن يحلق له رأسه ، أو ــ على الأقل ــ يحلق لحيته بنفسه • والحاج الدسوقى واحد من هؤلاء • فقد كان يجلس وسط مريدى الحاج محمد سماحة أمام الدكان ، وتطرق الحديث الى الدين ــ وهو عادة ما يتطرق اليه ــ والى الذين حلموا برؤية الرسول ــ عليه السلام ــ فى المنام • وحكى كل واحد ما حدث له فى المنام ، وصمت الحاج الدسوقى طويلا • ثم قال بعد تردد على استحياء :

ــ لقد حلمت برؤية أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ جاءنى فى ليلة كنت فيها قلقا وحزينا • وقال لى « ان بعد العسر يسرا ، ان بعد العسر يسرا » • وصحوت وأنا أصيح مرددا بأعلى صوتى « ان بعد العسر يسرا » صمت الجميع • وابتسم الحاج محمد سماحة • وعندما حان وقت تشذيب لحية الحاج الدسوقى • أقسم سماحة بأن يفعل هذا بنفسه • وكان أحد الصنايعية يفعل هذا من قبل •

وهنأ الجميع الحاج الدسوقى لما ناله من حظوة ومكانة وتكريم لدى الحاج محمد سماحة •

وفى أوقات الصلاة يقف الحاج سماحة أو أحد الجالسين ويؤذن للصلاة • ويمد عماله وأبناؤه الحصر فوق الرصيف العريض، ويصلى الحاج سماحه بهم •

يحكون فى الحى بأن الحظوة التى نالها الحاج سماحة ليس السبب فيها عمله كحلاق صحة • يطاهر ويداوى الجروح • ويعالج الأعراض البسيطة كالامساك والاسهال والمغص • ومس الأذنين والعينين • انما السبب هو قيامه بأعمال خفية لا يقدر عليها أحد من سكان الاسكندرية سواء • مثل فك المربوط (غير القادر على ايتاء زوجته) وفك السحر •• الخ •

وقد شاهد سكان بحرى بعيونهم شخصيات هامة جدا فى البلدة تأتى اليه من أجل هذا • ومن المألوف، الحى • أن يرى المارة ـ أمام الدكان ـ العديد من السيارات الفارهة الغالية الثمن بسائقيها فى انتظار أصحابها الذين جاءوا الى الحاج محمد سماحة ملتمسين منه العلاج أو المشورة •

* * *

كان الحاج محمد سماحة يجلس خارج دكانه وحده • اقترب الدسوقى منه :

ـ السلام عليكم يا حاج سماحة •

وقف سماحة مرحبا ، وشد له المقعد الخالى بجواره • كان سماحة يتمتم ـ كعادته ـ عندما يكون وحده ، ببعض الأدعية• قال الدسوقى :

ـ جئت لأخبرك باننى سأسافر القاهرة صباح الغد •

ـ خير ؟

ـ أحمد ابنى ارسل تلغرافا • وسأنتظره فى المطار •

ـ أسافر معك ؟

ـ سيسافر الدكتور يوسف معى ٠

امتعض سماحة ولم يرد :

ـ اعلم أنك لا تحبـه ٠

ـ الله أعلم بالقلوب يا حاج ٠

ـ لكن الدكتور يوسف لم يقصر فى شىء ٠ يعالج المرضى من أهل الحى ، ويسـاعدهم ـ أيضا ـ فى أى مشكلة تقابلهم ٠

ـ الله أعلم بالقلوب يا حاج ٠

ـ الرجل لم يتأخر ، عندما علم بالخبر عرض على أن أسافر بسيارتـه ٠

ـ هذا شأنك يا حاج ٠ والدكتور احمد ابننا جميعا ٠

شردا للحظات حتى قال الدسوقى :

ـ يوسف يتمنى أن ترضى عنه ، وأن تسمح له بالجـلوس معـك ٠

ـ الله يرضى عنا جميعا ٠

لم يختلف يوسف مع الحاج محمد سماحة ، لأنه يقوم ببعض اختصاصـاته الطبيـة كالطهـارة واعطـاء الحقن والتغيـير على الجروح ٠ ولم يعلن يوسف رفضه لمـا يقوم به الحاج ٠ بل كان يثنى عليه ذلك خاصة أن الحاج سماحة لم يدع لنفسه ما لا يعلمه٠ فاذا ما كانت الحـالة صعبة بعض الشىء ، ينصح بالذهـاب الى الطبيب ٠

العلاقة بين يوسف والحاج سماحة يشوبها الحذر والتوتر ٠ فيوسف يعرف ان الحـاج سماحة لا يحبه ولا يرتاح له ٠ بل هو

يعامل كل يهود الحى بحذر وحساب · وان كانت معاملته لهم ليست فى مستوى واحد · فهو ـ مثلا ـ يجاهر بكرهه لفيكتور · ويلعنه فى جلساته لادارته للكازينو بهذه الطريقة السيئة · بينما يأخذ موقفا سلبيا من باقى اليهود الآخرين · لأنهم لا يسببون له ضررا مباشرا ·

عندما وقف الحاج الدسوقى مستأذنا · سار الحاج سماحة معه بضع خطوات · ثم قال له :

ـ أرجو ، عندما تعود من رحلتك سالما غانما · أن تضع حدا لما يحدث فى كازينو الخواجه فيكتور ·

ـ تقصد حكاية « لالى وبوللى » ؟

ـ هذان ليس اسميهما الحقيقيين · هما مسلمان ·

ـ سنرى هذا عندما أعود باذن الله ·

وسار الحاج الدسوقى متلذذا بلفحات الهواء الباردة المنعشة الآتية اليه من ناحية البحر القريب · وعاد سماحة الى مجلسه فى انتظار ورود رواده واحدا وراء الآخر ·

يعرف الحاج الدسوقى أن الولدين بوللى ولالى هما ابنا حافظة المسلمة · وقد كانت متزوجة من رجل مات ، أنجبت منه ولدا تركها وترك الاسكندرية كلها من أجلها عندما كبر · ثم ظلت بلا زوج لسنوات قليلة كانت تتردد فيها على فيكتور صاحب الكازينو · اعتقد الناس ـ وقتها ـ أنه يغريها بالرقص عنده كما فعل مع العديد من نساء الحى · لكن حافظة لم تعمل عنده ·

نسوة الحى يعرفن رغبة حافظة الشديدة للرجل ، وأمنيتها بان تتزوج · بعد محاولات عديدة فشلت ، استطاعت حافظة أن

ترتبع بأحد الرجال . وغابت عن الحى طوال فترة زواجهـا منه . لكنها عادت بعد شهور قليلة حاملة طفلين توأم ، كانا كفلقتى قمر . وشاع بعد ذلك ان زوجها ــ الذى لا يعرفونه فى الحى . لم يعترف بأبوة الولدين . فزواجه منها لم يدم سوى شـهور قليلة لا تكفى للولادة . وطلقها ذلك الزوج . فعادت بالولدين « لالى وبوللى » . ولم يكن اسميهما هكذا عندما ولدتهما . ذهبت حافظـة الى فيكتور اليهودى الذى أسكنها فى حجرة فى بيته . ومن يومها وأصبح الولدان فى عهدته . وسماهما بهذين الاسمين الغريبين على المسلمين وعلى أهل بحرى . ماذا يعنى لالى ؟ أو بوللى ؟ .. كل ما يعرفونه عن بوللى ، انه كان فاسـقا . وقوادا ومحرضـا على الفسـق لدى فاروق الملك .

وكبر الولدان فى كنف فيكتور اليهودى . واصبحا طويلين أطول من فيكتور بكثير . وبديا جبلين من اللحم الأبيض المـائل للأحمرار . ووجهاهما أحمران وشعرهما أصفر . وملاحة ظاهرة فيهما ورثاها عن أمهما حافظـة الجميلة التى غابت عن الحى بعض الوقت ثم عادت اليه ثانية .

لكن الولدين بديا فى صورة البلهاء . أو ربما لأن الخواجه فيكتور قد سلب شخصيتهما . ورباهما وكأنهما حيوانان ، كلبان اليفان ، أو قطان تستجيبان لـما يأمرهما به . وتفعلان ما يشاء .

كان فيكتور القصير ــ الذى يبدو فى حجمه وشكله كالبلاص ، يقفز ويضرب الولدين على وجهيهمـا أمام رواد الكازينـو وسـط الضحكات . والولدان يبتسمان ردا على ضحكات الرواد العالية . وينفذان ما يأمرهمـا به فيكتور مهمـا كان ذلك قاسـيا عليهمـا أو غريبـا .

كانا فى الكازينو كقردين يسلى فيكتور بهما رواد الكازينو . فهما ينظفان الكازينو ، ويمسحان بلاطه ومقاعده .. ويعملان فى اعداد الخمور والمزة ولحم الخنزير .

أهذا يرضى أى مسلم فى الدنيا ؟ ! الأمر الاغرب والأكثر اثارة ، هو أن الولدين ــ للآن ــ لم يتم ختانهما طبقا للتعاليم الاسلامية . والحاج سماحة واثق مما يقول . فقد رغم فطامهما ، وشاهد عورتيهما بنفسه .. وتأكد . من أنهما ــ للآن ــ لم يتم ختانهما .

- ٤ -

أصر الدكتور يوسف ان يكون السفر بسيارته ، وأصر الحاج الدسوقى أن تبقى صابرين فى البيت وألا تذهب معهما ، فهى ليست بقدر السفر والترحال والتعب • وســوف يعود اخوها اليها وستراه وتعانقه فى البيت • فما حاجتها الى أن تسافر معهما ؟ !

قبل أن تنطلق السيارة فى طريقها الى القاهرة ، لمح الحــاج الدسوقى آمال تنظر من الشرفة ، كان الوقت مبكرا جدا • فما الذى يوقظها هكذا ؟ !

قال الحــاج ليوسف :

ـــ آمال ، هى التى تقف فى الشرفة ؟

أجاب يوسف فى أسى :

ـــ هى يا حــاج •

ـــ وما الذى يوقظها مبكرا هكذا ؟ !

ارتبك يوسف قليلا • ثم قال :

ـ لعنها • لعلها تريد أن تطمئن على •

ـ عندها حق • فأنت ابن عمها ومتربى معها •

يعلم يوسف ان استيقاظ آمال المبكر ـ هذا ـ ليس من أجله هو •• وانما لأنها فرحة لقدوم أحمد الذى غاب عنها أكثر من اربع سنوات •

يوسف ـ عو الآخر ـ لم ينم ليلة أمس • قلق من إجل التلغراف ، ومتوثب ومتوتر من أجل آمال • يود لو صعد الى شقتها لكى يطمئن عليها • يراها • يعرف أحاسيسها •

كان قد أرتاح لسفر أحمد • على أمل أن تنساه آمال وتحس بيوسف اليهودى مثلها وابن عمها ، والذى يود لو رضت عنه وقبلته زوجا • المشكلة الأخرى ـ الآن ـ ان عودة أحمد ـ بعد حصوله على الدكتوراه فى الطب ـ سيجعل أهل بحرى يلتفون حوله ويتركونه هو الذى سهر الليالى من أجلهم • طوال أربع سنوات كاملة أحمد يتعلم فيها ويتابع نساء ألمانيا الجميلات ذوات الأجساد الرائعة المتينة • بينما يوسف يعمل فى المستشفى التى أكثر روادها من حى بحرى ، ويسهر فى العيادة ، يأخذ منهم أقل أجر • بل ويعطى المحتاج منهم اذا ما رآه فى حاجة الى مال •

قال الحاج الدسوقى :

ـ سماحة كان يريد أن يأتى معنا •

ـ أكيد غير رأيه عندما علم أنى مسافر معك •

ـ لماذا يا يوسف • عمك الحاج سماحة رجل طيب ويحبك •

ـ انت الطيب يا حاج • الحاج سماحة يحبنى ولا يحب عمى زكى • بل لا يحب أى يهودى فى بحرى •

يعرف الحاج الدسوقى أن سماحة لا يحب اليهود جميعا . وأن ما قرء عنهم فى كتب الصفراء ماثل ــ دائما ــ أمام عينيه . يحكى دائما عن لاقاه الرسول محمد منهم ومن غدرهم و لاعيبهم . وأحس الحاج الدسوقى أن الواجب يقتضيه أن تزيل هذه الفجوة بين يوسف والحاج سماحة . فالدسوقى يحبهما معا . ويوم المنى عنده عندما يجمعهما معا . فقال :

ــ الحاج سماحة لا يكرهك . ولا يكره عملك . لكنه ....

وصمت الدسوقى . أحس أنه قد تورط . وأن الوقت لا يسمح لاثارة المشاكل فيوسف ــ كثر خيره ــ ترك عمله ومشاغله وذهب معه الى القاهرة لاستقبال ابنه . قال يوسف :

ــ ماذا يا حاج . لماذا لم تكمل ؟

ــ الأمر أتفه من أن نعطيه اهتمامنا .

ــ لقد سافر اصحابى جميعا من اليهود الى بلدان العالم المختلفة ، وأخى وأختى سافرا الى ....

لم يكمل يوسف . فأكمل الحاج الدسوقى :

ــ الى اسرائيل أليس كذلك ؟

ــ نعم . واعمامى وأخوالى وباقى الأسرة سافروا أيضا الى اسرائيل وغيرها ، وبقيت بينكم لاحساسى اننى واحد منكم .

ــ أعرف هذا يا يوسف يابنى . والكل فى بحرى يحبونك ويقدرونك .

* * *

كان عبد الله يتمشى فوق سطح السفينة مصر ٠

أحس بصداع لا يعرف له سببا ٠ وربما من الشمس العفية اليوم ٠ وربما من سهره بالأمس ٠ لولا الظروف التى جدت ما جاء الى السفينة هـذا اليوم ٠ والعقيد حسن المختـار كان سيحتسبها اجازة له ٠ فقد قام عبد الله بالأمس متأخرا ٠ واستيقظ بعد عذاب وتعب ٠ ألقى بالمنبه من فوق الكومدينو المجـاور للسرير ليسكته ٠ بعد أن أحس بدقات المنبه الرتيبة تدق رأسه دقا عنيفا ٠

ظلت البنت عزيزة تؤرقه ٠ لقد أخرجها من الفيللا بعد عناء ٠ لم تكن تريد أن تخرج ٠ قال لها :

ــ ايه ٠ تريدين أن تبقى فيها ؟

ــ لا ٠ لكن دعنى أرتبها لك ٠

ــ لا أريد أن ترتيبها ٠ اخرجى الآن واسمعى كلامى ٠

أعطاها عبد الله مبلغا لن تستطيع الحصول عليه ولو شرت الذرة على الكورنيش لشهر بأكمله ٠

أفاق عبد الله ٠ ثم ضحك من نفسه ٠ ثم بكى ٠ ما الذى جعله يفعل هـذا ٠ أوصل الى عزيزة ٠ البنت المتسخة الثيـاب دائما والمنكوشـة الشـعر ؟ ! ستفضحه البنت ـ حتمـا ـ فى الكازينو ٠ ستقول لليلى وفريدة ٠٠ ستخبرهما بما فعله معها ٠ وسيضحك رواد الكازينو من جنونه ٠

ابتسم عبد الله ٠ هو مجنون لاشك العقيد حسن المختـار يؤكد هـذا دائما ٠ ولو سألته عن دلائل هـذا الجنون لأكدها بأسباب عدة تزيد عن العشرة ٠

حقا ، ما الذى جعله يفعل هذا • أهو الشـعر ، أم حكاية المدفن القديم الذى يسكن بجواره • ويراه من الفراندة ليل نهار • يراه عبد الله مدفنـا رغم تحويله الى حديقـة عامة ومرحـاض عمـومى •

ـ عبد الله • أفق • استيقظ •

ـ انني •••••

ـ انك نائم الآن •

ـ نعم • لقد سهرت كثيرا ليلة أمس •

ضحك العقيد :

ـ ماذا ، كنت تكتب قصيدة جديدة • ؟

ـ بل كانت معى فتاة •

وحكى عبد الله له عما حدث • فضحك العقيد وقال :

ـ عزيزة لن تفضحك • انت الذى ستفضح نفسك •

جاء زميل من السفينة قال :

ـ الرئيس جمال عبد الناصر سيلقى خطابا هاما الليلة •

ـ حسنا ، سنسمعه جميعا من ميكروفونات السفينة •

بعد أن ذهب الزميل • سأل عبد الله عقيده :

ـ أتظن ان عبد الناصر سيحارب ؟

ـ الجو مشحون • والتعزيزات الاسرائيلية على حدود سوريا لا تترك لنا خيارا •

ـ انني قلق لهذا •

ـ اطمئن • قيادتنا واعية تماما •



وقف الحاج الدسوقي بقامته المديدة • وجسده العريض في صالة الانتظار بمطار القـاهرة • وبجواره دكتور يوسف بقامته القصيرة ونظارته التي لا يرى بها سـوى خطوات قليلة أمامه • كان يوسف يرتعش من القلق والغضب •• انتظـار موحش • خليط من الترقب والتحفز • أهو يحب أحمد ـ هذا ـ أم يكرهه ؟! لا يدرى للآن • لقد كان أحمـد يحميه أيام الدراسـة ، لكنـه قادم ـ الآن ـ من ألمـانيا ليتحداه ، ليقف بجواره أمام الناس • ليكشف لهم مدى طوله وعرضـه بالنسبة ليوسف • فوق هـذا وذاك وسامته الملحوظة •

في هذه اللحظات يتمنى يوسف لو كان قد ترك مصر كلهـا وارتاح من أحمد والحاج الدسوقي وسماحة الذي لا يحبه ولا يحب اليهود الذين يعيشون في حارة اليهود وفي كل مكان ببحرى •

لكن آمال وحدها هي التي أبقته فيها • آمال لا تريد أن تبرحها • لم يفكر يوسف في الذهاب الى اسرائيل • لا ، أي دولة يعيش فيهـا مرتاح البـال • هو لن يغلب • فقد تعلم الطب في مصر • واستفاد من مجانية التعليم التي اقرها عبد النـاصر • ويستطيع أن يعيش مرتاح البال ـ أيضا ـ في أي دولة كانت • فالطب في كل مكان واحد ، لا يتغير •

آمال متمسكة بمصر • ووالدها كذلك • كلما تحدث يوسف معه ، يقول له :

ـ انني أعيش ذكرياتي هنا • أقاربي دفنوا في مقابر اليهود بالشاطبي وأصـدقائي من يهود وغير يهود • وبقيت مثل السيف فردا (يحلو لزكي ـ عم يوسف ـ أن يذكر الأشعار العربيـة •

يحفظ شعر المتنبى وامرىء القيس وعمرو بن معد يكرب وشـوقى وحافظ ابراهيم) ٠

يجلس أمام سينماه القريبة من بيته ٠ يتنفس هواء شـارع التتويج الواسع ، ويبتسم لشاشة السينما سعيدا ٠٠ تسـاءل يوسف كثيرا ٠ ما الذى يجعل عمه يفعل هـذا ؟ ! أهى ابنته التى تبقى على مصر من أجل حبها لأحمد ، أم ان هو الذى زرع فى قلب ابنته حب مصر ٠

اقترب أحمد بقامته التى تصل الى قامة والده ٠ لكنه أنحف من أبيه بكثير ٠ شعر رأسه شـديد السـواد ٠ وعيناه كبيرتان تبدوان من بعيد ٠٠

دفن يوسف جسده الضئيل الضامر فى جسد أحمد ٠

ــ أوحشـتنا ٠

ــ كيف حالك يا يوسف ؟

تركه يوسف يصافح والده ويحدثـه ٠ وتابعه فى تأمـل وأنـاة ٠٠

انتظر أن يسأل أحمد عن آمال ٠ لكنه لم يفعل ٠ ماذا ٠٠ أنسيها فى ألمـانيا ٠ أم انه يتظـاهر بنسيانهـا أمام يوسـف لعله ــ قبل سفره ــ أحس بأن يوسف يحبها ٠ سـنوات طويلة ويوسف يحلم ٠ بأن يعود أحمد وفى ذراعه سيدة ألمـانية أحبها أحمد أيام الدراسة فتزوجها وعاد بها ٠

بحث يوسف ٠ لكنه لم يجد امرأة ، أو ظل امرأة ٠

فى السيارة ٠ قال أحمد :

ــ اننى قلق من أجل ٠٠٠٠٠

ظنه يوسف سيقول « آمال » · لكنه قال « الحرب » ·

ــ ايــة حــرب ؟

ــ بيننا وبين اسرائيل · خارج البلاد تعرف الحقيقة أكثر ·

ــ لا تقلق ، هــذه مناوشات دعائية لا أكثر ·

ــ لكنها هذه المرة أكثر حدة ·

قال الحاج الدسوقى :

ــ عبد الناصر عاقل ولا أظنه يجازف ويحــارب وقواتــه فى اليمــن ·

أنهى يوسف الحديث فى مسألة الحرب بأن قال :

ــ أظنه سينهى هذه الأزمة فى خطابه الليلة ·

* * *

لم تخرج آمال من شقتها اليوم · فمستشفى السبع بنــات اجازة · ودت لو ذهبت الى بيت أحمد تنتظر قدومه من المطــار ، تنتظره ، لكنهــا لم تتعود الذهاب الى بيته · هى تعرف أختــه صابرين معرفة سطحيــة · فقد زارتها مرة أو مرتين فى مستشفى السبع بنات · كانت تشكو ألمــا فى أذنيها ·وقابلتها آمال مرات قليلة فى مناسبات بالحى · لو ذهبت آمال الى بيته تنتظره · ستحس صابرين بانها تحبه ·

ظلت آمال جالسة فى الفراندة تتابع قهوة فاروق القريبــة ، حتى جاء والدها ــ كعادته ــ كل يوم · ليتناول الغداء فالسينما تغلق أبوابها بعد الحفلة الصباحية · ترتاح المــاكينات من الواحدة

حتى الثالثة ظهرا · يقوم وقتها العمال بكنس السينما ومسح المقاعد · واعداد الماكينات للعرض ··

قليلا ما يذهب والدها لحضور حفلة الساعة الثالثة · فهى حفلة ميتة ــ على حد قوله ــ روادها قلة · وايرادها بالكاد يغطى مصاريفها ·

يذهب الى السينما حوالى الخامسة او الخامسة والنصف · ليشرف على قطع تذاكر حفل السادسة ، والتاسعة أهم حفلتين فى اليوم ·

زكى داود ــ والد آمال ــ يبدو فى معظم تصرفاته وكأنه مسلم ابن مسلم ، خاصة ان اسمه لا يوحى باليهودية ولا بالمسيحية· كثير من المسلمين يسمون زكى وداود · وشكله لا يختلف عن شكل أولاد البلد : سماره ، وشعره الأسود المجعد · واهتماماته غير اهتمامات اليهود · فهو يقرأ فى الأدب العربى القديم ، ويبحث فى المكتبات التى تعنى بالكتب القديمة المستعملة · عن الكتب التى تبحث فى الأديان وتاريخ الأديان خاصة الدين الاسلامى ، عاشر زكى داود يهودا كثيرين · كانوا يعنون بلغات اخرى غير العربية · فيحرصون على تعلم الفرنسية أو الانجليزية · ويتعالون على اللغة العربية ·

اقترب زكى من آمال ، رآها تشد ايشاربا حول راسها مما يوحى بأنها تشكو ألما فى رأسها ·

ــ أتحسين صداعا فى رأسك ؟

ــ لا أحس بكسل · وبعدم الرغبة فى فعل شىء ·

ــ أحس · أحيانا استعذب الكسل ·

زوجته ذهبت الى اسرائيل . طلبت منه هـذا والحت . لكنه عارضها . شرح لها مزايا البقاء فى مصر . لكن المرأة أعدت عدتها وهربت ذات ليلة . عرف بعد ذلك أنها فى اسرائيـل . ثم تبعها الولد الكبير ابراهيم .. حزن زكى عليه أكثر من حزنه على سارة زوجتـه . فهو ولده الوحيد وأول فرحة . وكان يعتمد عليه فى كل شىء . كان يدير السينما ويشرف على حساباتها . هرب الولد بعد أمه بشهور قليلة . يعرف انه وصل ـ هو الآخر ـ الى اسرائيل ، بعد رحلة طويلة من اليونان الى ايطاليا الى أمريكا . ونادته أمه من اسرائيل فذهب اليها ..

لم يعد زكى يفكر فى الأحلام التى عاش من أجلها . أن يمتلك شركة انتاج سينمائية . فقد عشق زكى السينما منذ طفولته ، وتمنى لو أصبح ممثلا مثل شالوم اليهودى الذى كانت تسـمى الأفلام باسمه . ومثل العديد من اليهود الذين عملوا فى السينما العربية : ليلى مراد ، واخيها منير . وراقية ابراهيم وكاميليـا ونجوى سـالم وغيرهم وبالفعل ظهر زكى فى عدد قليـل جدا من الأفلام . فى أدوار صغيرة للغاية . ثم فقد الأمل فى ان يكون ممثلا معروفا مثل شالوم . فاكتفى بسينماه هـذه التى يعشقها الآن .

لقـد جنى التليفزيون على السينمات . خاصـة سـينمات الدرجة الثالثة مثل السينما التى يمتلكها زكى . فالتليفزيون يعرض بالحاح الأفلام التى كانت تعرضها هذه السينمات . مما حدا بالناس الى أن يقللوا من الذهـاب اليها . والبعض قاطعها نهائيـا . وادى هذا الى اغـلاق العديد منها مثل : بارك المواجهة لمدرسة الطائفـة الاسرائيلية . وماجستيك المواجهة لدكان بنيامين أشهر بائع فول وطعمية فى الاسكندرية . والشرق القريبة من شـارع البير والتى تحولت الى جراج كبير هناك .

لكن حب زكى داود للسينما جعله يتمسك بها . هى — الآن — تدر عليه ربحا اقل من الأول بكثير . لكنه لا بأس مادام يستطيع العيش فى أمان هو وابنته الوحيدة الآن .

عندما هربت سارة زوجته الى اسرائيل . وتبعها ابنها ابراهيم . خاف زكى من أن يضعف أو يصيبه مكروه وتبقى آمال وحدها فى مصر . خاصة أن حياة اليهود فى السنوات الأخيرة لم تعد سهلة . منذ أن قامت دولة اسرائيل وقامت الثورة وظهر جمال عبد الناصر . وزاد امتداد القومية العربية .

وقتها مسح زكى على شعر ابنته فى حنان وقلق :

— ذهبت أمك الى اسرائيل ولم يبق سواى لك .

— أنت الخير والبركة .

— اننى قلق عليك فى مصر .

— غريبة . لقد ولدت هنا ، وتعلمت هنا . ولن أترك مصر لأى بلد آخر .

— قد أموت فى القريب . وستظلين وحدك .

— بعد الشر عليك .

— الزواج هنا لليهوديات أصبح صعبا . فالراغبون فى الزواج من اليهود قلة .

— ذلك ليس مهما .

— ويوسف ابن عمك .....

ولم يكمل . هى — أيضا — لم تسأله عما يريد . فهى تعرف من كثرة ما قاله فى ذلك الموضوع ما يريد أن يقوله « الزواج من

يوسف هو الحــل الوحيد • فيوسف ابن عمك ويحبك • وانت تعرفينه أكثر من غيره » •

لكن آمال ترفض هذا بشدة •

يعرف زكى أن الحل الوحيد لآمال هو السفر بعيدا • أى بلد اوربى أو أمريكا لتجد يهودا كثيرين • يتقدمون للزواج بها • أم ستظل هكذا بدون زواج • قالت آمال :

ــ أحمد سيعود من المــانيا اليوم •

ــ أحمد ، من أحمد هذا ؟

ــ ابن الحاج الدسوقى شيخ الصيادين •

ــ نعم • نعم • لقد سافر منذ وقت طويل •

لم يلاحظ الرجل ارتعاشــة الكلمات فوق شفتى ابنته وهى تتحدث عن أحمد هذا • ولم يحس بنبرة الصــوت الغريبة التى تنطق بها اسمه • فالرجل لا يظن أبدا أن تحب ابنته شابا غير يهــودى •

تركته آمال وذهبت الى الفراندة لتتابع شارع التتويج • وجلس زكى فى الداخل وحده •

- ٥ -

تحركت سيارة يوسف داود عند العودة · جلس أحمد الدسوقى بجواره · ووالده الحاج فى الخلف كان فرحا كطفل لعودة ابنه · وأحمد شارد يتابع الطريق من النافذة · قال يوسف :

ــ مالك يا أحمد ؟

ــ بخير ·

قال الحاج الدسوقى من مقعده الخلفى :

ــ أنك شارد يا ولدى منذ أن نزلت من الطائرة ·

ــ أفكر ·

أحس يوسف أن فى الأمر امرأة قد طلبت منه البقاء فى المانيا معها · وهو أصر على العودة الى مصر · فاختلفا · وجاء وحده · لكن قلبه مازال متعلقا بها ·

ابتسم يوسف لهذا الاستنتاج · فمعناه أنه لن يستطيع احتمال فراقها · وسوف يعود اليها ويعيش فى المانيا معها ·

تذكر يوسف مدرسة الطائفة الاسرائيلية · العمال اليهود مازالوا يعملون بها · بعضهم يعمل كاتبا · والآخرون سعاة فيها · حكى هؤلاء عن الطائفة الاسرائيلية التى كانت تشرف على المدرسة · يأتون فى الاحتفالات · خاصة فى الأعياد اليهودية · يجلس الحاخامات أول الصف ومنشا باشا الذى أهدى بلدية الاسكندرية قصره فى حي محرم بك فحولته البلدية الى متحف للفنون ومكتبة عامة - وفى المقابل أطلقوا اسمه على الشارع الذى يقع فيه القصر · وظل الاسم كما هو حتى قامت ثورة يوليو فغيرته ·

واسرة قطاوى الذى تولى أحد أفرادها (يوسف قطاوى) وزارة المالية المصرية عام ١٩٢٤ وشيكوريل وغيرهم · لكن الزلزال حدث ، زلزال يوليو ٥٢ · الذى غير كل شيء ثم انتقل العداء بعد ذلك الى كل يهود مصر ·

كان يوسف يسير فى شوارع الاسكندرية ، فيسمع الكلمات الكارهة لليهود تأتي من كل مكان · المساجد تذكر من خلال ميكروفوناتها العالية · أن اليهود جبناء وبخلاء ولا يحفظون عهدا · وكثيرا ما آذوا النبى محمد عليه السلام فى كذا وكذا وآذوا كل الأنبياء والرسل ·

واذا ما ذهب يوسف مع أصدقائه الى السينما يحس بالضيق · ويتمنى لو كان لم يأت معهم · ففى الفيلم ممثل يقوم بدور يهودى · لابد أن يخنف بأنفه (لم ير يوسف يهوديا واحدا فى مصر يخنف بأنفه هكذا) ولابد لليهودى أن يكون بخيلا وجشعا ومفرطا فى شرفه ·

قال أحمد الدسوقى :

ـ انت الذى تشرد يا يوسف الآن · وليس أنا ·

ـ تذكرت مدرسة الطائفة الاسرائيلية · وقول بنيامين أتذكره ؟

ـ ياه · أتمنى أن آكل عنده الآن ·

ـ لقد اشترى الدكان واحد مسلم · لكنه ـ والحق يقال ـ مازال محتفظا بجودته وحسن ادارته ·

يقود يوسف السيارة · يندفع هو ـ دائما ـ يفعل أشياء لا يريدها · حياته بعد حرب ٥٦ أصبحت عذابا رغم ذلك نضل البقاء فى العذاب من أجل آمال · وقيادته للسيارة الآن ـ والذهاب الى المطار فى استقبال أحمد الدسوقى ، نوع آخر من تعذيب النفس ·

كان أحمد وسط المدرسة · وداخل مبنى كلية الطب بالأزاريطة كأنه اله أغريقى قديم : قامته مديدة وجسده عريض · ووسامته واضحة · الفتيات فى الكلية يعشقنه · يكتبن الرسائل ويدسسنها فى وسط دفاتر محاضراته أو يرمينها فى طريقه ليأخذها ويقرأها ·

يسير يوسف بجواره يصنعان معا العدد ١٠ · يضحك بعض الطلبة من منظرهما ·

قتل داود جالوت ، ضربه بالمقلاع فأرداه قتيلا · وكان داود صغيرا · وضئيلا · بينما جالوت عملاقا · وهكذا قدر ليوسف أن يكون ضئيلا بالنسبة لأحمد وبالنسبة لكل الطلبة فى المدرسة ، ثم فى كلية الطب · لكنه لم يستطع أن يقتل احدا · لم يتغلب على أحد · كما فعل داود بمقلاعه ·

ظل يوسف ممارسا عاما فى مستشفى السبع بنات • وفى عيادته بشارع التنويج • يعالج جميع الأمراض • وأحمد تخصص فى العلاج الطبيعى • وعندما يقدم أوراقه سيعين مدرسا فى الكلية •

قال يوسف :

ـ تذكر قصة مكسيم جوركى « قاييم وأرتيوم » •

ضحك أحمد :

ـ مازلت معجبا بها ؟ لقد جعلتنى أهتم بها ولا أنساها • لماذا تعجب بها كل هذا الاعجاب • مع أن لجوركى قصصا أخرى أفضل منها بكثير •

أراد يوسف أن يقول : لأنها تذكرنى بحالى • ألا يكفى أن قاييم كان يهوديا مستضعفا • فما بالك وهو ـ أيضا ـ نحيل وقمىء ؟ !

قال أحمد الدسوقى :

ـ وكيف حال عيادتك • أبلغنى أبى فى رسائله انها رائجة للغاية •

ـ كل ما أبغيه خدمة الناس •

صمتا معا • واحس الحاج الدسوقى أنهما يتحدثان فى أمور ـ هو ـ لا يعييها : جوركى وبوركى • كلمات يصعب عليه نطقها • فسند الرجل رأسه بجوار النافذة وغاب عنهما فى نوم عميق •

* * *

تحسست عواطف درجات السلم بقدميها بحثا عن درجات لا تراها فى ذلك الظلام الذى يشمل كل شىء • أما كان من الواجب أن يضيئوا لمبة واحدة ليرى السكان الطريق أمامهم • ؟ !

سألت عواطف عن شقة الحاج الدسوقى ـ شيخ الصيادين ـ فقالوا انها بالعمــارة المقابلة لنادى الكشــافة ٠٠ باب العمارة من « الجنب » فى شارع متفرع من كورنيش البحر ٠ وها هى تصعد درجات سلم العمارة المعنية ٠

دقت عواطف البــاب فى وجل ٠ فهى أول مرة تدخــل باب البيت ٠ ولا تعرف سكانه ٠ كما أن الظــلام يزيدها رهبة وخوفا ٠

اضاءت صابرين لمبة فوق باب الشقة مباشرة قبل أن تفتح ٠ وترفع المزاليج الكثيرة فهى وحدها فى الشقة الآن ٠

ـ مســاء الخــير ٠

ـ أهــلا بــك ٠

ـ شقة الحاج الدسوقى شيخ الصيادين ٠

ـ تفضــلى ٠

دخلت عواطف ردهة مربعة واسعة امامها ، واجهتها المــائدة الكبيرة التى تشغل جزءا كبيرا من الشقــة ، ومفرش بلاستيكى بألوان زاهية ، فوقها فازة بداخلها ازهار صناعية ملونة ٠

ـ هو موجــود ؟

ـ ارتاحى الى أن يعود ٠

جلست عواطف على الكنبة العربى ٠ تابعت صور أحمــد المعلقة بشاربه الأكث :

ـ هو الحاج الدسوقى ؟

ضحكت صابرين :

ـ لا · هذا أخى ـ الحاج الدسوقى عجوز ·

ضحكتا معا :

ـ انا اخصائية اجتماعية فى مدرسة الأنفوشى الابتدائية ·

ـ أهـلا ·

ـ عمتى متزوجة من رجل يعيش هنا فى بحرى · هو شاويش فى البوليس ·

تابعت صابرين الدبلة التى تلمع فى يدها اليمنى · قالت عواطف فى أسى :

ومخطوبة لابنها ·

قامت عواطف فجأة :

ـ سأعد لك شايا ـ لا · لا · الجو حار اليوم · سأحضر لك مشروبا من الثلاجة ·

ـ اشكرك · لن أستطيع الانتظار · واضح أنه سيتأخر ·

لم تجبها صابرين · فقد يتأخر والدها فعلا · فهى لا تدرى متى وصلت الطائرة · ومتى سيقلون السيارة أو القطار للوصول من القاهرة الى الاسكندرية · قالت عواطف :

ـ جئت من أجل ولد اسمه حسن عباس · كان مثالا للنجابة والذكاء · لكنه أنقطع عن حضور الدراسة · ولما سألت عنه قالوا ان والده كان صيادا وغرق فى نوة بالشتاء الماضى ·

ـ النوات تقتل الكثير ·

ـ وماذا عن أولادهم ؟

ـ سأعد لك شايا . انتظرى قليلا .

ـ لا . لقد تأخرت . وانا أسكن سيدى بشر .

دق الحاج الدسوقى زجاج شراعة الباب بخاتمه الفضى الذى يضعه فى خنصره . قالت صابرين فرحة :

ـ ها هو أبى قد جاء .

فتحت الباب مسرعة . واجهها أحمد بوجهه المستدير .

ـ أخى .....

وارتمت صابرين فى صدره .

أصر الدكتور يوسف الا يأتى الى الشقة رغم الحاج الحاج واصرار أحمد بأن يصعد معه . قال :

ـ متعب . سآخذ حماما ساخنا وانام .

يحمل الحاج حقيبة صغيرة . ويصعد وراء ابنه المحمل بحقيبتين كبيرتين محملتين . قال الحاج :

ـ لا تؤاخذ يوسف . فصحته على قدره .

فوجىء أحمد بالضيفة التى لا يعرفها ويراها لأول مرة ، ظنها صديقة لأخته ، تعرفت عليها خلال غيابه الطويل نظر الى والده ليخبره عنها .

وقفت عواطف خجلة . قالت صابرين :

ـ أخى احمد كان يدرس الطب فى المانيا . لم نره منذ اربع سنوات كاملة .

قالت عواطف :

ـ آسفة . جئت فى وقت غير مناسب ، بعد اذنكم . سآتى فى وقت آخر .

قال الحاج الدسوقى :

ـ بل هـذا هو الوقت المناسـب . اننا فى فرح ولابد أن تشاركينا فيه .

أسرعت صابرين لتعد الشراب .

حكت عواطف عن سبب مجيئها . ثم أكملت :

ـ لاحظت أن الكثيرين فى المدرسة تتوقف دراستهم فجـأة بسبب موت عائلهم . وذلك بسبب نوات البحر . فقلت لابد أن نجد حـلا لهذا .

قال الدسوقى مندهشا :

ـ ماذا ، أنمنع الموت ؟ !

قـال أحمـد :

ـ الأستاذة لا تقصد هذا . بل تقصـد أن نجد حلا لأسر الذين يموتون فى البحر .

ـ نعم . نعم . هـذا ما أقصـده . ولهذا قصـدت شيخ الصيادين لكى نتكاتف ونبحث عن مصدر ينقذ هذه الأسر .

قـال الدسوقى :

ـ اننا نجمع للأسرة بعض المـال ، ونقتطع جزءا من السمك الذى نصطاده لهم .

قـال أحمـد :

ـ هذا لا يكفى ، لابد من وجود دخل ثابت ومنتظم ٠

ـ هذا ما جئت من أجله ٠

دخلت صابرين بأكواب الشراب ، كانت مبتسمة ، قالت لعواطف :

ـ وجهك حلو ٠ وحضورك جاء السعد معه ، وعاد أخى ٠

ابتسم أحمد ٠ أحس فعلا أن فى وجه عواطف أملا ٠ وفى عينيها السوداوين راحة واطمئنان ، وما جعله يرتاح لها أكثر ، الغاية النبيلة التى جاءت من أجلها . لذا ، سألها :

ـ آنسة عواطف ٠ هل جئت بتفويض من ادارة المدرسة ؟

أحست ـ هى ـ بالقلق :

ـ المدرسة لا تهتم بهذه المسائل ٠ التلميذ الذى يأتى يتعلم٠ والذى لا يأتى لا أحد يهتم به ٠

تململت قليلا . ووضعت يدها على حقيبتها استعدادا للمسير:

ـ هل تشك ـ سيادتك فى ؟

صاح مقاطعا :

ـ لا اقصد هذا . بل أردت أن أتأكد ٠ هل ما تفعلينه بتكليف من نفسك ٠ ام من جهة رسمية ٠

ـ كان آخر من انقطع عن المدرسة ولد نبيه ٠ كان فى سنة رابعة ٠ مجتهد ونشيط ٠ وعندما سألت عنه ٠ قالوا ان والده مات فى آخر نوة ٠

قالت صابرين :

ـ تقصد حسن عباس يا أبى ٠

صاح الحاج مبتسما :

ـ حسن يعمل عندى ٠

صاحت عواطف غاضبة :

ـ كيف يا حاج ٠ وأنت تراه صغيرا لم يزل ؟ !

ـ هو لا يركب البحر ٠ انما يعمــل فى دكان الســمك ٠ وأرسله لقضاء بعض لوازم البيت ٠

ـ المفروض ان يعود الى المدرسة ، خاصة أنه لم يقصر فيها ٠

صــاح أحمــد :

ـ الآنسة عندها حق ٠ وسأعمل على اعادته الى المدرسة وسأعوضه عما فاته ٠

قــال الحــاج :

ـ ما دمتما تريان هذا ، فلا مانع عندى ٠

وقفت عواطف ٠ ابتسمت لأحمد :

ـ مضطرة للانصراف الآن ٠ وســأعود فى الغد ٠ لنتخــذ اجراءات عودة حسن عباس ، ووضــع أسس لمراعاة أسر من مات عائلهم فى نوات البحر ٠

قــال الحــاج :

ـ ليتك تبقين لتتناولى العشاء معنا ٠

سار أحمد خلفها :

ـ فى أى وقت ستأتين ؟

قالت وهى شـاردة :

ـ حوالى الثامنة مساء • يناسبك ؟

قالت هذا وهى تحس بأنه يتابعها باهتمـام • فالأمر لا يعنيه فى شىء • فوالده شيخ الصيادين وليس هو • كما أنه عائـد من غربة زادت عن أربع سـنوات ، قضاها بعيدا عن أهله وأصحابه ومعارفه ، فكيف يترك كل هـذا ويتفرغ لها هى • فيسأل عن موعد حضورها فى الغد ، لينتظرها ؟ !

أو ربما هى ليست طرفا فى الموضـوع ، انمـا ـ هو ـ لانسانيته يهتم بهؤلاء التعساء الذين يذهب عائلهم فى مركب صيد ، ولا يعود بسبب النوات المفاجئة •

بعد أن أغلق أحمد الباب خلفها ، وعـاد الى أبيـه وأختـه قال الحـاج :

ـ شغلتنا هـذه الفتاة •

ثم تنهد فى أسى وأكمل :

ـ تريد أن تفتح علينا باب جهنم •

ـ لمـاذا يا أبى • ؟ !

ـ ألم تسمعها تتحدث عن أسر العاملين الذين يموت عوائلهم فى البحر • معنى هذا أنها تريد أن أدخل الصيادين فى التأمينـات الاجتماعيـة •

ـ هذا حقهم يا أبى •

ـ حقهم ؟ • اننى يابنى أخاف من شيئين أثنين : التأمينات الاجتماعية والضرائب ، كفانا الله شرهما •

قالت صابرين :

ـ دعوكما من الصيادين الآن • وهيا نحتفل برجوع الدكتور أحمـد •

* * *

الزمان : ١٥ مايو ١٩٦٧ الساعة التاسعة وخمس واربعون دقيقة مساء •

المكان : سفارة اسرائيل فى أمريكا التى تقع فى الشارع الثانى والعشرين من العاصمة الأمريكية واشنطن •

استكملت السفارة استعدادها للمؤتمر الصحفى الذى سيعقده السـفير الاسرائيلى ابراهام هارماى بمناسـبة الاحتفـال بعيـد الاستقلال الاسرائيلى •

جاءت مكالمة تليفونيـة الى السـفير من « لوشيوس باتل » السفير الأمريكى فى القاهرة •

أبلغ باتل السفير الاسرائيلى بأن ثمـة قوات مصرية عبرت مدينة القاهرة ، ومرت تحت شرفات السفارة متجهة نحو سيناء •

وقـد نال باتل مكافاتـه على تجسسـه على مصر لصـالح اسرائيـل بأن أصـبح ـ بعد ذلك مبـاشرة ـ وكيـلا لوزارة الخارجية الأمريكية لشئون الشرق الأوسط •

- ٦ -

أوقات مشهودة . ينشغل فيها الناس فى مصر ، تجعلهم يلزمون بيوتهم أو يجتمعون داخل المقاهى ·· تذكرك هذه الأوقات بأيام شهر رمضان ، وقت الافطار · حيث يندر المارة فى الشوارع ·

من هذه الأوقات : ماتشات كرة القدم التى تقام عادة حوالى الثالثة بعد الظهر ، خاصة اذا ما كان الماتش بين الأهلى والزمالك ــ الناديين الكبيرين · ووقت غناء أم كلثوم فى الخميس الأول من كل شهر · فتجد الناس يتسائلون قبل الحفل بأيام : « حاتسمع أم كلثوم فين ·· ؟ » ·

ويجتمع الأصدقاء الذين قد لا يجتمعون الا فى المناسبات · او ربما لا يجتمعون قط الا وقت غناء أم كلثوم ·· يتفقون على بيت صديق ، يتناولون وقت الغناء اللب والسودانى وبعض الفواكه · أو قد ينامون لدى المضيف ، خاصة أن الحفل ينتهى ــ عادة ــ وش الصبح · فأم كلثوم ــ أيامها ــ كانت تغنى ثلاث وصلات · كل وصلة عبارة عن أغنية طويلة · وبين الوصلة والأخرى استراحة ليست بالقصيرة ·

لذا ، رددت الاذاعات المعادية لمصر . ان الشعب المصرى فى عهد عبد الناصر يفطر فول مدمس ، ويتغـذى كرة قدم . ويتعشى أم كلثوم .

ومن أهم الأوقـات التى ينشغل فيهـا الشـعب . وتخـلو الشوارع ـ وقتها ـ من السائرين حين يخطب جمال عبد الناصر ، فيجتمع الناس حول الراديوهات . او أمام التليفزيونات فى المقاهى والبيوت . أو يجتمعون فى الشـوارع والحوارى حول مذياع أخرجه صاحبه من بيته . قلما تجد انسانا يسمع الخطبـة وحده . فهو ـ عادة ـ ما يبحث عن مجموعة تشاركه سـماع الخطاب . ليمكن ان يشاركوه التعليق والنقاش حول النقاط التى يتحدث الرئيس فيها .

فى ذلك المساء انشغل الناس من قبل أن يبدأ الخطاب ..

كان الجو حارا نسبيا . وعبد الناصر فى أحسن حالاته . يبدو أنيقا اكثر من كل مرة . طوله الباسق ووسامته الواضحـة يجعلان البدلة تكاد تنطق عليه .

فى آخر الخطاب طلب من هيئـة الأمم المتحدة سحب قوات الطوارىء الدولية من نقاط الحدود المصرية فورا .

ثم قال فى سخرية :

ـ حتى نأخذ فرصتنا للرد على ذلك الشىء المسمى بصـاحب الذراع الطويلة .

يقصد الجيش الاسرائيلى الذى يدعى بأن يده طويلة يمكنها أن تطول اى بلد عربية يريدون ضربها .

ثم اذاعت اذاعات مصر كلها بعد لحظـات الأغنيـة الوطنيـة « اضرب » .

لأجـل الصغـار   اضرب

لأجـل الكبـــار   اضرب .

أعلن الحاج الدســوقى ــ شيخ الصيادين عن فرحته . فأمر عبده الزردونى صاحب القهوة بتوزيع المشروبات على كل الموجودين على حسابه . وابتسم الحاج سماحة ــ وهو عادة ما يتحفظ فى ابداء عواطفه ــ وقال :

ــ سينصرنا الله على اليهود . وهــذا ما وعدنــا ايــاه فى القــرآن .

ثم نادى الحاج الدسوقى الولد حسن عباس . قال له :

ــ اذهب الى يسرى الخطاط . قل له الحــاج الدســوقى ينتظر على قهوة الزردونى . ولن يمشى قبل ان تأتى .

قــال ســماحة :

ــ ماذا تريد من الخطاط ؟

ــ سأعلق لافتة فوق محل الأســماك ، بأننى سأفتتح فرعا جديدا فى تل أبيت بعد ان نفتحها .

ــ باذن الله . وانا ايضا سأعلق لافتة مثلها .

ــ ماذا ، تريد أن تحلق رؤوس اليهود هناك ؟

ــ لا . سأطاهرهم .

لأول مرة ــ منذ سنوات ــ يتعامل الحاج سماحة مع الحاج الدسوقى دون ان يثير معه مشكلة الولدين « لالى وبوللى » المسلمين اللذين يعيشان فى كنف يهودى . فيشغلهما فى الخمور والفجور ، فقد نسى سماحة ذلك من شدة فرحته بحديث جمال عبد الناصر .

تعايرنا البلاد العربيــة المعارضــة لسياستنا ، بوجود جنود الطوارىء الدولية على الحـدود بين مصر واسرائيل · ويقولون « لولاها لضربتنا اسرائيل · ها هو عبد الناصر يرد عليهم بطرد هذه القوات · وسيثبت لهم أنه قادر على حماية نفسه » ·

اقترب عوض · قال للدسوقى وسماحة :

ـ سعيدان بما قاله الريس ؟

ـ نعــم ·

وقال الدســوقى :

ـ انهى الدكتور يوسف عيادته مبكرا ·

قال سماحة ساخرا :

ـ عله اغلقها ابتهاجا بخطاب الرئيس ·

قــال عــوض :

ـ لقد اعتذرت له · قلت :

ـ اننى لا احس بالخطاب الا وسط الأحباب والاخوان ·

ـ فيك الخير يا عوض ·

هكذا قال الدسوقى · وأكمل عوض :

ـ كما أن العمل فى العيادة يكاد يكون معدوما الليلة · فالمرضى يندرون فى الليــــالى التى يخطب الرئيس فيها لا يأتى الا الذى لا يستطيع أن يؤجل عرض نفسه على الدكتور ·

* * *

يجلس الدكتور وحده فى العيـادة · كم ود لو زاره احمـد الدسوقى الآن ، يجلسان وحدهما · باب العيـادة مغلق · وعوض يسمع خطـاب عبد الناصر على قهوة عبده الزردونى بالسـيالة · ويجيىء أحمد الدسوقى ، يجلس مع يوسف بعد فراق طويل · حتما ، سيحكى ــ لو جاء ــ عن مغامراته النسائية فى المـانيا · فهو مغرى للنسـاء بوجهه الوسيم وجسده العملاق · ويحكى له عن عدم زواجه من المـانية ، كما أراد يوسف وتمنى ·

لو جاءه أحمد الليلة سينهى يوسـف مشـكلته · سيسأله بلا حياء « هل تحب آمال ؟ أتريد الزواج منها أم لا ؟ » سـؤال صريح ولابد أن يجيبه بكل صراحة وفى منتهى السرعة ·

بعدها سيواجه يوسف آمال بهذه الاجابة · لا · بل سيطلب من أحمد أن يقول لها هـذا بنفسه ، لتصـدق انه لا يهتم بها · وانها بالنسبة له مثل اى فتاة فى حى بحرى ، تتمنى ان يتزوجهـا أحمد · ولا تستطيع الوصول اليه · مجرد تمنى لا اكثر ·

آه لو حدث هذا ، سيأخذ يوسف آمال معه الى اى بلد آخر غير مصر ، سيذهب بعيدا ·

دق باب العيادة ، يوسف كان قد أغلق الباب بنفسـه · واطفأ أنوار الصـالة بعد أن خرج آخر مريض عنده · وتأكد من أن لا احد سيأتى بعد ذلك · فالكل منشغل بعبد الناصر وخطابه الهـام ·

لكن ــ الأمر ما يستغناش ــ فأحيانا يصـاب انسان بمغص مفاجىء · أو يحدث حادث عارض ، نزيف أو التواء فى القدم عند صعود السلم أو النزول منه ·

من الممكن أن يمتنع يوسف عن فتح الباب · فيحس المريض ان العيادة فاضية ويذهب الى أى عيادة اخرى تعمل للآن ·

يتقاضى يوسف ـ حقيقة ـ اجرة اقل · لكن ما باليد حيلة ـ سيضطر المريض الى الذهاب الى من يتقاضى أجرة أكبر ·

قد يكون القادم ليس مريضا ، قد يكون أحد الأصدقاء · أو قد يكون أحمد الدسوقى الذى ينتظره يوسف نعم · توقع وجوده وحده فى العيادة فجاء ليسهر معه · أو ربما تكون ليلى المغنية · او قد يكون ··· ياه ··· لابد أن يفتح الباب ليرتاح من الحاح الوافد بالدق على زجاج شرعة الباب يكاد يكسره · وليرتاح يوسف من الاحتمالات التى تزاحمت فى رأسه تكاد تفرتكه ·

قام الى الباب متثاقلا ، وجد ابراهيم فهيم أمامه بأنفه الكبير المتنفخ :

ـ مـاذا ؟

أيقوم ويترك خلوته المقدسة ، وصفاء نفسه وراحته من أجل مخلوق كهذا ؟ !

ـ مساء الخير يا دكتور ·

ـ اهـلا ·

قالها يوسف فى أسى · وترك ضلفة الباب مفتوحة ، وأعطى ظهره للضيف · وسار حتى مقعده · لو يعرف أنه هو ما كان كلف نفسه حتى عناء التفكير فيه ·· أو القيام له ·

ـ اجلس ·

جاء ابراهيم هذا الى العيادة يوما ، مثل الآلاف الذين يجيئون للعلاج ، او مرافقين لذويهم المرضى ، أو أصدقائهم ـ كانت أمه

معه · وأبوه يرتدى بدلة شرطى · لا يذكر يوسف ـ الآن ـ ماذا كان يعانى ابراهيم وقتها · الذى يذكره جيدا أن يوسف قال له :

ـ لا تكثر من شرب الشاى ·

فاسرع والده مؤكدا على قوله :

ـ بالفعل · هو شرب الشاى الذى أضره · فهو يشرب شاى بكثرة هو واصحابه يا دكتور ·

اعجبت يوسف الدعابة · فحكاها لآمال عندما قابلها فى الصباح بمستشفى السبع بنات · ليلتها قال يوسف لابراهيم من باب المجاملة والضحك على الذقون (كما يقولون) :

ـ انت شاب ذكى ، الذكاء يلمع فى عينيك ·

يستطيع يوسف أن يقسم ـ الآن ـ وهو مطمئن البال ، انه لم يقابل فى حياته انسانا أغبى من ابراهيم هذا ·

اعتدل ابراهيم وقتها ـ وكأنه قد برأ من مرضه بسبب انتشائه بالاطراء :

ـ أنا فعلا ذكى · هذا واضح من تحصيلى الدراسى فى كلية التجارة ·

ـ انت فى كلية التجارة ؟ !

قالها يوسف وكأنه اكتشف منجما :

ـ وفوق هذا ، فأنا أعمل مساعد معمل بالثانوية فى مصنع ليفى للسجاد ·

جاء ابراهيم فى اليوم التالى الى العيادة لا ليكشف ،

أو ليستشير الطبيب فى أمر طبى . بل جاء ليتسامر مع الدكتور . فقد سعد لاطرائه له .

دخل بقامته المديدة مبتسما . انفه قريب جدا من الأنوف التى يرسمها رسامو الكاريكاتير فى مصر لليهود . أنف كقبضة اليد المضمومة ، وله فتحتان واسعتان للغاية . اين العدل يا رسامى الكاريكاتير . تعالوا لتروا أنف هذا المسلم ، من انوفنا نحن اليهود . سأله يوسف عن اسمه . فربما يكون يهوديا دون أن يعلم . فاليهود يسمون ابراهيم أيضا . قال :

ــ ابراهيم فهيم .

ضحك يوسف ، فاليهود والنصارى يسمون ابراهيم وفهيم أيضا .

يأتى ابراهيم كثيرا لزيارة الدكتور . لكن هذه الليلة يوسف فى حالة لا تسمح له بمقابلة انسان مثل ابراهيم ثقيل الظل وشديد الاعجاب بنفسه .

رغم هذا اضطر يوسف أن يرحب به :

ــ أهلا بك يا سيد ابراهيم ، كيف حاله الحاج ؟

ــ أى حاج ؟ !

ــ والدك الشاويش فهيم .

ضحك ابراهيم طويلا . فلم ينسجم لقب الحاج مع والده وتصرفاته :

ــ أبى لم يحج ولن يحج . وانا اتمني له هذا . فنحن أولى بالنقود التي تنفق في موضوع كهذا .

ضحك يوسف وغير الموضوع · فالعيش فى مصر طوفان من المسلمين يجعلك تحرص فى احاديثك معهم خاصة فى امور الدين · فلا تورط نفسك فى حديث قد يقضى عليك ·

يعرف يوسف كل شيء عن ابراهيم الآن · عمله فى مصنع ليفى للسجاد · الكيميائيون رؤساؤه يعاملونه فى جفاء وكبرياء لأنه من متوسطى التعليم وكل همه أن ينجح فى كلية التجارة ، ويعمل فى المصنع نفسه ليريهم انه ليس بأقل منهم واصبح لديه بكالوريوس مثلهم ·

أحس يوسف أنه أمام شخصية غير عادية · انسان لا يقيم وزنا لأى قيمة ·

يعرف يوسف ـ من عوض التومرجى ومن بعض زبائنه المرضى ـ أن فهيم والد ابراهيم ـ يعود كل ليلة محملا بأكياس واشياء عديدة وغريبة وغير متناسقة : لوفة للاستحمام · قبقاب خشب بدون جلدة · اقلام رصاص ، كميات من السمك المختلفة الأنواع والألوان · سمكة أو سمكتان من كل نوع · يأخذ هذه الأشياء هدية او رشوة من الباعة والسماكين · يقول فهيم انها هدية يعطيها له اصدقاؤه والصيادون ·

وابراهيم ابنه يعرف أنها رشوة · وانه لولا عمله كشرطى ما اعاره أحد اهتماما · وأن الفقر هو الذى يدفعه لكى يتحمل الكيميائيون الذين يرأسونه فى العمل وان المعجبين بعبد الناصر بلهاء · وهم كعباد الأصنام أيام الجاهلية · أو كالمخدرين والمرضى بأمراض نفسية ·

كان ابراهيم يحمل آراء غريبة لم يسمعها يوسف من شاب مصرى قبل ذلك ·

لأول وهلة ظنه يوسف مدسوسا عليه من المباحث · للتأكد

من مدى ولائه للبلد • خاصــة فى هذه الأيام العصيبة فى الصراع بين اسرائيل والعرب •

ـ لمـاذا لم تسمع خطاب الرئيس ؟

ـ رئيس ؟ ! أنا لا أضيع وقتى •

أخرج ابراهيم صوتا ـ من بين شفتيه المضمومتين ـ يدل على الاستهجان والاستهانة •

ـ تفعل هذا • وانت عضو هام فى الاتحاد الاشتراكى ؟

ـ رؤسائى فى المعمل لا يخافون سوى من القوى • تصــور بعد ان أصبحت هكذا تغيرت معاملتهم لى •

ضحك أكثر فانتفخ انفه ككرة كاملة الاستدارة :

ـ انهم يلجــأون الى الآن • لأحل مشاكلهم مع الادارة •

بعد لحظات صمت قضاها ابراهيم فى تدخين السجائر الكثيرة التى قدمها يوسف له • قال :

ـ لم أجد طعاما فى البيت ، حملت سنارتى وذهبت الى قلعة قايتباى ، وعدت بســمك يكفى للعشاء •

ـ أنت وباقى الأسرة ؟

ـ لا شأن لى بالأسرة • فأنا ادفع لهم جزء من راتبى كل شهر نظير نومى فى الشقة ، ونظير الطعــام السيىء الذى تعده أمى لى لآكله •

أخرج يوسف مبلغا من المـال واعطاه له •

ـ ربنا يخليك يا دكتور • سأتخرج هــذا العام فى كليــة التجارة وسأعين بالبكالوريوس • ســأكون ندا للكيميائيين الذين يتعالون على ، وأكيد سينصلح حالى ماليا •

- ٧ -

احس احمد الدسوقى باسترخاء .. ورغبة فى أن يستلقى فوق فراشه لا يتحرك . والده الحاج خرج . ذهب الى قهوة عبده الزردونى ليسمع خطاب عبد الناصر مع اصدقائه . عرض عليه الخروج معه . لمصافحة الرجال الذين يسألون عنه . وفى شوق لمقابلته . فهم لم يروه منذ اكثر من اربع سنوات . قال احمد :

ـ الوقت غير مناسب للقاء . الكل سينشغل بحديث عبد الناصر . واريد أن اجالسهم وأسمع اخبارهم .

كان احمد فى المانيا أكثر نشاطا . يصحو مبكرا ، يدور فى الشوارع هناك اذا لم تكن لديه مذاكرة . أو عمل . لكن ـ هنا ـ القلق قيده . وكبل ساقيه ويديه . فكر فى ان يبتعد عن أى مكان فيه راديو أو تليفزيون حتى لا يسمع ما سيقوله عبد الناصر . وان يبتعد عن الجرائد كلها حتى لا يعرف الأخبار .

هو الآن كالنعامة التى تدفن رأسها فى الرمال لتتفادى الاخطار .

الخطر آت لاشك . يحسه أحمد ويراه من بعيد . لكنه غير قادر على فعل شيء . لا . هو الذى لا يريد أن يفعل شيئا .

عندما عاد بالأمس بسيارة يوسف لمح الفرحة فى عيون الناس لأن الحرب تقترب . والأمل مرسوم فوق الوجوه واللافتات تبشر بالنصر . والناس تتحدث فى كل مكان . منذ أن قامت ثورة يوليو وهى تبشر بيوم آت سيحررون فيه فلسطين من القوات الاسرائيلية المعتدية .

مازال أحمد يذكر أغنية عبد الحليم « المسئولية » حين يقول « ايش حال يوم تحريرنا لفلسطين .. » وها هو يوم تحرير فلسطين قد جاء .

دارت صابرين حول أخيها قلقة . اخوها الوحيد الذى كانت تعد الساعات والدقائق لعودته . ليس كعادته . لا . هو ليس أحمد الذى تربت معه وعرفته جيدا . هو شارد الآن دائما . ماذا فعلوا له فى المانيا حتى غيروه هكذا ؟ !

قالت وهى تحاول الاقتراب منه :

ـ أعد لك قهوة .

ـ ياريت .

عادت اليه بعد أن سارت خطوات :

ـ أخى أحمد ، هل أنت حزين لأنك عدت الى بلدك ؟

ـ كيف وانا كنت اخشى ان أموت قبل أن أرى بلدى ثانية .

ـ بعد الشر •

شرد ثانيــة :

ـ أحمد • ما الذى يشغلك ؟ هل ارتبطت بعــلاقة حب مع المــانية ؟

ضحــك :

ـ لا • انا قلق من أجل شىء أهم •

ـ لمــاذا لم تنزل الى الشارع مع الحــاج لمقابلة النــاس الذين يسألون عنك •

ـ هم منشغلون بعبد الناصر •

ـ الم تشتق اليه ؟

ـ ولمــاذا ؟ وهو معنا فى ألمــانيا طوال الوقت •

ـ حقــــا ؟ ! •

ـ كل الجرائد والمجلات الألمــانية تتحدث عنه • والراديو والتليفزيون كذلك • الكل يتحدث عنه • خاصة فى هــذه الأيــام العصيبــة •

ثم صاح فجأة ليغير الموضوع :

ـ دعك من هــذا الآن • قولى لى : كيف حــال عبد الله خطيبــك ؟

ـ انه لم يعد خطيبى • لقد رميت له الدبلة •

صــاح غاضــبا :

ـ ماذا تقولين ؟ عبد الله انسان طيب ومخلص •

ــ هو مخلص مع نساء كازينور فيكتور اليهودى • انه يقضى كل وقته معهن •

ــ عبد الله صديقى من قبل ان يخطبك واعرفه جيدا •

كادت صابرين ان تبكى • فهى ترتاح لحديث أخيها عن عبد الله • تتمنى أن تصدقه • وان يكون عبد الله ــ حقا ــ طيبا ومخلصا • لكنه لو كان كذلك لأخلص لها هى وأبقى على حبه لها • ولم يذهب الى نساء كازينو فيكتور اليهودى •

ــ هل استطيع أن أقابله ؟

قالت فى أسى :

ــ لا أعرف عنه شيئا • لكن أكيد هو فى الأسطول الآن • أنت تعرف ظروف هذه الأيام •

دق باب الشقة • اسرعت صابرين اليه • أطلت عواطف بوجهها الأبيض المستدير المائل للامتلاء :

ــ مساء الخير •

أسرعت صابرين اليها :

ــ أهلا يا عواطف •

ــ لقد وعدت بالحضور • وها انا الى بوعدى •

قال أحمد :

ــ عندما حددنا الموعد • لم يكن فى حسابنا خطاب الرئيس •

ــ لقد ترددت فى الحضور • لكن لم استطع سوى ان احضر •

قالت صابرين :

ــ اطمئني · ابي سيحضر بعد انتهاء الخطاب مباشرة ·

وقــال أحمــد :

ــ ولمــاذا لم تسمعي الخطاب مثل الآخرين ؟

ضحــكت :

ــ أبي لا يحب عبد الناصر · واذا ما تابع الخطــاب لن يكف عن التعليق على كل كلمــة يقولها جمال · وقد يعلو صــوته من شــدة غيظه ·

ضحــك أحمــد :

ــ ففضلتي أن تتركيه وحده ·

ــ أبي صاحب ورشــة محركات كهربائية بحرية · ولديــه معرض فى شارع صفية زغلول · مشكلته مع عبد الناصر أنه يخاف من أن يتوسع فى ورشته ومعرضه فيؤممه ·

لاحظ أحمد أن فى يد عواطف دبلة خطوبة · لم يلحظ ذلك فى الأمس :

ــ أنت مخطوبة ؟

ــ نعــم ·

قالتها فى أسى · ثم عادت الى حديثها السابق عن والدهــا واهتماماته السياســية · يســمع كل نشرات الأخبــار فى الراديو والتليفزيون · ويعلق على كل خبر من الأخبــار بطريقته · كانت تتحدث وتطيل فى الحديث · وهو يتابعها فى صمت وتأمل · كأنه يبحث فى وجهها عن شيء · أحست بالخجل فصمتت · معروفة ــ هي ــ وسط اهلها وصديقاتها وزملائها فى العمل بانهــا جريئــة

ولا تخشى شيئا فما الذى حدث لها . من اين جاءها ذلك الارتباط؟

قــال أحمــد :

ـ سيحضر أبى بعد قليل وسنبحث موضوع الأسر التى تفقد عائلها فى النوات .

ـ اراك متحمسا يا دكتور احمد .

ـ ذلك موضوع تأخر تنفيذه طويلا . وقبل أن أسافر المــانيا فكرت فيه . لكنى لم أستطع أن أتقدم فيه خطوة .

ـ لمــاذا ؟

ـ لا أعلم . أحسست بأن أصحاب المراكب غير راضين عن مشروعى . وأبى منهم كما تعلمين . فلم أقاومهم . حبست احساسى بالرغبة فى العدالة وصمت .

ـ يمكننا هذه المرة أن نفعل شيئا .

حملت صابرين صينية فوقها أكواب الشراب . ثم صــاحت فجــأة :

ـ ها هو أبى قد جاء .

نظروا اليها فى دهشة . فهما لم يسمعا صــوت الباب وهو يدق . قــالت :

ـ اعرف صوت دقات حذائه . وهو يصعد درجات السلم .

كان الحاج الدسوقى فرحا . البشر واضح فى عينيه .

ـ اهلا يا .... آسف نسيت اسمك .

وقفت عواطف مبتسمة . أحست بأنهــا قد ارتبطت بهــذه

الأسرة . لا . هى تحس ان ذلك الرجل العجوز قد أصبح قريبـا منها . لم تحس بهذا فى مقابلاتها لوالد ابراهيم خطيبها .

ـ عواطف يا عمى .

قال الرجل وهو يجلس على الكنبة المواجهـة للأخرى التى يجلس أحمد وعواطف عليها :

ـ فاتكما نصف عمركما . عبد الناصر كان فى أحسن حالاته . لقد عرى اسرائيل وأمريكا . جعلهما لا يساويان شيئا .

قال أحمد فى أسى :

ـ ماذا ؟ أعلن الحرب .

ـ أغلق خليج العقبة فى وجه الملاحة البحرية .

ـ ربنـا يسـتر .

قـالت عواطف :

ـ تحدثت مع ناظرة المدرسة ، واتفقت معها على عودة حسن عباس الى الدراسة ثانية .ما رايك يا حاج ؟

ـ خير يابنتى . ومصاريفه كلها على حسابى .

قـال احمـد :

ـ هذا ليس حلا للمشكلة . الحل فى أن تجد الأسر التى مات عائلها دخلا ثابتا حتى لا يضطر اطفالها ان يعملوا وهم صغارا .

صاح الحـاج الدسوقى :

ـ ارجوكما .. انا سعيد بما قاله عبد الناصر وليس عندى

رغبة فى أن تفسدا هـذا الاحساس عندى . ارجو تأجيل مناقشـة هذا الموضوع .

قـالت عواطف :

ـ المهم عندى الآن أن تخبروا حسن بهذا . فمنذ أن انقطع عن الدراسة لم أره .

وقفت عواطف ونظرت الى ساعة يدها :

ـ تأخرت كثيرا . مضطرة أن امشى الآن .

ـ سـأوصلك .

قالها أحمد وسط دهشة الحاج ـ والده ـ وصابرين ـ اخته . قالت عواطف وقلبها يعصف من المفاجأة والفرح :

ـ ليس هناك داع لهذا .

ـ انني لم أخرج منذ ان أتيت ، واريد ان اتمشى .

وعواطف تهبط درجات السلم أحست بأن أحمد فى حاجة لمن يتحدث اليه . وانه يريدها هى بالذات ليتحدث معهـا على انفراد .

سارا معا على كورنيش البحر . قالت :

ـ الجو هذا العام غير مستقر . ايام حر . اشد حرارة من كل عام . ثم فجأة سقوط أمطار غزيرة ...

ـ فعلا . الجو غير مستقر . كأنه ينبىء بحدوث شىء غير عـادى .

ـ ماذا تقصـد ؟

ـ هل انت سعيدة مع خطيبك ؟

ـ يعنى .....

ثم صاحت فجـأة :

ـ بالمناسبة . هو من بحرى مثلك .

ـ وانت ؟

ـ سـيدى بشر .

ـ وكيف تقابلتما ؟

ـ لم اقابله . هو ابن عمتى .

ثم صاحت فجـأة :

ـ ياه . تأخرت . اكيد أبى قلق على الآن .

ـ استدع لك تاكسيا ؟

ـ ياريت .

كانت قلقة لتأخرها . أكيد والدها محفوظ فى الشرفـة الآن ينظر الى الطريق ليطمئن عليها .

وقف التاكسى . قال احمد :

ـ اوصـلك ؟

ـ شـكرا .

عندما دخلت التـاكسى . انحنى بقامتـه المديدة ، اقترب من وجههـا :

ـ سأنتظرك فى الغد لنكمل موضوعنا .

* * *

عواطف ذات جمال عادى • وجه هادىء يوحى بالطيبة والراحة • وجسد يميل للامتلاء • تعدت الثلاثين بسنوات قليلة ولم تتزوج • والدها اصبح غنيا • بدأ كهربائيـا فى شركة غزل كرموز • وكان يعمل بعد الظهر فى ورش أبى الدرداء والمنشية • الى ان أصبح صاحب ورشـة • طموحه فى عمله جعله يصنع المحركات البحرية التى كانت شركات الملاحة تستوردها من المـانيا • ولم تتفق معه شركات الملاحة الا بعد أن انتدبت لجنة من كليـة هندسة اسكندرية لفحص المحركات وتجريبها • وأثنت اللجنة على المحركات • فاتفقت معه الشركة • فأغتنى الرجل وانتقل الى عمارة يمتلكها فى سيدى بشرقريبة جدا من طابية سيدى بشر ذات المدفعين الكبيـرين الموجهين الى البحر • فى وجه السفن المعادية •

مشكلة محفوظ ان ابنته الوحيدة وتوأم روحه لم تتزوج للآن • وليس هناك شاب عنده دم جاء ليطلبها منه • هى ليست ملفتـة للنظر بالنسبة لموضوع الجمال • كما أنها لا تهتم بزينتها مثل معظم البنات • تعمل بجد وحب لعملها • الح والدها عليها كثيرا بأن تترك ذلك العمل وسيعطيها اضعاف راتبها ، لكنها أصرت على العمـل أقسم الرجل لو تقدم له خاطب للزواج • سيعطيه شقة فى عمارته التى تحت التشطيب • وسيجهزها له بأفضل جهاز يقول الرجل هذا دون علم عواطف • فهى لو علمت ستغضب • وتقول معاتبة « هو انا بايرة لتدلل على هكذا !! » قال محفوظ هـذا لأخته ـ أم ابراهيم فهيم ـ فحدثت ابنها بان يتقدم وهو أولى من الغريب بخير خاله الكثير هى لم تكن تحب ابراهيم هـذا • لها عليه اعتراضـات كثيرة يتفق والدها معها عليهـا • لكن أختـه ألحت •• فوافـق الرجل • وجعل ابنته توافق أيضا •

خافت البنت من الزمن • العمر يعدو • وهى مازالت آنسة •

ملابس ابراهيم غير مهندمة · وطريقة حديثه تدل على انه ليس فى وضع يسمح له بالزواج والانفاق على اسرة · ووالده عسكرى يقف على باب الميناء · يعنى ـ هو رجل على قدر حـاله ولن يساعده بشىء · بل هو فى حاجة الى جزء من راتبه ·

والدها محفوظ لم يهتم بهذه الأشياء · الولد ابن اختـه · وهو اولى من الغريب بماله · كما أنه طالب فى كلية التجـارة · وسيتخرج هذا العام · أكيد سينصلح حاله ·

حفل الخطوبة كان فى الشقة الواسعة · امه جلست كالغريبة وسط المدعوات · ملابسها بسبطة لا تليق بحفل ، وأبوه ـ لأول مرة تراه عواطف بدون بدلة البوليس · كان يرتدى قميصـــا وبنطلونا كأنه اقترضهما من واحد أتخن منه بكثير ·

وابراهيم بأنفه المنتفخ يبتسم لها من بعيد · سألت نفسها :

اتستطيع أن تحب هذا الشىء فى يوم من الأيام ؟ والدهـا يؤكد هـذا · وهى لا تصدق · والدها لم يكلف ابن اخته مليما · كل لوازم الحفل على حسابه · قالت له :

ـ يا والدى يجب ان يدفع شيئا ليحس بقيمتى ·

ـ هو ليس غريبا · كما أننا نشترى رجل ·

فى اليوم التالى للخطوبة جاء ابراهيم الى شقتهم · أدخلته الخادمـة حجرة الصـالون · واخبرت عواطف بمقدمـه دخلت عواطف الحجرة ففوجئت بها خالية · ثم خرج لها فجـأة من خلف الستارة الثقيلة · انقض عليها وقبلها من خدها · أحست بقشعريرة

وبرغبة فى ان تتقيأ • فدفعته بعيدا عنها • ومسحت مكان قبلته فى قرف :

ـ أبعد عنى •

جلس مخزيا • وأخذ يتمتم بكلمات غريبة •

ـ لماذا لم يخطبها شاب وسيم مثل الدكتور أحمد الدسوقى •

افاقت عواطف والتاكسى يترك كورنيش البحر وينحرف الى الشارع الذى تسكنه •

- ٨ -

لم يذهب الحاج سماحة الى بيته ، قال لابنه ، انه لن يعود الى الدكان هذا المساء ، وعليــه ان يغلق الدكان ويذهب الى البيت ٠

سار الحاج فى شارع السيالة حتى ارض المدفن القديم التى تمتلكها أسرة الصول عبد الله ٠

كانت حافظة تجلس فى كوخها الذى بنته فوق أرض المدفن قريبا من الحديقة العامة والمرحاض العمومى اللذين صنعهما بلدية الاسكندرية ٠

عندما رأت حافظة الحاج سماحة صاحت غاضبة :

ــ ماذا تريد يا محمد ؟

ــ اطمئن عليــك ٠

ــ لم أمت بعد ، مازلت أعيش ٠

يعرف هو أنها ستقابله بهذه الطريقة ٠ وقد تسبه أو تحاول

الهجوم عليه وهبش وجهه وضربه • ولقد فعلت كل هـذا فى مرات سابقـة •

أخرج سماحة النقود من سترته وقدمها اليها :

ــ خذى يا حافظـة •

ــ لا أريدك ، ولا أريد نقودك •

ــ خذى يا حافظـة •

ترك النقود لها • لكنها لم تمد يدها • تركها الحاج سماحة تقع داخل الكوخ • تناثرت فوق أشيائها المبعثرة هناك • وقف الحاج للحظات مترددا ثم سار •

من وقت لآخر يذهب اليهـا ليعطيهـا ما فيه القسـمة • وتقابله ــ هى ــ بهذه الطريقة • تترك النقود تتناثر فوق أرض الكوخ الطينية •

ثم بعد أن يذهب تلمها وتعدها وتدسها فى صدرها سعيدة •

تنتظر مقدمه اذا ما تأخر عليها • تنتظر نقوده التى تعيش منها ، تشترى سجائرها التى لا تستطيع الاستغناء عنها ، وتشرب الشاى من قهوة عبده الزردونى القريبـة من أرض المدفن القديم • يحاول عبده ــ احيانا ــ أن يعطيها الشاى دون نقود اذا لم يكن معها نقود • تصمت • لكن عندما يجيىء الحاج سماحة ويعطيها نقودا • تقابل عبده الزردونى فى ثورة اذا ما أراد ألا يأخذ نقودا تصيح فيه :

ــ تريد أن تبقشش على ؟ !

ولمـاذا لا تدفع والحاج سماحة موجود ؟ يعطيها نقودا كثيرة من وقت لآخر .

ولداها « بوللى ولالى » يعيشان لدى اليهودى فيكتور . وهى ــ أيضا ــ كانت تعيش عنده فى حجرة تحت سلم بيتــه . كانت جميلة . وجسدها مطلوب . ارادت أن تعمل راقصــة مثل نساء الكازينو اللاتى يعملن عنده . شاخت الآن وعجزت ولم يتحقق لها ما أرادت . وفيكتور ــ هو الآخر ــ ما عاد يفكر فيهــا . ولا يريدها . لذا ، تركت بيتــه وهامت فى شــوارع بحــرى . تستنشق الهواء المحمل بالدخان . تريد أن تدخن ولا تجد . ولا تقدر على طلب ذلك . الى أن اهتدت الى أرض المدفن . قالوا كثيرا عن عفاريتها . هى سكنت فيها وعاشت . وتخرج فى عز الليل لقضــاء حاجتها وعمرها ما رات عفريتا واحدا .

عندما ذهبت حافظة الى فيكتور . ارادت ان تغيظ الحــاج سماحة . تعرف أنه يكره اليهود وخاصة فيكتور صاحب الكازينو . وتعرف أن هــذا سيشعل النــار فى جســده وفى قلبــه . تمنت لو اصبحت امراة ليل . لكل من اراد حتى يتعذب سماحة أكثر ، وحاولت حافظة لكنها لم تقدر . أختنقت من أول زبون ، وصرخت ورمته من فوق جســدها وضربته فى عنف . هبشت وجهــه ، خربشته حتى سال الدم من وجهه .

صرخ الرجل ودخل فيكتور ورجاله . كان الباب مفتوحا ، وجدوها جالسة ومتدثرة بالغطاء . والرجل يضــع يده فوق وجهه ويصرخ . أحس فيكتور أن حافظــة لا تصلح راقصــة ، ولا حتى مرافقة للرجال . وان وجودها عنده من الممكن أن يغلق الكازينو ، أو يسجنــه .

فى الشمس تمد حافظة ساقها . تستلذ بالدفء . ولداها لالى وبوللى بعيدان عنها . لا تراهما . وهما يسبانها اذا ما اقتربت

منهما . لم يكن اسماهما هكذا قبل أن تنتقل الى بيت فيكتور اليهودى . لكنه أصر على أن يغير الاسمين القديمين . والكل نساهما حتى الولدين لو سألتهما الآن لن يذكرا شيئا .

أحبت حافظة محمد سماحة . اعجبت بوجهه الجميل المائل للاحمرار والقامة المستوية كعود خيزران . كان قد تزوج من ابنة معلمه الحاج مرزوق الذى علمه الحلاقة والطهارة وتطبيب الجروح. وكان لديه منها ولدا واحدا وحافظة بلا رجل . مات زوجها ، أو رحل عنها لا أحد يذكر شيئا .

تعرف أنها اجمل من زوجة سماحة فقد رأتها كثيرا معه . الرجل تزوجها ردا للدين . مقابل ما أعطاه له والدها .

ارتدت حافظة ملابس تغطى كل جسدها فيما عدا الوجه واليدين . وجرحت أصبعها بموس . وذهبت اليه فى دكانه . لم يكن فى الدكان سواه . مدت اليد المجروحة ، وطلبت منه أن يضع قطعة قطن مغموسة بالميكركروم أو صبغة اليود على الجرح . قال بدون ان ينظر الى وجهها :

ـ لا تخافى . الجرح بسيط .

كان الجرح بسيطا للغاية . لا يستحق ميكركروما ولا صبغة يود . فقد خافت حافظة على نفسها . فلم تتوغل بالموس فى اللحم .

بعد أن أمسك سماحة يدها . بكت وقالت :

ـ ليتك تقطع هذه اليد التى تمسكها بأصابعك .

ـ لماذا ؟

ـ لأنك رأيتها ، وامسكت بها .

لم يكن الحاج سماحة يعرف مثل هذه الألاعيب ، شاب صغير لم يخرج من حى بحرى • جاء الى دكان الحاج مرزوق صغيرا ولم يبرحه • وكان يعمل ليل نهار ، لا يكل ولا يتعب • ولم يكن قد قرا كتبه الكثيرة الصفراء التي يملأ بها البيت والدكان الآن •

الرجل أعجب بها وبعفتها ، وصمم على الزواج منها • تزوجها فى السر ، وهي لم تمانع . كان كل املها أن تكون معه • لو أرادها دون زواج ما عارضته • ولو كانت تعلم انه سيوافق دون زواج لألحت عليه • لكنها جاءته من الطريق الذى يعجبه •

كان سماحة يخشى الحاج مرزوق والد زوجته واولاده الكثيرين • ولم يكن يخاف من غدرهم او قوتهم أو بطشهم له •• انما للبقاء على العشرة ورد الجميل •

ليلة الدخلة اكتشف انها ليست عذراء • وأنها سبق لها الزواج . وانها تلعب بالبيضة والحجر • ضربها فى عنف • ولطم خديه لأنها خدعته • بكت وتعلقت فى ساقيه • لكنه طردها وطلقها فى صباح اليوم التالى •

* * *

عاد الحاج محمد سماحة الى بيته • لمبة معلقة فى مدخل البيت تضيىء المكان بضوء خافت • وصمت يشمل كل الأشياء • لا راديو ولا تليفزيون مفتوح • والحديث بالهمس • زوجته الحاجة تجلس ـ كعادتها ـ فوق الكنبة العريضة مقرفصة • وابناؤها ما زالوا فى الخارج •

زيارة سماحة لحافظة تجعله كئيبا ، يفكر فيما حدث • كيف

خدعته بادعائها العفة . وكيف صدقها . ماذا لو كان أبقى عليها فى بيته واواها وربى ولديها اللذين يعيشان فى كنف فيكتور اليهودى .

زوجته الحاجة تعرف أنه يعطف على حافظة . لكن لا تعرف سبب هذا . أتصـدق أن زوجها المهاب الآن . والذى يلجـأ اليه كبار القوم فى بحرى كان متزوجا من حافظة المجنونة ؟ !

حدثه ابنه فتحى عن خطاب جمال عبد الناصر ، وعن الحرب التى أصبحت وشيكة . كان مزاج الحاج قد تغير . ليته لم يذهب الى حافظة الليلة . وأبقى على سعادته لسماع عبد الناصر للغد .. ويحدث فى الغد ما يحدث . قالت زوجته ان أخاها « خلف الله » سيذهب الى مولد سيدى ابراهيم الدسـوقى ، سيقضى هناك أيام المولد كلها . قال الحاج سماحة :

ــ ربنا يرزقه ويرزقنا .

الأسطى خلف الله هو ابن الحاج مرزوق ــ أستاذ سماحة ومعلمه أسرار المهنة . خلف الله أكبر من سماحة بعامين وعدة شهور . كانا يعملان معا فى الدكان . وكان الحاج مرزوق يتمنى أن يتعلم ابنـه ويصبح أمهر من صبيه سماحة . لكن ــ للأسف ــ هذا لم يحدث . خلف الله كان « لعبى » يسهر فى قهوة الزردونى الكبير .. يلعب الكوتشينة . ويتغيب عن الدكان باليوم واليومين والثلاثة . بينما سماحة ملتزم . كما أن خلف الله كان استعداده للتعلم ثقيلا وبطيئا. يشرح الحاج مرزوق لهما معا . فيتقنه سماحة ، بينما خلف الله فى حاجة لشهور عديدة حتى يتقنه . هـذا أدى الى كره خلف الله لسماحة وحقد عليه . خاصة بعد أن وجد الكل يثنى عليه ويوقره . وفكرة ذهابه الى مولد سيدى ابراهيم الدسـوقى لأن العمل عنده قليل . سماحة عندما افتتح له محـلا خاصـا به أخذ معه معظم

زبائن المحل . وترك خلف الله فى الدكان وحده لا صبى ولا مسـاعد ولا يحـزنون .

تزوج خلف الله من فتاة ليست من بحرى . ولا من الاسكندرية كلها . كان فى مولد من الموالد يحلق للأطفال الذين نذر اهلهم اول حلاقة لهم لدى الشيخ الذى يحتفلون بمولده ـ ويطاهر الأولاد الذين جاءوا من آخر مصر وأولها لوفى النذر . بأن يكون الختان لدى الشيخ فلان . هنـاك رآها : رفيعة وقوامها مشدود .. وعيناها عسليتان لوزيتان . تشبه فتيات الهنود الحمر فى الأفلام التى داب خلف الله على رؤيتها ومتابعتها فى سينما التتويج ورأس التين القريبتين من البيت .

تزوجها خلف الله وجاء بها الى بحرى . البنت ليس لها اهل ولا فصل . ربما كانت ضمن الغوازى اللاتى يرقصن فى المولد . من شدة غيرته عليها . أمرها ان تقسم على مصحف . بأن تعمى وتكسح وتطرش اذا هى نظرت من شباك أو بلكونة ورآها الناس . وألا تخرج من البيت ـ الا اذا اضطرت لذلك ـ وقتها ، تغطى وجههـا فلا يراها أحد . وأقسمت المرأة الغلبانة التى تريد أن تتستر . ومازالت ـ للآن ـ لا يعرف احد شكلها ولا لونها . اطفالها ـ مثل سائر أطفال شارع السيالة ـ يلعبون فى الشوارع والحوارى . ويتشاجرون مع بعض ، ويبكون . ويشتكى الأطفال الآخرون منهم . فتضطر بأن تنظر من خلف الشيش وتنادى . فيسمع رجال الشـارع صـوتها ويحلمون مع الصوت . ويتخيلون الوجه والعينين .

حتى الحاج محمد سماحة زوج أخته لم يراها للآن . بل خلف الله حريص الا يراها سماحة بالذات . رغم علمه أنه رجل مستقيم وليست له سوابق فى عالم النسوان .



قامت الحاجة ـ زوجة الحاج سماحة ـ لملاقاة زوجها ـ بدانتها الآن تعوقها عن اداء أعمال البيت ٠٠ لولا بناتها ما استطاعت فعل شيء ٠ قـالت :

ـ أعد لك العشاء ٠

أراد أن يقول « لا » ٠ لكن ما ذنب باقي الأسرة وقد تعودوا أن يتناولوا العشاء معا بعد عودته من الدكان ٠٠ الوجبة الوحيدة التى تجتمع الأسرة فيها حول المـائدة ٠

فى الصباح يخرج الحاج بعد أن يشرب كوب شاى بدون لبن ٠ ووقت الظهر يتناول الطعام مع أبنائه ـ الذين يعملون معه ٠ وباقى الصنايعية ٠ قال الحاج لزوجته :

ـ نعـم ٠

ذنب الولدين « بوللى ولالى » فى رقبته ٠ هو الذى جعل حافظة تذهب بهم الى فيكتور اليهودى بتجـاهله لها ٠ وعنـاده معها ٠ نعم ٠ لقد جاءته مئات المرات ٠ قل آلاف المرات ٠ جاءت تبكى وتنوح ٠ لكنه طردها ٠ واقسم ان جاءت ثانيـة سيسلمها للكركون ٠ وسيوصى عليها الضـابط والمخبرين ليضربوها هنـاك حتى يدموا جسدها بعد أن ضـاقت به أرادت أن تغيظـه ففعلت ما فعلت ٠

أطفال الحاج سماحة كانوا صغارا وقتذاك ٠ ولم يدركوا ما كان يحدث ٠ والصنايعية الكبـار ظنوها تحبه وتريد أن تتزوجـه ٠ لم يعلموا أنه سبق له الزواج منها وأنه طلقها بعد ذلك ٠

وجيرانه أصحاب المحلات الأخرى المجاورة ٠ قال بعضهم :

ـ يا بختك ٠ امرأة جميلة تحبك وتكاد تجن من أجلك ٠

ربنـا ستر عليـه ، فتزوجهـا وطلقهـا دون علم أحد من معارفـه .

آه لو علم خلف الله ـ شقيق زوجته وغريمه بما حدث ، لكان فضحه وجرســه فى كل مكان . خلف الله مازال يشغل الدكان القديم فى السيالة القريب من المدفن القديم . ويعمل عمل الحاج سماحة نفسه ، يحلق الشعر والشارب واللحية . ويطاهر ويعالج الجروح وبعض الأمراض البسيطة . لكن شتان بين الاثنين . فسماحة فاقه بكثير .. ونظرة واحدة الى الدكانين من الخـارج تحس بالفارق . دكان خلف الله تساقط طلاؤه ، وبابه الخشبى ذو الدرف الثلاث تكسر . ومقاعد الدكان فى الداخل متهالكة . بينما دكان سماحة يلمع من النظافة : درفتان من الزجـاج . ثم باب صاجى فى الخارج . وفى الداخل مرايات حولك من كل مكان . وأثاث جيد ....

- ٩ -

نسيت عواطف نفسها وهى تسير مع أحمد الدسوقى على كورنيش البحر · كان يتحدث بصوت خافت · استعذبت صوته · تحدث عن احتمالات الحرب ، والذى قد يحدث للبلد لو حدث هذا · وهى تسمعه وكأنه يتحدث عن حبه لها · كأنه يطربها بكلمات الغزل · قالت :

ـ ألم تتخذ قرارا فى موضوع عملك ؟

فوجىء بسؤالها هذا · فهو لم يراها سوى بالأمس فقط · فكيف أعطت لنفسها الحق لكى تتدخل فى شئونه ·· وأخص شئونه ؟ !

ـ سأقدم أوراقى الى جامعة الاسكندرية · لأكون مدرسا فى الكلية ·

ـ ولماذا لا تذهب فى الغد ؟

ـ الكل مشغول بمسألة الحرب ·

ـ وأنت المشغول بها أكثر من غيرك ·

ــ هذه حقيقة ٠ ولا أستطيع أن أفكر فى شىء غير الحرب ٠

ودت لو وضعت يدها فوق قلبه لتسمع دقاته ٠ فقد أحست أن قميصه يهتز من عنف دقات قلبه ٠ قال :

ــ أفكر فى الذهــاب الى المسئولين لكى أحــذرهم من الفخ المنصــوب لنا ٠

ضحــكت :

ــ أتظنهم غير مدركين لتلك الأشياء ٠

ــ التصرفات التى رأيتهــا منذ أن جئت من ألمـانيا تؤكـد هــذا ٠

صاحت فى دهشة :

ــ ذلك مدهش للغاية ٠ انهم عسكريون وأدرى منى ومنك بهذه الأمور ٠

ــ الموضــوع ليس له صلة بالعســكرية وغيرها ٠ انه فخ يريدون لمصر أن تقع فيه ٠

ــ أنت فرد عادى ، كنت تتعلم فى ألمــانيا وهنــاك ســفارة وخبراء عسكريون واعلاميون ٠٠ الخ ٠ عملهم أن يسمعوا ويقرءوا ويحللوا الموقف ويرسلوه للمسئولين هنا ٠

الوقت يمر وهى معه دون أن تحس بمروره ٠ أشــار الى التاكسى للوقوف ٠ ركبت عواطف وهى تنظر اليه ٠ لم تدر أن فى نظرتها هياما نحوه وقلقا وخوفا عليـه ، ورغبة فى ألا تتركه ٠ تمنت لم ظلت معه حتى الصباح ٠٠

أنحنى بقامته المديدة فوق نافذة التاكسى ٠ قال السائق :

ـ ألن تأتى معنا ؟

احس الرجـل أنه لا يريد أن يركب التاكسى · ولا يريد للتاكسى أن يتحرك · أفاق أحمد · فصـاح وقد اعتدل جسده :

ـ لا · لا ·

ابتسمت عواطف له · ولوحت بيدها مودعة · كانت سعيدة· لم تحس بهذا النوع من السعادة من قبل ·· أرادت أن تحب كما تحب البنات ، وان تنشغل كمـا يفعلن ويحكين · وحـاولت · لكن كل ما فات كان عبثا ووهما توهمت انها تحب أحد المدرسين أيام كانت طالبة فى المدارس الثانوية · كان وسيما ، وكانت الفتيات تتحدثن عنه فى هيـام · وتوهمت أنها تحب أحد دكاترة معهد الخدمة الاجتماعية · لكنها لم تقترب من المدرس ولا من الدكتور · لم يحسـا بما توهمت به أو ظنت · وتلاشى ذلك تدريجيـا · اكتشفت أنها مثل العديد من البنـات يعتقدن أنهن يحببن ذلك الشخص لوسامته · أو لغزارة علمه وثقافته وحلو حديثه ·

هذا هو الحب · التاكسى يمر فى أماكن تراها الآن ، وكأنها تراها لأول مرة ·

هى ليست ذات جمال آخاذ · مثل بعض زميلاتها فى المدرسة أو فى معهد الخدمة الاجتماعية · ثم فى المدارس التى عملت بها ·

كانت تسير معهن أحيانا · أو تركب الأتوبيسات · فتحس بتنهدات الرجـال · ونظرات الاستحسان أو ربما كلمـات الغزل أحيانا · لكن هى لم يحدث معها هـذا · اساءها هذا أول الأمر · لكنها تعودت عليه واعتبرته قدرها · ومنت نفسها بأشياء أخرى · فالله لا يعطى المرء كل شىء · فمن معاشرتها للجميلات ـ زميلاتها ـ تعرف أن معظمهن غير سعيدات · وقد تتزوج الواحدة ـ منهن ـ زوجا غاية فى السوء · أو أن تعيش حيـاة فقر وحاجة ·

لكن الدكتور أحمد شيء آخر • أتراه يحبها • أم أنه فى حاجة اليها لقلقه من أجل الحرب التى قد تقوم فجأة •

نسيت عواطف ابن عمتها ابراهيم ــ ياه ــ أى ريح غادرة أتت به اليها الآن ؟ ! فلنعد الى الدكتور أحمد حتى تمحو ذكر الأثر السيىء •• صاح سائق التاكسى :

ــ زوجك ؟

افاقت على السؤال المباغت :

ــ من ؟

ــ الأستاذ الذى كان معك •

ــ لا •

ضحك السائق وصاح :

ــ خطيبك لاشك • فقد كان ملهوفا عليك •

أومأت برأسها • فأكمل السائق :

ــ أرجو أن يظل مهتما بك بعد الزواج أيضا •

أراد السائق أن يحكى لها عن حال الناس ، الشاب يكون مهتما بخطيبته ومولعا بها طوال فترة الخطوبة • فاذا ما تزوج تبخر ذلك الاهتمام وزال • لكن عواطف لم تعطه فرصة • فقد نظرت الى الشوارع التى يسير الناس فيها • تذكرت خروجها مع ابراهيم ابن عمتها وخطيبها : السير على كورنيش البحر أمام الميناء الشرقية قريبا من بيته • فاذا ما افترقا يكون ــ هو ــ قريب من بيته • وتسير هى باحثة عن تاكسى يوصلها الى بيتها فى سيدى بشر • اشار ابراهيم الى مراكب الصيد وتحدث عنها

باسهاب • احست بآلام فى ساقيها • وصـداع فى رأسها ، وملل ينتاب جسدها كله • وركنت جسـدها على سياج البحر ليرتاح • كان السياج متسخا • مملوءا بالتراب الأسود حكى ابراهيم لها عن الصيد • السنارة والشص • أحست بأن صيد السمك ـ عنده ـ ليس هوايه بقدر ما هو احتراف • يصطـاد السـمك ليأكـله أو ليبيعه • كرهت وقتها السمك ورائحته • وشعرت بميل لأن تخرج ما فى امعائها بعد أن عادت الى ابيهـا لاحظ آثـار التراب والأوساخ فى فستانها الأبيض الغالى من جراء جلوسـها علىسياج البحر • فقالت له :

ـ هذا ما آخذه من فسحته •

* * *

دقت عواطف زجاج شراعة الباب دقات منتظمة ذات حركات سريعة منغمة • فتح محفوظ الباب وصاح بها :

ـ ماذا بك • الباب له جرس • كما أن معك مفتاحه ؟

قبلت والدها سعيدة • وأرادت أن تسرع الى حجرتها تنظر الى المرآة لترى هل هى تستحق ان يحبها شاب وسيم مثل الدكتور أحمد • أرادت أن تستعيد لحظـات السـعادة التى مرت • لكن والدها ـ هو الآخر ـ كان فى حاجة لمن يشاركه سـعادته هذه الليلة • فصـاح :

ـ لقد سعدت بما قاله جمال عبد الناصر •

دهشت عواطف :

ـ بابا انك لأول مرة تتحدث عنه هكذا ؟

ــ الرجل على حق • والذى يخالفه مخطىء وأنا أولهم •

تحدث والدها طويلا • سمعت هى أقل الحديث • كانت ــ من وقت لآخر ــ تذهب بعيدا حيث لقاءها مع أحمـد الدسـوقى • تستعيد تحركاته ، والعصبية الواضحـة فى وجهه • وهى تنظر لأعلى لكى ترى وجبه • قال والدها :

ــ لابد أن ننتهى من مشكلة اسرائيل • لكى يهتم الرجـل بمشاكلنا الداخلية •

* * *

فيكـور اليهودى دائم الجلوس فوق مقعده الأثير فى الكازينو • قلما يتحرك واذا ما تحرك يذهب الى المرحاض لقضـاء حاجتـه ويعود الى الجلسة نفسها • حتى طعامه يتناوله فى مكانه • حتى أن المقعد أن تحته ، وتقطع فرشه •• ثم اضطر أخيرا لأن يغيرة بآخر •

قلة تحركه جعله يبدو فى صورة غير مستحبة ، خاصة أن قامته قصيرة وساقيه معوجتين • وزيادة وزنه زادت الطينة بلة • فأحنت ساقيه أكثر • فكان ملفتا للنظر اذا ما سار •

عليه ــ اليوم ــ أن يذهب الى دكان خلف الله الحـلاق • شعر رأسه أصبح لا يطـاق • نساء الكازينو يسخرون منه كل واحدة تلقاه تصيح فيه « ايه • أتريد أن تكون خنفسا ؟ ! » كما أنه يود أن يسير قليلا • يستطيع أن يرسل الولد بوللى لاستدعاء اى حـلاق • يحلق له داخل الكازينو • لكن رؤيـة الشـوارع اوحشـته •

اقترب من أرض المدفن القديم • يستطيع أن يبعد عن هـذا المكان ويذهب الى دكان خلف الله عن طريق آخر • لكن أرض

المدفن تشده اليها · أين أيام زمان · أيام الحرب العالميـة الثانية · كان فيكتور يعمل فى شركة موريس منشه ، عامل عادى · لم يكن جسده قد ترهل هـكذا · كان يستطيع أن يحمل بالة الأقمشـة ويصعد بها لآخر دور فى المبنى ·

كان يأتى الى هذا المكان الموحش بامرأة يهودية لا تمتلك شيئا · يدس فى صـدرها النصف فرنك الفضـة · وهى ترتعش من الخـوف :

ـ فيكتور · هذا المكان كان مدفنا ·

ـ أعلم · لكن هذا من قبل أن يأتى نابليون الى مصر · بعده لم يدفنوا فيه انسانا ·

ـ فيكتور ، أنا أرتعش من البرد والخوف ·

تابع فيكتور كوخ حافظة القابعـة فى الداخل · سـار على حذر · متمتما ومناديا الرب لكى يمر دون أن تراه · والا فرجت عليـه المسلمين واليهود والنصـارى · وربمـا ضربته بأى شيء عندها · فهى لم تعد تحبه · وقد حاولت أخذ ولديهـا « لالى وبوللى » لكنهما رفضـا الذهاب معها · فالبقاء فى الكازينو أحسن لهما من النوم فى العراء أمام كوخ أمهما العفن · ولقد أخبرهمـا فيكتور بحقيقـة المكان وأنه كان مدفنا · واذا ما حفرت قليـلا ستخرج من أحشاء الأرض جماجم وعظـام بشرية · ارتعد الولدان وقبعا بجوار النصبة داخل الكازينو · كما أن وجودهما فى الكازينو يجعلهما يأكـلان ما يتركه الزبائن من لحوم وحلويات · والزبائن يتركون أكثر مما يأكلون · فقد جاءوا للحب لا للأكل · لدى حافظة ماذا سيأكلان غير الأطعمـة التى يتصـدق بها أهل الخير لأمهمـا ·

دخل فيكور دكان خلف الله الذى كان يحلق لزبون :

ــ سعيدة يا خلف ٠

ــ اهلا خواجة فيكتور ٠ أخيرا خرجت من الكازينو ٠

ــ مادمت لا تريد ان تأتى لتحلق لى هناك ٠

ــ أنا وحدى فى الدكان يا خواجة ٠ الصنايعية هربوا ٠ طفشــوا ٠

جلس فيكتور فوق المقعد الصغير الخشبى ٠ الذى لم يغيره منذ ان مات أبوه الحاج مرزوق ٠ أحس فيكتور بعدم الراحــة ٠ امتد كرشه أمامه وساقاه القصيرتان جعلته غير مستقر على المقعد ٠

كان فيكتور يأتى الى هنا أيام الحاج مرزوق ــ وقتها كان محمد سماحة صغيرا ٠ يمسك بالمروحة ، يهوى بها للزبائن ٠ ثم بفرشة يزيل الشــعر العالق بالملابس ٠ وخلف الله فى ند عمره تقريبا ٠ كان أتخن من سماحة ٠٠ وكان يهرب من الدكان ، يلعب البلى مع الأولاد ٠ أو يذهب الى سينما التتويج أو راس التين ٠ والحاج مرزوق يشكو لكل الزبائن ٠

محمد سماحة يريد أن يتعلم ٠ لكن ابنى لا

وافتتح ســماحة دكانه فى شــارع راس التين ٠ وكان كبيرا ببابين ٠٠ واستقام خلف الله ، وأجاد فى مهنته ٠٠ لكن بعد فوات الأوان ٠ محمد سماحة انطلق ٠ واعطاه الله سره كان أمهر من معلمه الحاج مرزوق ٠ كما ان خلف الله لا يستطيع أن يعيد الى دكان ابيه (الذى ورثه الآن) الزبائن اللذين ذهبوا الى سماحة ٠

انتهى الزبون من الحلاقة ٠ دس النقود فى يد خلف الله ٠ ونظر الى فيكتور فى استخفاف ولم يحييه ٠٠ ابتسم فيكتور ٠

فمعظم سكان بحرى يعاملونه هكذا • لا لأنه يهودى • وانما للكازينو الذى يديره • ويضم اليه نسوة لهن علاقات مشبوهة ومشـــهورة وفضائح متكررة •

قام فيكتور الى المقعد الكبير العتيق • اذ المقعد تحت جسده المتلىء • قال :

ــ هذا المقعد من أيام الحاج مرزوق •

ــ عندك حق •

ــ الكراسى فى دكان سماحة من الجلد والمعدن • الواحد بثمن مهر عروسة •

ــ ربنا يعطينا مثله •

ــ لا تدخل ربنا بينك وبينه •

ــ كف يا خواجة عن هذه السيرة

ــ لـــاذا ؟ الست بأحق منه بكل هـــذه المكانة • أنت ابن الحاج مرزوق وليس هو •

تنهـــد خلف الله فى أسى • فلقد أخذ ســـماحة كل شىء ، الزبائن والمكانة وسط أهل بحرى •

ــ وماذا افعل معه يا خواجة ؟

ــ اذهب اليه •

ــ الى دكانه لا • الا هـــذه • لقد تشاجرت معه منذ وقت طويل • واقسمت ألا أدخل دكانه مرة أخرى •

ــ للضرورة أحـــكام •

تنهد خلف الله وصمت .

ـ تنهداتك من الممكن أن تحرق دكانك . لكن دكانه هو عامر بالزبائن كما هو .

ـ لقد أسرني بزواجه من أختي .

ـ بل بأختك تستطيع ان تضغط عليه .

ـ وهي تحبــه وتقدره .

ـ لكنها لا يمكن أن تنسى أنك أخوها الأكبر .

ـ استطاع أن يأخذ من أبي سر المهنة ، وابنته أيضا .

ـ مازال هناك متسع من الوقت لكن لابد أن تبدأ من الآن .

ـ سأفعل . فدخلي من الدكان لم يعد يكفي أسرتي الكبيرة .

* * *

بعد أن انتهى الحاج الدسوقي من شرب القهوة ، اراد ان يستلقي على السرير ليرتاح قليلا . فقد تعب اليوم ساعات طويلة وهو واقف على قدميه في المزاد . كان خير ربنا كثير ، الســمك وفير والمراكب ملأى .

سمع الحاج من ينادي عليه من أسفل السلم « يا حــاج دسوقي .. يا حاج دسوقي » .

اعتدل الرجل قليلا فوق سريره . كاد النوم يداعب جفنيه . صاح من مكانه :

ـ من يا صابرين ؟

ـ الأسطى خلف الله يا أبي .

قام الرجل مندهشا :

خلف الله هذا لم يأت اليه ولا مرة من قبل . كان الدسوقى يحلق شعره ولحيته فى دكان والده الحاج مرزوق ، القريب من المدفن القديم . لكن عندما افتتح محمد سماحة دكانه ذهب الدسوقى اليه .

كما أن علاقة الحاج الدسوقى مع خلف الله محدودة للغاية . فالحاج ليست له سكة من أمام الدكان . وخلف الله يكثر من غلق دكانه بالأسبوع والاثنين . يذهب الى الموالد (يلقط رزقه هناك) لذا ، قلما يقابل الدسوقى خلف الله ، واذا ما رآه فى الطريق يكتفى بتحية من بعيد . كل واحد منهما يرفع يده محييا.

قام الحاج متكاسلا . فهو لم يرتح للآن . ولم تغفل عيناه لحظة واحدة . لكن الرجل قصده وجاءه الى حد بيته . ولابد من مقابلته واكرامه .

نظر الحاج الدسوقى الى أسفل السلم وهو واقف أمام شقته :

ــ تفضل يا اسطى خلف .

وصاح الأسطى خلف الله من أسفل :

ــ يا ساتر .

وصعد السلم .

ــ أهلا بك . أهلا .

اخذ الحاج الدسوقى يرددها كلما صعد خلف الله درجة من درجات السلم التى تزيد عن العشرين بقليل :

ــ أهلا بك .

ــ خير يا حاج الدسوقى ، خير ؟

ــ تفضل .

دخلا معا حجرة الصالون . ابتسم الحاج :

ـ نورت البيت يا أسطى • والدك كان عزيزا على • وله أفضال كثيرة على وعلى أهل بحرى •

ـ الله يحفظك • أنت تعلم أن محمد سماحة كان يعمل فى دكاننا •

ـ أعلم • ثم تزوج أختك وانجب منها • وافتتح محلا بمفرده •

ـ أكمل يا حاج • قل انه بعد أن افتتح دكانه هذا اخذ زبائن المحل معه •

ـ اخذ الزبائن ؟

ـ نعم يا حاج • أعلم أنه صديقك •

ـ صديقى شىء • والحق شىء آخر يا أسطى خلف •

ـ الحق أن محمد سماحة اخذ زبائن الدكان وتركنى بلا زبائن •

ـ العمل ؟

ـ ان يرسل لى جزء من زبائنه التى هى فى الأصل زبائننا •

ـ كيف ؟

احس خلف الله أن الحاج الدسوقى غير راض عما يقول • وانه ينحاز الى صديقه • فصاح غاضبا :

ـ أتسأل كيف يا حاج • الأمر غاية فى البساطة • الزبائن الذين ذهبوا الى دكانه يعودون •

ـ وان كنت ـ للآن ـ لا أعرف كيف سيتم هذا • الا أن الأمانة تقتضى أن أبلغه بما تريد • وما على الرسول الا البلاغ •

- ١٠ -

اقترب فيكتور من الكازينو ٠٠ لفحه هواء البحر من قبل أن يصل الى الكورنيش ٠ كان يلهث مع أنه لم يبذل جهدا أكثر من المشي من دكان خلف الله حتى الكازينو ٠٠ السنوات مرت مسرعة ٠ تركت آثارها على جسده ٠ جعلته مترهلا ٠ ولا يصـلح لشيء ، لا لحافظة ولا لغيرها ٠٠ لا يناسبه سوى الموت الآن ٠

وقف بوللى عندما رآه آتيا من بعيد ٠ ابتسم فيكتور عندما رآه منتصبا رافعا يده كجندى يحيى قائده ٠٠

ـ ايه يا بوللى ٠ كيف الحال ؟

صاح الولد ضاحكا :

ـ حلقت ٠ نعيما ٠

ضحك فيكتور طويلا ٠ خلف الله الحـلاق أزال كثيرا من شعره ، حتى بدا وكأنه ذاهب الى الجيش ٠ هـذا أحسن كثيرا حتى لا يذهب الى الحـلاق الا بعد وقت طويل ٠

أراد فيكتور أن يصفع الولد بوللى على قفـاه لسخريتـه منه ٠ لكن الولد تفـادى الصفعة وابتعد وهو مازال يضحك على حلاقـة فيكتور ٠

فى الداخل كانت ليلى مسترخيـة فوق مقعد كبير ٠ تدخن سيجارتها فى هدوء ٠ صاح فيكتور :

ـ كيف حالك يا ليلى ؟

ـ فيكتور ٠ أين أنت ؟

ـ مالك ٠ حدث شىء ؟

ـ الحرب يا فيكتور ٠ الحرب ٠

ـ مالنا ومال الحرب ؟ !

ـ الست قلقا من حدوثها ؟

ـ اننا لسنا عسكريين ٠ كما أن الحرب مع اسرائيـل عادة لا تتعدى سيناء ٠

ـ أقصد وضعنا كيهود ٠

ضحك الرجل وجلس أمامها :

ـ نحن اليهود اعتدنا ذلك ٠

ـ كنت صغيرة أيام حرب ٥٦ ٠ لكننى مازلت أذكر مدى الجزع الذى انتاب أمى وأبى ٠

ـ لقد أرسل الحاخام برقية تاييد الى عبد الناصر ٠ يؤيده مثل بابا الارثوذكس وشيخ الأزهر ٠ وانتهت المشكلة ٠

ـ أيامها كان الغضب منصبا على انجلترا وفرنسا ٠ واسرائيل مجرد تابعة لهما ٠ لكن الآن ستكون بين مصر واسرائيل وحدها ٠

ـ اشربى كأسا على حسابى ٠ وفكرى فى صـوتك الذى سيضيع من كثرة التفكير والتدخين المستمر ٠

ـ صوتى ، وما أهميته صوتى الآن ٠ لقد امتحنت فى اذاعة القاهرة ولم أنجح ٠

ـ بهذه الطريقة قد تطردين أيضا من اذاعة الاسكندرية ، وربما تطردين من الكازينو أيضا ٠

ـ ليس مهما الآن ٠

اقترب الولد لالى منهما ٠ قالت :

ـ لالى ٠ الصول عبد الله لم يأت ٠

ـ لم اره منذ أيام ٠

قالت لفيكتور :

ـ سمعت ٠ ذلك يؤكد أن الحرب قد تبدأ اليوم أو غدا ٠

ـ وما صلة هـذا بالصول عبد الله ٠

ـ الرجل كان يأتى كل ليلة الى الكازينو ٠ فعدم حضـوره الآن يعنى أن الاجازات ممنوعة ٠ والمبيت فى البيت ممنوع ، وذلك لا يحدث الا فى أوقات الحرب ٠

ـ من رأيى يا ليلى أن تبحثى عن مؤلف أغانى يكتب لك عدة أغنيات وطنية تؤيد عبد الناصر وجيشـه ٠ صدقينى هـذا سيحميك ويبعد الخوف عنك ٠

سارت نحو البار وهي تصرخ في فيكتور :

ـ أنت رجل بلا قلب ٠

جاء فيكتور من فلسطين عام ١٩١٥ وعمره لم يتعد الثانية عشرة ٠ وقتها أعلن والي فلسطين « أحمد جمال باشا » الحرب علي اليهود الموجودين فيها ٠ وامر باغلاق البنك الانجليزي الصهيوني ٠ وحل هيئة حراس هاشوير ٠ وحرم الكتابة بالعبرية علي الحوانيت والشوارع وهدد باعدام من تسول له نفسه بأن يلصق طابع بريد صهيوني علي الخطابات ٠

أعلنت أسرة فيكتور الهجرة الي مصر ٠ وجاءت الي الاسكندرية حيث استقبلها الخديو عباس حلمي ورئيس وزرائه حسين رشدي ٠ وصرفا لهم الاعانات الفورية ٠

التحق فيكتور بمدرسة في القباري كانت تشرف عليها مدام فيلكس منشة اليهودي الثري المعروف في الاسكندرية تعرف فيكتور وقتها علي زكي داود ٠ لم يأت مثله من فلسطين ٠ بل هو يهودي مصري أبا عن جد ٠

لم يرتح فيكتور لزكي هذا ٠ فقد كان معارضا لآراء المدرسين في المدرسة ، المتعاطفة مع اقامة دولة لليهود في فلسطين ٠ ربما كان زكي متأثرا بآراء أهله ٠ تمني فيكتور لو استطاع أن يضرب زكي ويسيل دمه ٠ فكيف ليهودي الا يكون متعاطفا مع آمال اليهود جميعا وأحلامهم ٠

لكن كيف يضربه فيكتور وهو أقوي منه ٠ واكثر منه طولا وعرضا ٠ رغم هذا تحققت لفيكتور أمنيته بعد سنوات طالت ٠

عمل فيكتور كاتبا في محلات موريس منشة الكثيرة والمنتشرة في الاسكندرية وذلك عن طريق فيلكس منشة مدرسته القديمة ٠

وكان تابعاً لموريس منشة ، يزوره فى بيته ويقضى حوائجه وحوائج اسرته . وبالطبع تبنى أفكاره ومنها العمل على ترحيل فقراء اليهود المصريين الى فلسطين .

ومن شدة تأثر فيكتور بالفكرة . اراد هو نفسه أن يرحل الى فلسطين . وعرض الفكرة على موريس . لكن الرجل قال له :

ـ لا تكن أبلها . اننا نحرص على ذلك . لكن لا نفعله . كما اننى فى حاجة للبقاء فى مصر وفى حاجة اليك هنا .

فى ذلك الصباح قال موريس لفيكتور :

ـ أريدك الليلة فى البيت .

اومأ فيكتور براسه ولم يجبه . لم يكن متحمسا للذهاب هذه الليلة . فقد وعد فتاته بأن « يفسحها » فى حدائق النزهة وانطونيادس . لكنه لا يستطيع أن يرفض لموريس طلبا . فهو ولى نعمته .

ذهب الى البيت ، فوجىء بوجود أعداد كبيرة من كبار العائلات اليهودية : عاداة وقطاوى وموصيرى ومنشة وغيرهم . جلسوا فى حجرة مغلقة . وفيكتور مع العديد من العاملين لدى منشة يقومون بخدمتهم : تقديم الأطعمة الخفيفة والمشروبات ، ثم يغلقون الباب عليهم مرة أخرى .

وبعد الاجتماع دعاه موريس منشة وقال :

ـ تعرف نادى المكابى ؟

ـ اننى عضو فيه . أذهب اليه كثيرا لألعب « البنج بنج » .

ـ جميل . فى الغد ستعقد اجتماعات الجمعية العمومية

وأنتخابات مجلس الادارة • وهنـاك أولاد مشاغبون يعارضـون افكارنا • وهم ـ الآن ـ يسيطرون على النادى •

ـ نريد أن نضربهم •

ـ اريد أن تثنيهم عما يريدون • بأن تسقطهم فى الانتخابات وتبعدهم عن النادى •

ـ لا تنشغل بهذا • فالأمر بسيط •

بالفعل اجتمـع فيكتور ومن معه من العـاملين فى شركات موريس منشة وقطاوى وشـيكوريل وغيرهم • وآثاروا المشـاكل مع الآخرين وتربصـوا بهم • كان لحسن الحظ زكى داود من بينهم • أبله • كان ينادى بأن اليهود جزء من مصر • مصريون ديانتهم اليهودية • مثلهم مثل المسلمين والأقباط • وكانوا يعلقون اللافتات الورقية التى تؤيد هذه الأفكار :

أ ـ القضاء على الحركة الصهيونية •

ب ـ الوقوف ضد هجرة اليهود من مصر •

ج ـ اعلان الارتباط بمصـالح الشـعب المصرى والحـركة المصريـة •

قام فيكتور ومن معه بتمزيق هذه اللافتـات • وداسـوها باحذيتهم • ثم التفوا حول هؤلاء وأوسعوهم ضربا أراد فيكتور مصرع زكى داود • لكن زكى رماه بعيدا عنه وهرب الى الشارع بعد أن كسرت ذراعه •

ذهب اليهود الى امريكا واوربا وفلسطين • وتبقى القليل • ومنهم زكى داود • لكى يراه فيكتور دائما أمامه • يذكره بمـا

حدث • لكن فيكتور لم يخسر شيئا • فقد ترك له اليهود ـ الذين هاجروا ـ اشياءهم ونقودهم وممتلكاتهم •

ذكريات يحس فيكتور بالأسى وهو يتذكرها ، عشيقات كثيرات ، مسلمات وقبطيات ويهوديات • كلهن ذهبن وبقى هو يحمل كرشه وجسده المترهل وآلام ساقيه اللتين لا تستطيعان حمل جسده الثقيل • فيئن ويتألم ويفضل البقاء فى الكازينو •

* * *

أحس عبد الله باسترخاء وانتشاء وهو مضطجع فوق سريره العلوى •• لقد اختار هذا السرير • لكى يكون فوق الجميع ، يتابعهم ، ويفعل ما يفعل فلا يراه زملاؤه سكان السراير السفلية ليسوا موجودين الآن •• مشغولون الآن اما بالحراسة أو بالقيام بواجبات الفرقاطة • هو الوحيد فى عنبر سبعة الآن • لقد عاد من وردية حراسته على سطح السفينة عند الفجر • ونام ساعتين لا اكثر ، وأحس برغبة فى أن يقرأ • فتح « المبريطة » المجاور لسريره لكى يهوى العنبر • وملأ صدره بالهواء النقى •

نزل الى السرير الأوسط • ثم السرير الأرضى • « تمطع » وتثاءب بصوت مرتفع • فهو وحده فى عنبر كبير يتسع لأكثر من ثلاثين بحارا •

منذ ان أعلنت حالة الطوارىء وكل سفن الأسطول المصرى فى انتشار • بعضها داخل الميناء العسكرى فى رأس التين • فى اماكن متفرقة ومتباعدة • والبعض الآخر فى الميناء التجارى « الجمرك » •

سارت الفرقاطة مصر وسط المياه الاقليمية المصرية • وقف العقيد حسن المختار فوق السطح • يشرف بنفسه على العمل •

نظر عبد الله الى ساعته وجدها قد تجاوزت التاسعة صباحا وهو كما هو • لم يغسل وجهه ولا أسنانه • ولم يقرأ جرائد الصباح كعادته كل يوم •

اذا ما كان فى اجازة يبدأ يومه بقراءة عناوين الجرائد الرئيسية• هو لا ينزل لشرائها • لكن بائعها يبرمها ويلقيها الى فراندة الفيللا •

فى الفرقاطة يأتى قارب من الشط محملا بلوازمهم ، أو تاتى مع السفن المساعدة : تموين مياه ، أو مازوت ، أو أكل •• الخ •

صعد عبد الله الى سطح السفينة بحالته تلك • شعره مهوش ولحيته لم يحلقها وهو نادرا ما يظل هكذا لو رآه العقيد حسن المختار حتما سيعنفه ويلومه لتصرفه • هو صديقه حقا ، لكن ليس معنى هذا أن يتهاون معه فى أبسط قواعد العسكرية • لكن الرجل نزل ثانية الى حجرته • هو الآن لا يهدأ وقليلا ما ينام • المسئولية ثقيلة عليه •

واجهه الصول رمضان ، هو يسكن حى بحرى مثله • ومخصص لبعض المهام الادارية فى السفينة • عمله يحتم عليه الانتقال بقارب (اى قارب ذاهب الى الشط) لانهاء بعض الأوراق الرسمية فى الادارة • أو بعض النواحى الأخرى • حياه رمضان من بعيد • ثم اقترب منه :

ـ تعرف ان شقيق خطيبتك ـ دكتور احمد ـ عاد من المانيا؟

ـ حقا ؟ ! رايته ؟

ـ لا • هو لم يخرج من البيت • أتفقت مع بعض الرجال على الذهاب اليه •

جاء جندى بجريدة عبد الله التى ارسلها اليه ريس القارب • استأذن عبد الله من رمضان • وأسرع الى عنبره الذى يعمره وحده

الآن . واجهه أول مانشيت فى الجريدة . فى حـالة نشـوب المعركة ستحقق القوات العربيـة مفاجأة مذهلة . مستخدمـة أسلحتهـا السريعة . كما ان أسراب المقاتلات العربية الأسرع من ضعف الصوت قادرة على تحقيق السيطرة الجوية . كمـا أن هنـاك أنواعـا من المقاتلات النفاثة السريعة من أحدث طراز انضمت الى أسراب القتال فى القوات الجوية .

أراد عبد الله أن يكمل قراءة الجريدة . يتابع أخبار النجوم والأفلام فى السينما . لكنه لم يقدر . بانقباض . رمى الجريدة فوق السرير وشرد طويلا .

احس برغبـة فى الخروج من الفرقاطة . والجلوس فى قهوة عبده الزردونى . وكازينو كازابلانكا ومقابلة ليلى وفريدة . يريد أن يهرب من ذلك الانقباض . هو دائم الاحساس به . ظنه ــ أول الأمر ــ بسبب بقائه فى الفيللا الواسـعة وحده ومتابعـة الأرض الواسعة أمامه والحديقة العامة والمرحاض العمومى فى الأرض التى كانت مدفنا لأسرته الى ان جاء نابليون فمنع عادة دفن الموتى فى البيوت وبجوارها .

صعد الى سـطح السفينة ثانية . شـاهد جنـدى بحرى باحثا عنه .

ــ حضرة الكومندان يريدك حالا .

احس بالضيق . فأكيد الرجل سيكلفه بعمل جديد . وكل الأعمال فى هذه الفترة شاقة وهامة . قال :

ــ سأذهب اليه .

قال الجندى فى تعنت :

ـ لا • هو قال لا تأت الا به •

ـ ماذا • تريد أن تقبض على ؟ !

ـ العفو • لكن من أجلى تعال معى الآن •

سار عبد الله الى حجرة الكومندان التى يعرف كل شبر فيها•

كان الكومندان يجلس فوق مقعده • والرائد سيف قائد سلاح الطوربيد والصواريخ المضادة للغواصات جالس أمامه • ما الذى جمعهما هكذا •• اللهم اجعله خيرا • حسن المختار لا يحب الالتزام ببعض الواجبات العسكرية المبالغ فيها • لذا • قبل ان يدق عبد الله الأرض بقدمه ويحييه • صاح فى ضيق :

ـ اجلس يا عبد الله ، أريدك •

ـ خير •

ـ لقد أرسلت اليك • لأنك أنت والرائد سيف عليكما مهمة صعبة للغاية •

خلع عبد الله طاقيته ، وضعها فوق المكتب • أحس الكومندان بالضيق لتصرفه هذا • فقد أخرجه من حالته ، قال فى عصبية :

ـ تعرفان ما حدث • تعنت تركيا جعلنا لا نتسلح بالصواريخ المضادة للغواصات •

اومأ برأسيهما معا • فالقصة معروفة لكل العاملين فى الفرقاطة • وتعرفها الادارة جيدا •

فقد تم الاتفاق مع الاتحاد السوفيتى منذ شهور عديدة أن تذهب الفرقاطة مصر بكامل طاقمها ، مخترقة المياه الاقليمية فى تركيا • ثم تتسلح بالصواريخ فى الاتحاد السوفيتى وتعود •

واستعد طـاقم الفرقاطة كله لذلك . صرفـوا لهم المبـلغ المخصص لذلك ، وبلات روسـية . واستطاع البعض الحصـول على مبالغ اضافية للانفاق هنـاك ودار الحديث طوال الوقت عن روسيا وبردها القارس والكافيار والروسيات الممتلئات والفودكا .

قبل السفر بليلة واحدة . صدرت الأوامر بالغاء الرحلة . فقد اشترطت تركيا أن تعود الفرقاطة بنفس السلاح الذى ذهبت به الى الاتحـاد السوفيتى . ولا تزيد قطعة سلاح واحدة . وذلك التزاما بحظر السلاح المطبق على منطقة الشرق الأوسط .

قال حسن المختار فى أسى :

ــ من الممكن أن ترسل اسرائيل غواصاتها الينا . بل أنـا متوقع ان ترسل خلال هذه الأيام غواصات .. لذا على سـلاحكم مسئولية مضاعفة . ان تقاوموا غواصاتها دون صواريخ .

حاول الكومندان ان يعود الى حالته العادية . ان يبتسـم ويضحك وينكت . لكن الأسى كان قد ترك أثره على وجهه :

ــ ما علينا . المهم أننى فى حاجة اليك يا عبد الله . سأرسلك الى الادارة فى راس التين بمهمة .

أراد أن يسأل عبد الله سبب اختياره هو لهـذا . علمـا بأن هذه المهمات من صميم عمل الصول رمضان .

قال الكومندان وقد وضع يده فوق كتف عبد الله :

ــ هذه المهمة خاصة بسلاحكما .. سلاح الصـواريخ المضادة للغواصـات .

دق عبد الله الأرض بقدمه فى عنف . وحيى الكومندان وانصرف استعدادا للخروج الى المهمة .

- ١١ -

يجلس عوض على مقعده خارج حجرة الكشف فى مستشفى السبع بنات .

اقتربت دكتورة آمال منه . عندما لمحها آتية من آخر الممر القصير وقف لها محييا :

ــ صباح الخير يا عم عوض .

ــ أهلا يا دكتورة ، يا سكرة .

ــ دكتور يوسف موجود ؟

ــ خرج آخر مريض عنده منذ لحظات .

فتح عوض الباب لها ، مفسحا الطريق ، وهو مازال يمسك مقبضه :

ــ تفضلى .

كان يوسف يغسل يديه بعد ان أنهى الكشف .

ـ كيف حالك يا يوسف ؟

جفف يديه بالفوطة المعلقة على المشجب المجاور للحوض :

ـ كنت سأذهب اليك فى حجرتك ٠

ـ قالوا لى انك سألت عنى ٠ لذا جئت اليك ٠ خير ؟

اشار الى المقعد المجاور لمكتبه :

ـ ارتـاحى ٠

احست أن ثمة تغيرا قد حدث فى معاملته لها ٠ فهو يبدو أكثر رقة معها ٠ وفى عينيه نظرة تعرفها جيدا ٠ فكثيرا ما رأتها فى عينيه ٠ عندما يشتد به الشوق ٠

ـ دكتور يوسف ٠ ماذا وراءك ٠

ـ كل خـير ٠ أردت ان آخـذك لزيـارة صديقنـا أحمـد الدسـوقى ٠

اهتزت آمال فى داخلها :

ـ مـاذا ؟

ـ الا ترغبين فى ذلك ؟

اعتدلت فى جلستها وقالت :

ـ كان المفروض أن يأتى ـ الى المستشفى لمقابلتى ٠ أقصد لمقابلتنـا ٠

ـ سألت عوض عنه ٠ فقال انه لم ينزل الى القهوة لمقابلة أصدقائه واصدقاء والده ٠

قالت جزعـة :

ـ ايكون مريضـا ؟

ـ هو لم يكن مريضـا عندما اتيت به ـ بسـيارتى ـ من المطار · لكن ····

ـ لكن · ماذا ؟

ـ قد يكون تغيير الجو اثر فيه ·

تعرف آمال أن يوسف يحبهـا منذ طفولتهما · ويتمنى أن توافق على الزواج · وتعرف ـ أيضـا ـ انه يخشى من حبهـا لأحمد ويحاول كثيرا ان يبعدها عنه · فما الذى حدث له ؟ لمـاذا يسعى لأن تقابل احمد · ويبارك ذلك اللقاء ؟ !

ـ ومتى سنذهب لزيارته ؟

ـ مضطر ان اذهب بعد قليل · حتى لا اضيع وقت العيادة ·

ـ لكن ·····

ـ لا تخشى شيئا · فهو صـديق قديم · ولو دعانا للغداء لن نمـانع ·

ـ هناك شيء خفي يجعلك سعيدا · فماذا حدث ؟

ـ لا شيء ·

* * *

ركبت آمال السيارة بجوار يوسف · انطلق بها من شـارع السبع بنات الى المنشية · قالت آمال :

ـ الى أين ؟

ـ الى بيت صديقنا القديم أحمد الدسوقي ·

ـ لا • سأذهب الى بيتى اولا •

ـ لماذا العطلة • اننى واثق انه سيغدينا عنده •

ـ الأكل لا يعنينى فى شىء • سأذهب الى البيت لأغير ملابسى •

ـ ملابسك جيدة • وتبدين فى أحسن حال •

ـ يوسف ارجوك • اذهب بى الى شارع التتويج لأغير ملابسى •

اضطر يوسف للاذعان وتوجه الى شارع التتويج • بدا واجما طوال الوقت فآمال كل ما يهمها ـ الآن ـ أن تبدو جميلة أمام احمد هى فى رداء حسن • وقد غسلت وجهها ـ لاشك ـ فى المستشفى بعد عناء العمل والكشف على المرضى • فما الداعي للذهاب الى البيت ؟

عندما وصلت البيت صاحت :

ـ لن أتأخر • نصف ساعة بالكثير •

عندما راته مازال يجلس أمام مقود السيارة صاحت :

ـ ماذا • أستنتظر فى السيارة ؟ !

ـ ليست لدى رغبة فى الصعود الى الشقة • سأتابع المارة وانا جالس •

مطت شفتيها وصعدت درجات السلم •

كان زكى داود ـ والد آمال يجلس مسترخيا على مقعده الخيزرانى الكبير واضعا ذراعيه خلف راسه • منصتا الي أغنية قديمة لأم كلثوم من جهاز كاسيت بجواره •

ــ بابا • اتستعيد الذكريات ؟

ــ آمال • لقد عدت قبل موعدك اليوم •

ــ يوسف ابن عمى ينتظرنى فى السيارة •

ــ الن تتناولى الغداء معى ؟

ــ سنزور احمد الدسوقى فى بيته •

ــ والغــداء ؟

ــ اذا لم نفلح فى تنــاوله عنده • سأضطر لأن أتعبــك • واتناوله عندما اعود •

كانت تحدثه وهى مسرعة الى الحمام لكى تغتسل • وتعد نفسها لمقابلة احمد •

تنهد زكى فى اسى • آمال مختلفة تماما عن أمها سارة • لا • هى شىء وامها شىء آخر •

جاء صوت ام كلثوم :

ليــه تلاوعينى وانت نــور عينى

ياللى كاويــانى • ياللى هاجــرانى

تمتم بصوت خافت مع الأغنية • واحس برغبة فى البكاء • هجرته سارة زوجته • كانت تعتنق افكارا ضد افكاره ••

استطاع فيكتور ومن معه ــ أن يؤثروا عليها ويحولوها عنه • فى آخر أيامها معه • صارت عدوة له •

كانت جميلة • اجمل بكثير من ابنتها آمال •

لقد افسد زكي جمال ابنته آمال عندما أعطاها من بعض دمامته • ليتها أخذت منه طوله وعرضه • وأخذت من أمها تقاطيعها المتناسقة الجميلة •

قال لسارة :

ـ ماذا تريدين اكثر مما نحن فيه ـ الآن ـ اصبرى وستنالين ما تتمنينه فى مصر • أستطيع أن أنتج فيلما سينمائيا وأكسب • السينما تكسب كثيرا جدا •

لكن فيكتور كان تأثيره عليها اكبر وأشد •

زارته فى الكازينو • تركت ابنتها آمال الرضيعة وذهبت اليه• قابلت رجالا ونساء كثيرين •

ـ جواز سفرك جاهز • والتذكرة أيضا •

لا ، لن تسافرى الى اسرائيل مباشرة • فليست هناك طائرات من هنا الى اسرائيل • لابد أن تذهبى الى قبرص فى الأول ، ومنها الى اسرائيل • وهربت سارة زارت فيكتور فى الكازينو ـ كالعادة ـ لكنها لم تعد الى البيت نامت ليلتها معه فى فندق رخيص بالمنشية • وخرجت معه • كان فيكتور يقف وكأنه « مشرف رحلة سياحية »• عدد كبير من اليهود ، سيذهبون بالطائرة الى قبرص ومنها الى اسرائيل •

وانتهت القصة معه • كأسوأ نهاية • رآها زكى فى الأفلام التى عشقها • تذكر فيلم « لعبة البست » لنجيب الريحانى البطلة « لعبة » سافرت الى لبنان لتصوير مشاهد فيلمها ، وعادت بعد وقت طويل امرأة اخرى ، لا تريد زوجها لكن سارة لم تعد ثانية ولا يستطيع ـ هو ـ أن يراها ثانية •

يحلم ـ أحيانا ـ بمقابلتها . لا فى اسرائيل . يراها فى اى بلد آخر يذهب اليه . قبرص ، ايطاليا ، اليونان لكن الحلم تبدد وضاع عندما علم أنها فى اسرائيل . عاملة نظافة فى فندق . وهو لم يبرح مصر منذ أن سافرت ..

يخاف زكى من ان تحن آمال الى امها . وتلح عليه ان تسافر اليها مثل اللاتى سافرن فسارة مازالت تذكر ابنتها . فترسل اليها بتحياتها . عرف هذا عندما زارته ليلى المغنية فى اذاعة الاسكندرية . جاءت الى الشقة . صاح زكى غاضبا :

ـ ماذا تريدين ؟

فقد كانت هى احدى اللاتى حرضن زوجته على السفر . ضحكت فى برود ، وأزاحت ذراعه التى أرادت منعها من دخول الشقة :

ـ جئت من أجل الدكتورة ، لا من أجلك .

وجاءت آمال بعد أن سمعت صوتها . استقبلتها باسمة ، فهى مغنية معروفة فى الاسكندرية . كما أنها يهودية واليهود فى الاسكندرية ـ الآن ـ قلة ويسهل تعاونهم وتعارفهم .

أحس زكى بالخوف من هذه الزيارة . فقد بدأت رحلة سارة الى اسرائيل بزيارة مثل هذه . كما ان اى حدث يكون فيكتور فيه ، لابد أن يكون فاسدا .

ماذا يريد فيكتور منه .. أيريد أن يفسد ابنته ويرسلها الى اسرائيل كما فعل مع أمها . لذا ، تيقظ زكى . واصاخ السمع الى ما يدور من حديث :

ـ أمك تبعث اليك بتحياتها وأشواقها .

ـ هل زرتها فى اسرائيل ؟

ارتبكت ليلى ثم قالت :

ــ لا • لم ازر اسرائيل • لكنني قابلت بعض القادمين منها • أنت تعلمين أن عملى كمغنية يسمح لى بمقابلة الكثيرين • ومن دول عديدة •

ــ وكيف حالهـا ؟

ــ سعيدة فى اسرائيل • هـكذا قال لى من رآها وقابلهـا وتحدث معها •

خاف زكى من أن تضعف البنت • وتتبع أمها خاصـة انهم فى اسرائيل يلحون فى طلب المتعلمين : أطباء مهندسـين •• الخ • أمها تعمل عاملة نظافة فى فندق • لكن آمال ستعمل طبيبة ، الوظيفة مضمونة •• لذا ، جاء زكى اليهما جلس قريبا منهما حتى لا تكمل ليلى المخطط الذى جاءت من أجله ، ويفسد عليها عملها وعمـل فيكتور الذى أرسلها •

* * *

بقى زكى وحده فى الشقة ••

يتقابل زكى مع فيكتور أحيانا • لمحه منذ ايام يسير على رصيف الشارع المؤدى الى شارع التتويج من ناحية البحر • وكان زكى آتيا من اول الشـارع • تمنى زكى لو توقف فيـكتور عن المسير • ليمسك به ويهزه من كتفه ويسأله عن سبب كرهه له طوال هذه المدة • انهما يهوديان مثل بعض • وكانا فقيرين مثل بعض • كل منهما يعمل مع يهودى ثرى من أعيان الاسكندرية • والمفروض ان تجمعهما هذه الأسباب ، لا أن تفرق بينهما وتبعدهما • لكن فيكتور تهدم الآن • ساقاه القصيرتان تعجزان عن حمل جسده

المترهل المتكور . وكاد زكى يسمع صوت تنفسه غير المتناسق وهو سائر .

ماذا يريد فيكتور من اسرائيل . هو لاشك سيموت فى مصر . فاسرائيل لا تريد رجلا مثله تعدى السبعين ولا يستطيع حتى ان يقدم طفلا يهوديا صغيرا ، ليكبر ويصير رجلا هناك . سيموت فيكتور دون أن يترك أثرا لا فى مصر ولا فى اسرائيل . فهو لم يتزوج ولم ينجب .

تذكر زكى يوم انتخابات نادى المكابى فى ٩ من أبريل ١٩٤٧ . كان قد استقر ، تزوج من سارة وأنجب منها آمال ابنته . وعمل فى عدد من الأفلام العربية . أدوار صغيرة ، لكن العديد من المخرجين أكدوا له أنه يسير فى الطريق السليم . وأنه من الممكن أن يؤدى أدوارا مميزة فى السينما العربية .

ارسل اليه هانز . قابله فى قهوة اللواء . حكى عن نادى المكابى فى الظاهر . زكى كان عضوا فى الفرع التابع له فى الاسكندرية . القائم فى المنشية . قال هانز :

ـ انهم يريدون سحب اليهود من معركة الصراع الطبقى القائمة فى العالم كله الآن . والتى كان لليهود دور بارز فيها . وذلك بأن يجمعوهم فى مكان واحد يحقق أهداف الاستعمار .

لم يفهم زكى كثيرا مما قاله هانز ، فقد كان معلما وأكثر ثقافة من زكى ، كان يقرأ كتبا كثيرة بثلاث لغات العربية والانجليزية والفرنسية . وكان زكى يحبه ويثق فيه . والشىء الذى فهمه زكى وأدركه ان هانز مصرى مثل أى مصرى آخر مسيحى او مسلم . كان زكى يخرج فى المظاهرات ضد الانجليز . وأعطاه هانز كتابا . قال :

ـ هذا الكتاب سيوضح لك رؤيتى . اقراه يا زكى .

كان اسم الكتاب « المعاداة للسامية والمشـكلة اليهودية » لكاتب انجليزى اسمه « ريناب » . لم يكن زكى ميالا للقراءة . خاصة الكتب الكبيرة مثل هـذا الكتـاب . ووقتها لم يتحمس لأخذه من هانز . وبعد أن خجل من اعادتـه اليه . أيقن أنه لن يفتحه . سيتركه عنده لعدة أيام ثم يعيده مدعيا أنه قرأه .

الغريب انه قرأه . وظل يقرأ فيه حتى أتمه وسط دهشـة آسيا . قالت وقتها :

ـ أول مرة أراك منكبا على قراءة كتاب بهذه الطريقة .

بعد ان أتمه . فهم زكى لمـاذا يهتم أمثال كليان شيكوريل وموريس منشة وغيرهما من أغنيـاء اليهود فى مصر باقامة دولة لليهود فى فلسطين . المشكلة ليس لها صلة بالدين . بل هى مصالح مع شركات عالمية تريد مجموعة قادرة على تنفيذ مخططاتها فى هذه المنطقة الحيوية والهامة . والا لمـاذا لم يذهب هؤلاء الأغنياء الى فلسطين كما حرضـوا غيرهم على الذهاب باسم الدين ؟ .

قابل زكى هانز فى اليوم السابق لانتخابات نادى المكابى . وكان زكى أكثر حماسا لأن يقف ضـد هؤلاء . لكن ـ للأسف ـ لم يفلح هانز ولا زكى ولا من معهما من الوقوف أمام ذلك التيار . فالآخرون كانوا أكثر مالا . والمـال يأتى بالرجال الكثيرين . كل ثرى يهودى لديه رجاله الذين يحيطون به . ويصيحون باسمه .

فيكتور وقتها كان يعمل مساعدا لموريس منشة . وكان أكثر حماسة من الآخرين فى القضـاء على المعارضين لسفر اليهود الى فلسـطين .

- ١٢ -

أنهى عبد الله العمليـات الموكلة اليه حوالى الثانيـة عشرة ظهرا . ساعات طويلة أمامه . يمكنه أن يذهب الى السفينة فى الخامسة مساء . قبل نوبة حراسته بنصف ساعة تقريبا .

سار فى شارع راس التين ، يستطيع ان يذهب الى بيت أحمد الدسوقى القريب من بيته . نعم . لن يغير ملابسه . سيذهب اليه كما هو ببدلته العسكرية . لكن صابرين ــ خطيبته ــ التى رمت الدبلة له ، ماذا سيفعل معها . من الممكن ان تقابله فى فتور أو ربما فى عصبية . ليس مهما ــ المهم أن يقابل أحمد صديقه القديم .

أسرع الى شارع السيالة . من هناك سيذهب الى بيت الحاج الدسوقى القريب من مسجد سيدى محمد كظمان . كثيرا ما سار فى ذلك الطريق ــ من بيته فى السيالة الى بيت أحمد . استذكرا دروسهما معا . كان أحمد هو الأشطر . اشطر من كل الذين استذكروا معه : عبد الله ويوسف وغيرهمـا .. كانت آمال

ابنة عم يوسف تأتى احيانا لسؤال أحمد فى بعض المسائل الرياضية التى كان أحمد متميزا فيها .

من خبرة عبد الله الطويلة فى عالم البنات والنساء ـ خاصة ـ أدرك أن البنت آمال تحب أحمد . وعاشقة له . كان يتابعها وهى تنصت الى شرح أحمد ناظرة اليه فى خشوع وابتهال . حتى يده كانت تتابعها وهى تتحرك فوق الكتاب أو الدفتر . تنحنى بشفتيها كأنها تريد أن تقبلها أمام كل الجالسين .

وكانت صابرين صغيرة تبتسم اذا ما فتحت الباب لصديق من أصدقاء أخيها . وتجرى منادية له .

أحب عبد الله هذه الأسرة الطيبة ، خاصة أنه كان مفتقدا ذلك . كان الولد الوحيد على أربع بنات . دللته أمه وعودته على تلبية كل طلباته . تخدمه الأم وبناتها الأربع فقد كان هو أصغرهم جميعا .

لكن عندما جاء اول خاطب . وطلب البنت الكبيرة تحول الاهتمام اليه . كل ما كانت تخفيه الأم لعبد الله قبل أن يأتى الخاطب الجديد ـ صار له الآن ـ تأثر عبد الله وابتعد عنهم بالالتحاق بالبحرية . فضل أن ينام بعيدا عنهن . ماتت الأم . وتزوجت البنات واحدة تلو الأخرى . ثم عادوه هن وأزواجهن . طالبوا بنصيبهن فى الفيللا والحديقة . قالت أكبرهن ـ وهى أكثرهن تأثرا بأقوال وأوامر زوجها :

ـ الفيللا كبيرة جدا . وحولها أرض فضاء وحديقة يمكن ان تدر مبلغا كبيرا .

وأكملت الأخرى :

ـ وتسكن انت شقة صغيرة على قدرك .

.. لكن عبد الله أصر ان تبقى الفيللا كما هى . يكفى ما حدث لأرض المدفن القديم . ضاعت بين فتوى نابليون بعدم دفن الموتى فى البيوت وحولهـا . وحرب الانجلـيز مع الألمـان التى جعلتهم يتخذونها معسكرا ثم مخبئا . وبين بلدية الاسكندرية التى اعتبرت نفسها الوارث الشرعى لأملاك الانجليز بعد خروجهم من مصر . حتى لو كانت هذه الأملاك مسروقة من الغير .

يعيش عبد الله وحده فى الفيللا الكبيرة . لا خادم ولا جناينى كما كان من قبل . يحلم عبد الله بأن يعيد مجد أسرته . أن يردم سور الحديقة المتآكل . ويزرعها ، ويصون المبانى من الهدم .

مازال يحلم بهذا رغم أنه لا يفعل شـيئا . ولو قليـلا فى تحقيق حلمه .

كانت ام احمد تجمع أصـدقاء ابنها الوحيد احمد حولها ، وكأنهم كلهم اولادها . تعرف ــ هى ــ الأكلات المفضلة لدى كل واحد منهم . فتطبخها له . وتدعو الجميع كى يشاركوه اكلها . ويجلس ذلك الصـديق ، وكأنهم يحتفلون بعيد ميلاده ، أو نجاحه . أو باى مناسبة خاصة به .

يحب عبد الله كل افراد الأسرة . الرجل الطيب الحـاج الدسوقى وزوجته الحاجة فاطمة ــ رحمها الله ــ وأحمد وصابرين .

عندما قرر فجأة ان يخطب صابرين . كان واضعا فى اعتباره باقى الأسرة ، ورغبته فى أن يصـاهرهم وينتسب اليهم .. لكن بعد الخطوبة احس أنه فى حاجة الى شىء آخر غير صابرين المبتسمة دائما والهادئة . ذات الصـوت والوجه الطفولى الهادىء . احس انه فى حاجة الى امرأة شهوانيـة لعوب .. وقابلته ليلى المغنية .

لا يدرى كيف تم النعارف لم تقابله فى الكازينو اول ما قابلته . ولا قابلها صـدفة فى قطار أو ترام . لا . قابلته كثيرا فى طريقها الى الكازينو وهو فى طريقه الى بيته . أو وهو خارج من البيت ببذلته العسكرية فى طريقه الى عمله . ابتسمت له عدة مرات. ومرة توقفت تماما وصافحته :

ـ تعـرفنى ؟

ـ من لا يعرف المغنية ليلى المشهورة ؟

دعته لمقابلتها فى المساء بالكازينو . وذهب اليها . كان الكل يهتم به . فريدة وباقى البنـات وفيكتور صاحب الكازينو . حتى الولدين الأبلهين بوللى ولالى . وكأن فيكتور قد أوصاها بالاهتمام به . واعتباره ضيف شرف الكازينو فى هذه الليلة .

اقترب عبد الله من البيت . منذ شهور لم يأت الى هنـا . منذ ان وضعت صابرين الدبلة فى يده غاضبة ..

مازال البيت كما هو . كبير ومرتفع . وطلاؤه تساقط وظهر الطوب الأبيض والأحمر . والدكان ذو البابين الكبيرين وصاحبه النجار يعمل خارجه فى الهواء الطلق . تاركا الدكان الواسـع دون شيء . وبعد أن ينهى عمله يدخل الخشب والعدة الى الداخل . رفع النجار يده محييا :

ـ اهلا الصول عبد الله ، وشك ولا القمر .

أحس ـ هو ـ برعشة فى جسده . يبدو جريئا ـ واحيانا وقحا ـ مع النساء . لكن هو فى حقيقته شديد الخجل احتـك حذاؤه الثقيل بدرجات السلم المتسخة والقديمة والمتآكلة . المفروض ان يغير الحـاج الدســوقى المزايكو ، يسـتدعى مقـاول لتغيير « تلبيسات » الدرجات بأخرى واكثر نعومة .

ضغط على الجرس . عندما تنعطف نحو الشـقة يواجهـك الظلام حتى فى عز الظهر . فتحت صابرين الباب . لأول وهلة لم تتأكد من وجه القادم . مدت يدها واضاءت لمبة السلم . صاحت مندهشـة :

ـ عبد الله ؟

ـ ازيك يا صابرين ؟

أسرعت الى الداخل وتركته واقفا . سار خلفها ، رآها تنظر وراءها بأنوثة واضحة وهيام. واضح . البنت لم تبد له هـذا من قبل . يعرف هو الطريق . حجرة الصـالون التى لايمـكن ان تتغير . فأى حجرة اخرى فى الشقة لا تصلح لأن تكون صـالونا غيرها . فهى كبيرة جدا . وزوار الحاج ـ بصفته شيخ للصيادين ـ كثيرون للغاية ولا تكفيهم حجرة أخرى غير هذه .

جلس فوق مقعده دون قول . وضع الأوراق الرسمية التى عاد بها من مأموريته فوق المقعد المجاور . ثم خاف من أن ينساها. فأمسكها فى يده ثانية . جاء احمد مسرعا . كان فى بيجامته :

ـ عبد الله . حبيبى وأخى .

تابعت صابرين اللقاء الحار فى سعادة واعجاب . حضـور أحمد الى البيت سيجعل عبد الله يأتى كثيرا وسيبتعد بالتـالى عن كازينو اليهودى . ونسائه الساقطات المعروفات فى الحى .

ـ اننى فى شوق شديد اليك . لكن حالة الطوارىء جعلتنى اتأخر فى مقابلتك .

ثم ضرب على ساقه قائلا :

ـ لكن حالة الطوارىء ستنتهى قريبا وسنتقابل كل ليـلة كما كنا من قبل ٠

ـ اراك واثقا من أن حالة الحرب ستنتهى قريبا ٠

ـ طبعا ٠ فهى كثيرا ما تشتد وتتصاعد ٠ ثم فجأة تنتشى ٠ وكأنها بلونة يلعب الأطفال بها ٠

ـ لا ٠ لا ٠ هذه المرة الأمر مختلف ٠ ليست بالونة فى يد الأطفال ٠ وانما قنبلة موقوتة ٠ ومحدد زمن انفجارها ٠

نظر عبد الله الى الشقة حوله فى ارتباك ٠ أكيد صابرين قالت لأخيها عما حدث ٠ وقالت لوالدها الحـاج الدسـوقى أيضـا ٠ واكيد الحاج غاضب منه ٠ والا جاء لمقابلته والتحدث معه ٠ كما حدث من قبل ٠

ـ أفطرت ؟

ـ نعـم ٠

ـ سنتناول القهوة فى الفراندة ٠ كما كنـا نفعل قبل أن أسـافر ٠

حمل عبد الله أوراقه الرسمية ٠ وسار خلفه خجلا ٠ وصابرين تتابعهما سعيدة وممتنة ٠

بعد أن جلس أحمد ٠ ووضع ذراعه على سـياج الفرانـدة صـاح :

اشتقت لأن أجلس هكذا وانت بالذات معى ٠

أى عبد الله جزءا من أرض المدفن القديم أمامه ٠ وحافظـة تسير بملابسها المتسخة دائما متحدية الجميع ٠

ـ وأنا أيضـا . اشتقت اليك . ظننت أن نساء المـانيا أنستك كل شيء .

ـ دعك من نساء المـانيا وحدثني عن الحرب .

ـ اراك مهتما بمســألة الحرب أكثر من أى شيء آخر .

ـ لا أجد من أتحدث معه فى هذا . الأمور فى المـانيا أكثر وضوحا . هنا العاطفة والانفعال والمبالغة تفسد كل شيء . وتصنع دخانا كثيفا يحجب الرؤية .

ـ ما الذى يقلقك ؟

ـ كان جونسون فى مجلس الشيوخ الأمريكى أيام حرب ٥٦ . وكان من أهم المتشددين لصالح اسرائيل . وها هو .

ـ لسوء الحظ ـ يصبح رئيســا لأمريكا . أذلك لا يوحى بشيء .

ـ الرئيس عبد الناصر يعرف هذا . وما يقولونه فى المـانيا أو يكتبونه يصل الى علمه .

ـ الظواهر تؤكد عـكس ذلك . صحفى أمريـكى أسـمه جيمس ستون زار مصر أخيرا ، قبل أن أعود من المـانيا بيومين كتب فى جريدته « القاهرة لا تريد الحرب » وعلى كل ما يبدو فهى غير مستعدة للحرب . لكنهـا اقرت بالفعل بامكانيـة السيطرة على الموقف . يبدو أن حكومة ناصر تعد وتصنع الأزمات دون أن تجهز نفسها لنتائجها . خاصـة أن ميناء القاهرة الجوى عارى تماما أمام اية هجمـات توجه اليه . انهم لا يفعلون شيئا للدفـاع عمـا يمتلكون .

أحس عبد الله وكأنه يقابل أحمد الدسوقى لأول مرة . لقد بدا أكبر من سنه بكثير .

ـ مالك يا عبد الله أرجو الا يؤثر موضـوعك مع صابرين فى علاقتنا معا .

ـ طبعا . طبعا . اننا اخوة منذ أن كنا أطفالا .

اقتربت صابرين بصينية فوقها فنجانى قهوة . وضعتهما فوق سياج الفراندة . وذهبت وهى تتابع عبد الله فى ابتسامة معتذرة . تعلنه أنها على استعداد أن تعيد ما كان بينهما . وعبد الله شارد ومرتبـك .

ـ أحمد . اننى قلق مثلك . والمفروض ألا أتحدث فى هـذه الأمور . لكنك أخى وحبيبى وموضع ثقتى .

ـ اعلم يا عبد الله . اعلم .

ـ أننى مندهش مثلك مما يحدث . ففى اذاعة صوت العرب أذاعوا ما يأتى : ياعرب . هذه تفاصيل كاملة ودقيقة لقوة اسرائيل العسكرية ، تم الحصـول عليها من مصـادر تعلم تماما الحقيقـة فى اسرائيل . ان اسرائيل لديها عدد من دبابات شيرمان القديمـة التى تم اصلاحها لكى تلائم ماكينـات الديزل والمدافـع الفرنسية عيار ١٠٥ ملليمتر .. وتستطيع اسرائيل وقت الحرب أن تعبىء خلال ثمان واربعين ساعة ٢٥٠ الف جندى للقيام بواجبات الحراسة فى الداخل . لكنهم لم يستطيعوا الاشتراك فى المعارك التى تتدخل فيها الجيوش النظامية .

صاح أحمد غاضبا :

ـ هذا كلام عارى تماما من الصحية . الصحف الأمريكيـة

والغربية كلها تؤكد أن التفوق العسكرى لصالح اسرائيل خاصة فى مجال الطيران •

قال عبد الله فى اسى :

ـ الأسوأ من هذا ان تنشر مجلة القوات المسلحة الموجهة للجنود والضباط والمفروض ان تكون أكثر تخصصا • انظر ماذا كتبوا : ان اليهودى بروحه وشخصيته لا يملك صفات الرجل الذى يحمل السلاح • انه بطبيعته غير مستعد للتضحية بحياته فى سبيل اى شىء • حتى اذا كان هذا الشىء ابنه أو زوجته • فاذا كان هناك اليوم رجل فى اسرائيل يحمل السلاح فانه يفعل ذلك لأنه يعلم أن هناك رجلا آخر سيسبقه ويقف أمامه • وليس خلفه للدفاع عنه عندما يحين الوقت •

صاح أحمد :

ـ سذاجة • سذاجة متناهية •

صمتا للحظات • رشفا وقتها القهوة وتابعا النجار فى أسفل وهو يسب صبيه بأقذع السباب • ويحاول ضرب الولد الأصغر بعصا طويلة فى يده • قال احمد الدسوقى :

ـ خطأ يا عبد الله • ان تعلم كل هذا وتصمت •

ـ الأمر والأدهى • يا صديقى • ان الدولة قررت هذا العام ان تقتصد فى مصروفات الجيش ـ وادى هذا الى تأجيل عمل الدشم التى تحمى الطائرات • وأن توفر فى عمليات التدريب لكافة أسلحة الجيش •

صمت عبد الله ثم صاح :

ـ الأمر كله أؤكد لك ان عبد الناصر يناور • ولن يسمح لجيشه أن يخوض حربا هو الخاسر فيها لاشك •

ـ الأمر أبعد من ذلك بكثير • جونسـون يريد أن يعـاقب عبد الناصر لهجومه واستخفافه بامريكا • والتقارير معروفة للعالم كله • وتذكر في كل مكان فيما عدا مصر • وهو أن حل مشـكلة عبد الناصر اما اغتياله او أن تنتصر عليه اسرائيل انتصـارا ساحقا يقضي عليـه •

. . . .

كانت صابرين تقترب منهما متظاهرة بحمل شيء لتسمع بعضا مما يقولان • فربما يتحدث أحمد في موضوع الدبلة التي خابت ، فخانتها أعصـابها ودستها في كفه غاضبة • قد يتناقشان في ذلك • ويعود عبد الله اليها ثانية • لكن في كل مرة تجد انهما يتحدثان في السياسة والحرب • قال عبد الله :

ـ الصول رمضان • أتذكره ؟

ـ نعم أذكره ـ انني لم أنس فردا من معارفي وأصـدقائي القـدامى •

ـ يقول رمضان انك ـ للآن ـ لم تنزل الى القهوة لمقـابلة الرجال والجلوس معهم •

ـ أريد أن افعل يا عبد الله • لكن موضوع الحرب قد يفرض نفسه في الجلسات • وأنت تعرف أنهم يسألون في السياسة •

ـ لا تقل آرائك هذه أمامهم • حاول أن تتماسـك • ومن رايي أن تنتظر للغد • سأنزل معك • فأنا الليلة عندي نوبة حراسة• وسنسهر معا •

ـ في كازينو كازابلانكا ؟

فهم ما يقصـده أحمد من حديثـه • وتظاهر بعدم الفهم • قـال :

ـ لا • سنقابل الناس • سنجلس فى كل قهــاوى بحرى • وسادعوك الى اكلة كابوريا فى شارع الحجازى • ماذا ترى ؟

قبل ان يجيب احمد • دق جرس الباب • فصمتا ليعرفا من القــادم •

جاءت صابرين صائحة :

ـ دكتور يوسف والدكتورة آمال •

أسرع احمد لاستقبالهما •

* * *

- ١٣ -

كان يوسف وآمال يقفان فى مدخل الشقة • لم تقل صابرين لهما ان عبد الله فى الداخل مع احمد • ظنوه مع صديق آخر لا يعرفانه •

اسرع أحمد اليهما :

ـ يوسف • ما الذى يجعلك تقف هكذا ؟

وعندما واجهة وجه آمال الصغير صاح :

ـ آمال أهلا بك •

اقترب منها ، وضع يدها الصغيرة بين أصابعه ، أحست بألم لذيذ فى اصابعها • طالت وقفتهما • تمنت لو شدها اليه • ضمها لصدره وقبلها • ربما أن وجود يوسف منع حدوث ذلك • سنوات اربع وبضع شهور وعدة أيام • تذكرها آمال جيدا بالساعة والدقيقة والثانية • فى آخر ليلة له فى الاسكندرية ، سهرت معه كان يوسف موجودا • وكان عبد الله وعدد آخر من الأصدقاء ـ زملاء

الدراسة ـ واصدقاء الحي موجودين ايضا . أنشغل هؤلاء بالحياة . وبعضهم هجر الحي وسكن أحياء أخرى غير حي بحرى . ولم تعد آمال تراه .

ليلتها بكت آمال وهي تودعه . كان يوسف يتابعها فى اسى . وسار معها حتى وصلا بيتهما . كانت منهارة . هى لعبة غريبة . كلما ازدادت هى فى حب أحمد ، ازداد يوسف الما وعذابا وحبا لها .

ساعدها يوسف لكى تصعد درجات السلم . وعندما وصلا شقتها أراد أن يقبلها . أن يمسح دموعها التى انثالت فوق خديها الشاحبين . أراد يوسف أن يستغل لحظة ضعفها وانهيارها . لكن آمال ابتعدت عنه . ارتمت فى أحضان أبيها زكى داود . لا يدرى يوسف ماذا قالت له لتبرر سبب حزنها وبكائها . أستقول انها تحب شابا مسلما لا أمل لها فى الاقتران به .

ليلتها نام يوسف قلقا . حلم بأحمد وآمال . مرة وهما معا فى الكوشة هى ببدلة الفرح أحمد يرفع الغطاء عن وجهها ويحمل النظارة عن عينيها ويقبلها . ومرة ثانية يراها ممسكة فى يده . يواجهان قطارا آتيا من بعيد نحوهما وهما يصرخان فى فزع .

ليلتها ارقته الأحلام . كلما نام قام فزعا . بسبب حلم فيه آمال وأحمد الدسوقى .



قال احمد لها :

ـ تفضلا . ليس فى البيت غريب . ستفرحان عندما تريان ضيفى . لا .. لن اخبركما به الآن . ستريانه بأنفسكما .

سأرا خلفه · وقف عبد الله منتظرا مقابلتهما :

ـ أهلا دكتور يوسف · أهلا دكتورة آمال ·

صافحاه · وأسرع أحمد باحضـــار مقعدين آخرين · جلســـا في الداخل في مواجهة عبد الله · وأحمد جلس داخل الحجرة متجها اليهم ·

أراد يوسف أن ينهى المشكلة المعلقة · ويواجه الجمل بالجمال (كما يقولون) فتعود آمال وقد برأت من ذلك المرض وتلك الحيرة التى تطاردها منذ أن سافر أحمد · لا · بل من قبل أن يسافر · قال يوسف :

ـ لم أعد أراك يا كابتن عبد الله · آخر مرة رأيتك فيها كنت في كازينو كازابلانكا ·

ينظر عبد الله الى داخل الشقة · حمد الله لأن صابرين بعيدة ولم تسمع قوله · والا ازدادت كرها لعبد الله ، واصرت على موقفها الذى يراه هو الآن قد تغير لصالحه ·

تابعت آمال وجه أحمد باهتمام بالغ · لقد تغير كثيرا · فقد بعض رونقه وحيويته · قالت :

ـ مالك يا أحمد · وجهــك شاحب وكأن أربع السنوات أربعون عاما ·

أكمــل يوســف :

ـ لم تكن هــكذا عندما عدت بك بالســيارة · هل انت مريض ؟

قال عبد الله :

ـ ربما تغير الجو أثر عليه ·

قال أحمد فى أسى :

ــ ربمـــا .

قــالت آمــال :

ــ احك لى ما حدث لك فى المــانيا .

أحس يوسف بالانشراح . فها هى اللحظة التى ينتظرها . ان يحكى عن فتاة المــانية أحبها . واشتد به الوجد والشــوق حين فارقها . وها هو وجهه يشحب ويذبل من فرط شــوقه اليها ولهفته عليهــا .

اقتربت صابرين بأكواب الشراب . قال أحمد :

ــ تشربون الشاى الآن . وسنتناول الغداء بعد قليل .

قال عبد الله :

ــ آسف مضطر أن أستأذن الآن . فوقتى محدود للغاية .

قــال يوســف :

ــ بسبب الحرب ؟

ــ نعــــم .

قــال أحمــد :

ــ سأجعل صابرين تعد لك الطعام الذى تحبه . لا تخف فهى تعده بالكفاءة نفسها التى كانت تعده امى بها .

قال يوسف لعبد الله وقد اقترب من أذنه :

ــ اظنكم مشغولون هذه الأيام ؟

ـ لاشـك •

قالت آمال التى ودت لو ذهب عبد الله وتبعه يوسف ويتركانها لأحمد • تشكو له احساسها وقلقها عليه :

ـ دعونا من حديث الحرب هذا • فنحن نواجهه طوال الوقت : فى صحف الصباح والمساء وفى الاذاعة والتليفزيون حدثنا يا أحمد عن ألمـانيا : جمالها وجمال بناتها •

اقتربت صابرين منهم • نظرت الى عبد الله وأشـارت اليه بأصابعها فى دلال • نظر حوله مرتبكا • لقد رآها عبد الله صغيرة عندما كان يستذكر دروسـه مع اخيها • ورآها مئـات المرات بعد ذلك • لكن لم يجدها فى هذا الجمال أبدا • لا يدرى اين كانت تخفى هذه الخفة • قال وهو فى غاية الخجل :

ـ عن أذنـكم •

وسار اليها • جلس أحمد مكانه ـ داخل الفراندة • أصبح مواجها تماما لآمال • قالت فى صوت هامس :

ـ كل يوم انتظر حضورك الى المستشفى لكى تسأل عنى •

ـ مشغول يا آمـال •

ـ بأى شىء ؟

قـال يوسـف :

ـ اكيد البيرقراطيون فى الجامعـة غلبوك • طلبوا منك لبن العصـفور •

ـ أنا لم أذهب الى هنـاك • وورقى مازال فى حقيبتى كما هـو •

قالت آمال فى عتاب :

ــ لمـاذا يا أحمد ؟

ــ جئت فى وقت غير مناسب • الدولة كلها تستعد للحرب •

ــ مالك انت ومال البلد • أنت طبيب ولست سياسيا •

مدت آمال يدها • وضعتها فوق سياج الفراندة قريبـا من ذراعه المثنية • لمست بأصابعها أصابعه دون ان يلمحها يوسف • فارتعد أحمد • وأبعد يده كأنه لدغ بثعبـان • قـالت صـابرين لعبد الله :

ــ أتريد أن تمشى قبل أن تتناول الغداء معنا ؟

ــ اقصد • أنا مشغول •

ــ لو مشيت سأغضب منك •

ــ والدبلة ؟ !

ــ لقد أخطأت عندما رددتها لك • آسفة • اضطررت لذلك • ذهابك لكازينو اليهودى أشعل النار فى قلبى وجسـدى •

ــ أنت خطيبتى • وانا احبك •

قالت وهى سعيدة :

ــ اذهب اليهم فى الفراندة • لكى انتهى من اعداد الطعام •

ــ هل يمكن أن تلبسى الدبلة ثانية •

ــ هل هى معك الآن ؟

اومأ برأسه • واخرجها من جيب بنطلونه الصغير • بينمـا

مدت هى أصابعهـا خجلـى . كأنه « يلبسهـا » لها فى حفـل الخطوبـة .

عاد عبد الله اليهم . كان فرحا ومرتاح البال لمواصلة العلاقة بينه وبين صـابرين . يحس الآن انه أحد أفراد أسرة الحـاج الدسوقى . لذا ، جلس مكان أحمد . قريبـا من أهل البيت . فلو جاءت صابرين بالأكواب مثلا . سيحملها عنها ويقدمهـا لهم . كأنهم فى بيته هو .

أنحنى يوسف وهمس فى أذن عبد الله :

ـ أريد ان اتحدث معك فى بعض الأمور .

ـ ايـة أمـور ؟

ـ مسألة الحرب التى لا نعرف لها معنى .

ـ أننى مجرد ضابط صغير فى البحرية ولست سياسيا .

* * *

عاد يوسف مع آمال . الوضع معلق كما هو . مازالت آمال تحبه ومتعلقة به . وربما اللقاء أشعل نار الوجد فى قلبها .. هبط يوسف درجات السلم . وعبد الله الذى كان فى عجلة من أمره . مازال يجلس مع أحمد فى الفراندة يتحدثان .

* * *

ذهب أحمد الدسوقى الى مدرسة الأنفوشى الابتدائية .

لديه احسـاس أنه نسى الطب الذى درسـه سبع سـنوات كاملة فى مصر وأربع أخرى فى ألمـانيا . وكان طوال السنوات كلها من أوائل الدفعة . والمتميزين فيها .

لديه احساس أنه لو أجرى الكشف على مريض لن يعرف ما فيه . لذا ، فهو يؤجل تقديم أوراقه الى الجامعة . كما هو متبع ـ من يوم لآخر ـ سأل الفراش الجالس على مقعده فى الخارج :

ـ الأستاذة عواطف الاخصائية الاجتماعية .

ظنه الفراش والد تلميذ جاء لمقابلة الاخصائية فى مشكلة . كما يحدث طوال النهار . أشار الفراش الى الداخل سار أحمد الى حجرة قريبة من سلم المدرسة . كانت عواطف تجلس أمام مكتبها ، وزميلة تجلس أمام مكتب آخر . وأخرى ـ واضح أنها من خارج الحجرة ـ تتحدث معهما . عندما رأته عواطف أمامها وقفت من شدة المفاجأة :

ـ دكتور أحمد .

بدا مرتبكا ، وكأنه يقف أمامها لينال عقابه عن فعل أتاه . توقفت الزميلتان عن الحديث . تابعا ما يحدث فأحسا أن فى الأمر شيئا . وأن ذلك ليس مجرد والد ـ أو ولى أمر ـ جاء من أجل تلميذ أو تلميذة .

فالزميلتان لم تريا عواطف هكذا ـ أبدا . يعرفانها منذ سنوات ـ جادة ولا تخجل من مواجهة الحق . وتستطيع أن تقف للرجال الذين يأتون غاضبين ـ أحيانا ـ من أجل أولادهم . فتوقفهم عند حدهم اذا لزم الأمر .

زميلتها ـ بدرية ـ تعمل اخصائية اجتماعية مثلها . ترافقها فى هذه الحجرة منذ ثلاث سنوات . تشهد لها بالقدرة على مواجهة الأمور الصعبة .

يأتى أحيانا ولى أمر تلميذ من أجل أمر ما • فينور ويصيح • ترتبك بدرية وتبكى أحيانا • لكن عواطف • عمرها ما بكت من شىء مثل هـذا • بل تثور وتواجه ذلك الذى تعدى حدوده • وتعامله بالند •

لكنها مع هذا الشاب هى مهمومة ، وفرحة وعايلة الهم •

قال أحمد بعد أن طال صمت عواطف أمامه :

ـ جئت اليك باسماء الصيادين الذين غرقوا فى النوات خلال ••••

فهمت بدرية ما يحدث • فهذا الشاب له صلة بموضوع الصيادين الذين تذهب عواطف اليهم متطوعة • وبدون أن تكلفها المدرسة بذلك لتبحث حالتهم • وتتحدث عن مشاكلهم طوال الوقت • وكثيرا ما نصحتها بدرية ألا تهتم بأشياء بعيدة عن عملها • وانها ـ بدرية ـ تنسى المدرسة ومشاكلها فور خروجها من باب المدرسة الرئيسى لكن يبدو أن الموضوع ليس مجرد صيادين ـ كما تدعى عواطف ـ الموضوع عاطفى لاشك •

قالت بدرية مسرعة :

ـ تفضل استرح يا أستاذ •

أفاقت عواطف • فقالت فى هيام شديد :

ـ اتفضل ارتاح يا دكتور أحمد •

ـ الحجرة صغيرة للغاية • ليس بها كرسى زائد غير الذى تجلس فوقه الضيفة • هى مدرسة جاءت لتتحدث فى امور الدنيا : عن أولادها وشقاوتهم • وعن زوجها وعناده معها • عندما رأت ما يحدث أمامها وقفت وتركت مقعدها للأحق ـ الآن ـ قالت :

ـ تفضل يا دكتور • استرح •

تركت له المقعد وخرجت الى المدرسة لتعلن اليهم ما حـدث وما رأته بعينيها • ولم يحـكه لها أحد • لكى يبدين آراءهن • ويقلن لها ان كانت عواطف تحب أم لا •

وقفت بدرية هى الأخرى قالت :

ـ سأطلب للدكتور حاجة ساقعة •

خرجت لكى تلحق بالزميلة التى رات ما حدث وسبقتها فى الخروج • لحقت بها قبل أن تكمل صعود السلم • سألتها :

ـ ما رأيك فيما حدث ؟

ـ ان لم تكن عواطف مخطوبة لظننته سيخطبها •

* * *

قـال أحمـد :

ـ جمعت لك هذه الاسماء من سجلات جمعية الصيادين •

ـ شكرا لك يا دكتور • سأبحث حالاتهم • أسرة أسرة •

ـ آسف لأننى اقتحمت عليك مكان عملك •

ـ لا • اننى سعيدة بحضـورك • المهم • لقد تحدثت مع والدى عنك وهو يريد مقابلتك •

ـ حقـا ؟ !

ـ ليتك تأتى الليلة • أبى شخصية ظريفة • وستحبه من اول لقاء •

دخل فراش المدرســة بزجاجة مرطبات · وضعها امامه . قالت عواطف :

ـ لم تقدم أوراقك للجامعة ؟

ـ لا تهتمى بهذا الموضوع ·

ـ سأذهب معك فى الغد · رجلى على رجلك ·

ـ لكننى لا أرغب فى تقديمها الآن · سأنتظر حتى أعرف مصير الحرب ·

صــاحت فيه :

ـ هل لديك رغبة فى أن تعود ثانية الى ألمــانيا · لتعمل هنــاك ؟

ـ صدقينى · لم أعمل ســوى فى بلدى · المشــكلة هى الحــرب ·

ـ الحرب ليست مشكلتك الحرب لها ناسها ·

ـ بل هى مسئولية الشعب كله ·

ـ أرجوك لا تعط لهذا الأمر كل اهتمامك هكذا ·

ـ أحاول يا عواطف · أحــاول ان أكون عاديا · لكننى عجــزت ·

ـ لابد من حضورك فى المســاء · لنتحدث مع أبى فى ذلك الموضوع · أبى لم يحصل على شهادات لكنه يفهم جيدا فى أمور الحيــاة ·

ـ ســأحضر ·

- ١٤ -

ارتدى احمد بذلته التى أحضرها من ألمـانيا . ووقف أمام المرآة للحظات . قال لصابرين :

ـ ما رأيـك ؟

ـ انها افضل بدلة عندك .

كان والده يرشف القهوة فى دهشة . قال :

ـ اول مرة ترتدى بدلة كاملة منذ أن عدت من المـانيا .

ـ سـأقابل ....

وتوقف عن القول . قالت صابرين :

ـ عواطف اليس كذلك ؟

ـ نعم . سأقابلها فى بيتها .

ربط الحاج الدسوقى بين اهتمام ابنه بملابسه هكذا . وبين زيارته للبنت فى بيتها فصاح :

ـ لكنها مخطوبة يابنى ؟

ـ وما شأني بخطبتها ؟

أيقن الرجل أن فى الأمر شيئا غير واضح • فأراح نفسه من عناء التفكير وعاد الى قهوته • أراد أحمد أن يسأل عن رابطة العنق التى تناسب البدلة • لكن سـؤال والده ـ جعله لا يسأل • واكتفى باختيار الملابس بنفسه رغم أن البنت صابرين مشهودا لها بحسن الاختيار والذوق فى تناسق ألوان الملابس •

شم الحاج رائحة العطر التى فاحت من ابنه فجأة • كان العطر واضحا وقوى التأثير • قال الرجل لنفسه :

ـ أحمد منذ أن عاد من ألمانيا وهو غير طبيعى • ليس هو ابنه أحمد الهادىء العاقل الرزين ثم ردد لنفسه •

ـ فتاة مخطوبة • ما له بها ؟ !

خرج أحمد الى الشارع • قابله بعض الصيادين ممن يعملون مع والده • رحبوا به والتفوا حوله • صافحهم وقبلهم واعتذر عن الجلوس معهم لأن وراءه مشوارا مهما وعاجلا •

واستقل تاكسيا الى سيدى بشر • على الكورنيش •

* * *

كانت عواطف سعيدة • الدنيا مش سايعاها •• حضور الدكتور أحمد اليها فى المدرسة يعنى انه يهتم بها ويفكر فيها هذا ما قالته لها بدرية زميلتها وشريكتها فى الحجرة • قالت :

ـ وقفتكما أمام بعضكما • تدل على أن هناك شيئا بينكما •

لم تجبها عواطف فالمدرسة كلها تعرف أنها مخطوبة لابن عمتها • ومعظمهن حضرن حفل الخطوبة ، وشاهدن ابراهيم

فهيم ـ عريسها ـ وهو « يلبسها » الشبكة والدبلة · فماذا سيقلن الآن « تترك خطيبها وتحب رجلا آخر » ·

والدها ـ هو الآخر ـ شك فى الأمر · يعرف أن ابنته لا تحب ابراهيم ابن اخته · وهى ـ ان أردت الحق ـ محقة فى ذلك · فالولد من الصعب أن ترتاح له وتحبه · ولو كان والدها بنتا ما أحبه · ولصمم على رفضه ولو قتلوه ·

وموافقة محفوظ ـ والدها ـ على الخطوبة بسبب أنها كبرت ولم يأتها خاطب مناسب · ولأنه يعلم أن ابنته ليست على قسط كبير من الجمال تجعل البعض يسعى اليها ويضحى بالأشياء من اجلها ·

عندما عادت عواطف من المدرسة · وجدت نفسها وحيدة · ليس فى البيت أم تحكى لها أحاسيسها ولا أخت ولا صديق · لم تجد سوى الخادمة العجوز · ولايمكن أن تأخذ عواطف وتعطى معها فى امور مثل هذه · رغم ذلك قالت لها :

ـ سيأتى الينا ضيف مهم · ونريد أن نعد له عشاء ليس له مثيل ·

قالت العجوز :

ـ اعرف · خطيبك الأستاذ ابراهيم · اليس كذلك ؟!

ـ لا · رجل آخر ·

ظنته المراة صديقا للأسطى محفوظ · فهو كثيرا ما يدعو أصدقاءه الى الغداء أو العشاء ·

دارت عواطف فى الشقة وحدها · لم تجد من تحكى له عن ذلك الحديث الغريب · زيارة احمد لها فى المدرسة ووقوفه مرتبكا

وكأنه يعتذر عن فعل شيء فعله · أدارت قرص التليفون · وطلبت والدها فى الدكان هو الوحيد الذى يمكن أن تحدثه :

ــ بابا · بابا · أرجو أن تأتى مبكرا الليلة ·

ــ اشمعنى ؟

ــ لدينا ضيف مهم ·

ــ خطيبك ·

قالها مندهشا · فعواطف لم تهتم أبدا بحضور خطيبها · ولدى محفوظ احساس أنها لا تريده أن يحضر وهى تقابله وتجالسه مضطرة · صاحت عواطف فى والدها غاضبة :

ــ خطيبى ليس مهما وانت تعلم · أم ستغضب لأنه ابن أختك ؟

ــ لو أردت الحق · هو ليس مهما · وسأحضر قبل موعدى من أجلك ·

قبل أن تضع السماعة صاح :

ــ أكيد الدكتور أحمد · أليس كذلك ؟

قالت فى خجل ودلال لم يحسه محفوظ على ابنته من قبل :

ــ نعم · هو يا أبى ·

* * *

فكرت عواطف فى الذهاب الى الكوافير لكى تبدو جميلة · لكنها طردت الفكرة من رأسها · فالوقت غير كاف لذلك ·· كما أن ذهابها للكوافير سيجعلها تبدو مهتمة بأحمد اهتماما بالغا ·

خاصة أنها لا تذهب الى الكوافير الا مرة أو مرتين خلال العام . وهناك أعوام لم تذهب فيها للكوافير ولا مرة خلالها .

وتوصلت الى أقصر الطرق وأفضلها . وهو أن تقوم بنفسها بعمل المكيـاج . ستخجل من والدها عندما يراها هكذا . خاصة أنها نادرا ما تضـع المساحيق على وجهها . لكن ليس مهما . فاللحظات جميلة ويتحتم معها بعض التضحيات .

دق جرس الباب . اسرعت الى الخادمة غاضبة . من قبل ان تفتح الباب :

ــ الرجل جاء وانت مازلت تعدين الطعام .

صاحت المرأة :

ــ أنا لم اتأخر .

أشاحت عواطف بيدها وأسرعت الى الباب ، فوجئت بابراهيم ــ خطيبها ــ أمامها :

ــ مـن ؟

دخل مبتسما كاشفا عن انتفاخ فتحتى أنفه . رأته عواطف هذه المرة أكثر دمامة من كل مرة سابقة .

الغريب أنه واثق من نفسه . ويظن أن دمه خفيف والكل يستحسنه ويستظرفه :

ــ كيف حالك يابنة خالى ؟

قالت فى نفسها زفت وقطران وطين لأنك حضرت الآن .

دمه ثقيل ويريد أن يداعبها . جلس فى الصالون ــ كعادته ــ قـال :

ـ أشم رائحة الطبيخ • طبيخك لا يعلى عليه • له رائحة اشمها من الف كيلو متر •

ابتسمت فى زجرة غصبا عنها :

ـ تعرفين ، لماذا الرائحة طيبة وحسنة هكذا • لأنكم تطبخون بسمنة بلدى طبيعى •

ظلت ناظرة اليه فى ضيق وهى شاردة فى أحمد الذى اقترب موعده • كيف سيأتى وهذا الشىء موجودا أمامها •

صمت لحظة وهو يشم • فأحست أن أنفه يكبر ويتنامى ويتضاعف وأنه سيسحب كل الأشياء داخله : المقاعد المفارش حتى المائدة الكبيرة •

مشكلة • انه لن يخرج من البيت قبل أن يأكل • وأحمد سيأتى بعد قليل فماذا تفعل معه ؟ !

قامت عواطف من أمامه • وقد أصبحت عصبية أكثر من كل مرة •

دخلت المطبخ وجدت العجوز قد انهت العمل • حضور ابراهيم ـ هكذا ـ افسد فرحتها • لكن هى المخطئة فابراهيم يأتى كل مساء • واذا ما تغيب عن الحضور • فلابد ان وراءه إجتماع هام فى الاتحاد الاشتراكى • او اجتماع سياسى لا يستطيع أن يعتذر عنه • الغريب فى الأمر أنه فى اليوم التالى يعتذر لأنه لم يستطع الحضور • ويطلب منها ومن والدها أن يسامحاه • مع انهما يكونان فى غاية الامتنان والسعادة للظروف التى حالت دون حضوره •

دق جرس الباب وهى فى المطبخ تطلب من الخادمة العجوز اعداد أكواب الشراب . أسرع ابراهيم وفتح الباب . وجد أحمد امامــه :

ــ مســاء الخــير .

احس ابراهيم أنه قد رآه من قبل لكن لا يدرى أين .

ــ أليست هذه شقة الآنسة عواطف محفوظ ؟

ــ هى . ماذا تريد ؟

وقف ابراهيم وهو مازال يمســك درفة الباب « سادد » السكة فى طريق أحمد . مما اضطره لأن ينادى من مكانه :

ــ يا عواطف يا عواطف .

جاءت عواطف مسرعة . لا . لم تسرع الخطو . بل قفزت نحوه بأقوى ما يمكن . رددت لنفسها « الغبى لم يدعه للدخول . تركة يقف على السلم كما هو » :

ــ تفضل يا دكتور . تفضل .

دخل أحمد مرتبكا . كان فى بدلته رغم عز الحر . كأنه عريس مضطر لارتدائها .

سار ابراهيم خلفــه وهو فى حيرة « من يكون هذا ؟ » قال لعواطف :

ــ دكتــور ؟

ــ نعم ، دكتوراه من ألمــانيا فى العلاج الطبيعى .

ابتسم احمد له . لكن ابراهيم كان يحس بالضيق . فها هى عواطف تبدى اهتماما بالغا لشاب آخر غيره وأمامه :

ـ هاه • تعبت فى الوصول الى شقتنا •

ـ اللى يسأل مايتهشى •

تذكر ابراهيم أن عواطف كانت متزينة بطريقة لم يعهدها فيها من قبل • والله ما فعلت هذا ليلة الخطوبة • الآن هى أجمل من اى مرة رآها فيها • أكيد فعلت هذا من أجل ذلك الضيف الغريب • الأمر ليس بسيطا • فأموال خاله كثيرة جدا • وهو ليس عنده سوى عواطف هذه • وابراهيم أحق من غيره بأموال خاله • شقيق أمه • قال ابراهيم :

ـ دكتور فى اى مستشفى ؟

ـ حضرت من ألمانيا منذ أيام قلائل ولم أتسلم العمل الآن •

صاح ابراهيم وقد فتح فتحتى أنفه أكثر :

ـ انا أمين لجنة الاتحاد الاشتراكى المساعد عن حى الجمرك •

ـ اهلا بك •

ونظر ابراهيم الى عواطف ، حكى لها حكايات بعيدة عن الموضوع :

ـ جمعنا الباعة الجائلين الذين يقفون بعرباتهم وفرشهم خلف مبنى الحقانية فى المنشية • وعملنا لهم أكشاكا مثل الأكشاك الموجودة فى سوق سوريا وغزة • ونقلناهم هناك •

قال أحمد مهتما :

ـ عمل عظيم لاشك • اننى أحب العمل من أجل الناس •

أيقنت عواطف ـ وقتهـا ـ أنها لن تستطيع احتمال ابراهيم أكثر من هذا · لا · حتى لو ظلت العمر كله بلا زواج أفضـل لها من أن تتزوجه · فهى لا تطيق انتفاخ انفـه ولا حديثه الممل المقـرف ·

المشكلة فى والدها · لكن الرجل يحبها ولن يعارضها فى أمر حيوى كهذا · ستبكى له حتى يوافق على فسخ الخطوبة · لا · ليس مهما أن يأتى أحمد لخطبتهـا · المهم أن ترتاح من ابراهيم الآن · ثم يحدث بعد ذلك ما يحدث ·

ـ أنا موظف فى شركة ليفى للسجـاد · وادرس فى كليـة التجارة · أنا فى البكالوريوس الآن ·

ـ أهـلا بـك ·

ـ لاحظت أن بلدنا لا تهتم بالمؤهلات ·

صاحت فيه عواطف غاضبة :

ـ كيف وهم يقولون ان بلدنا بلد شـهادات · فهم يعاملون الموظف بقدر شهادته لا بقدر عمله ·

ـ أنا أتعب فى المذاكرة · وعندما اعين بالبكالوريوس · لن آخذ ما استحقه · اى فنـان أو ممثل على دخل أكبر من دخلى ولو لم يكن مؤهلا ·

احست عواطف بسخافة حديثـه · وبأفكاره المريضـة · فتمنت لو لم يجبه أحمد بشىء لينهى حديثه السمج ودق جرس الباب · فصاحت عواطف فرحة :

ـ بابا ·· بابا ··

جاء محفوظ محملا بأكياس الفاكهة · صاح فرحا :

ـ أهلا يا دكتور . أحسست بوجودك من الضوء الساطع فى الشقة .

ووقف أحمد . فضمه الرجل لصدره . تابع أحمد وجه الرجل المبتسم دوما . القريب الشبه بوجه عواطف المريح .

ـ حدثتنى عواطف عنك كثيرا . لدرجة أنى أعرفك منذ وقت طويل دون أن أراك .

ـ وأنا أيضا أعرفك وأحبك من قبل أن أراك من حديث عواطف عنك .

لم يلحظ الرجل وجود ابراهيم . جلس . ثم وقف فجأة . ضحك طويلا ثم قال :

ـ آسف يا ابراهيم يابن أختى . وجود الدكتور أنسانى وجودك .

صافحه ابراهيم وهو فى حيرة مما يحدث . واضح أن عواطف هى التى تعرفت على الدكتور . وان خاله يراه ـ الآن ـ لأول مرة .

بعد أن جلس محفوظ ثانية صاح فى أحمد :

ـ اكيد ابراهيم ملأ راسك بحكاياته عن الصيد والاتحاد الاشتراكى فهما الحديثان الأثيران عنده .

قال أحمد :

ـ الرجل لم يذكر الصيد بشىء .

تمتمت عواطف :

ـ الحمد لله .

وصار ابراهيم فرحاً :

ـ اصل أنا خبير فى موضوع الصيد ·

ـ أنا فى الحقيقة خبير فىمواضيع كثيرة · واعجبك · والصيد واحد منهـا ·

ثم استدرك الأمر فأكمل :

حدثت عواطف نفسها من شدة الأسى الذى تحسـه الآن · أهناك انسان عاقل وموزون يمدح نفسه بهذه الكيفية ؟ ! ·

وصـاح ابراهيم :

ـ بالمناسبة لجنة الاتحاد الاشتراكى ستعقد جلسـة فى الغد لمناقشة موضـوع الحرب · وتأييدا لموقف عبد الناصر ·

صاح محفوظ فى ضيق :

ـ أنا ليس لى فى اجتماعات الاتحاد الاشتراكى · كمـا أننى لست من بحرى · أدع الدكتور لذلك · فهو من بحرى مثلك ·

صاح ابراهيم فرحا :

ـ سانتظرك يا دكتور ·

ـ سأحضر · اين سيكون الاجتماع ؟

ـ قريبا جدا من قهوة فاروق ·

قالت عواطف وهى تقوم بالاشراف على اعداد المـائدة :

ـ وأنا أيضا سأحضر ·

قـال محفوظ :

ـ سعيد جدا هذه الأيام بجمال عبد الناصر · أعجبني عندما قال عن ايدن « انه خرع » ·

وضحك محفوظ بصوت مرتفع :

ـ بيني وبينك لم أكن أحبه من أجل أشياء كثيرة لا داعي لذكرها الآن · لكن موقفه من اليهود أعجبني ·

قـال أحمـد :

ـ تقصد موقفه من اسرائيل ، وليس اليهود ·

ـ كلهم واحد يا دكتور أحمد يابني ·

ـ لا يا عمي ، من الخطـأ أن نحسب كل اليهود لصـالح اسرائيل · وهذه احدى الأخطـاء التي وقعنـا فيها وكانت أحد أسباب تقوية اسرائيل ·

ـ تقصد انه من الخطـأ طرد اليهود من مصر بعد حرب ٥٦ ·

ـ عبد الناصر لم يطرد اليهود بعد حرب ٥٦ · والدليل على ذلك أن العديد منهم مازال يعيش بيننا ·

قـال محفوظ :

ـ وما سبب هجرتهم هكذا ؟

ـ صنعت اسرائيل المشاكل لأنها تريدهم يأتوا اليها ، وأذعت أن حكومة الثورة تعاملهم معاملة سيئة ·

وكانت تحرض اليهود ضد الحكومة ·

ـ بيني وبينك لو بقوا كما هم · كانت اسرائيل ستتخذ من وجودهم ذريعة للضغط علينا بحجة أننا نسيء معاملتهم ·

صاح أحمد :

ـ عندك حق يا عمى .

اقتربت عواطف منهم وقالت :

ـ صديقة لى فى المدرسة حكت أن امرأة يهودية عجوز كانت تشترى كميات كبيرة جدا من الجاز . كلما مر باعة الجاز تشترى منهم . وعندما تتبعت صديقتى ما يحدث . اكتشفت أن هذه اليهودية كانت تلقى بالجاز فى المجارى .. فقد كانت تستعد للرحيل عن مصر . ولا تريد أن تترك مالا لأحد .

ضحك محفوظ كطفل وقال ابراهيم .

ـ أرجو الا تنسوا اجتماع الغد .

وقبل أن يسترسل فى موضوعه عن اجتماع الاتحاد الاشتراكى . قالت عواطف :

ـ المائدة جاهزة .

المكان : تل أبيب :

يستدعى ليفى أشكول رئيس وزراء اسرائيل الجنرال موشى دايان الذى كان خارج الوزارة فى ذلك الوقت الى بيته . وبعد حديث طويل عن الحرب ، واغلاق مضايق تيران فى وجه الملاحة الاسرائيلية . وعن جمال عبد الناصر ومؤتمره الصحفى الأخير . يعرض أشكول على دايان وزارة الدفاع الاسرائيلية . ويوافق دايان .

* * *

يفتتح دايان عمله فى الوزارة باجتماع مع الجنرالات المساعدين له • ويطالبهم بتقديم خطط عمليات هيئة أركان الحرب لكافة الأسلحة •

* * *

فى حوالى الظهر من نفس اليوم • يعقد ليفى اشكول اجتماعا وزاريا محدودا يشترك فيه دايان وآبا ايبان وزير الخارجية • وايجال آلون رئيس هيئة أركان الحرب • وعدد آخر من جنرالات الجيش • يعرض دايان فى هذا الاجتماع خطته بشأن الحرب • وهى تهدف الى تدمير الجيش المصرى فى سيناء واحتلال مضايق تيران •• ثم يعرض اسحق رابين على دايان ـ فى الاجتماع ـ خطته الجزئية • وهى اختراق سيناء على أربعة محاور : محورين الشمال من قطاع رفح ومحورين فى الجنوب من قطاع القسيمة فى اتجاه أبو عجيلة المحصن •

يوافق دايان على هذا المشروع فى مجمله •



- ١٥ -

صدرت الأوامر من القاهرة لجميع محافظـات مصر • بعقد اجتماعات فى كل حى • يشرف عليها الاتحـاد الاشتراكى • لتعبئة الجماهير وتهيئتهم للحرب •

واقيمت ــ بالفعل ــ الاجتماعات فى كل الأحياء • على مستوى محافظات مصر كلها •

وكان اجتماع حى الجمرك فى المنطقة القريبة من قهوة فاروق المشهورة جدا فى حى بحرى •

جلس ابراهيم فهيم بجوار فاروق الفرماوى الأمين العام عن حى الجمرك • فوق منصة عالية • اقامها الفراش الذى يتعـامل مع الاتحاد • فوضع دككا كثيرة بجوار بعض • وفرشها بغطـاء اخضر • وفى منتصف المنصـة مائدة وثلاثة مقاعد أحدهم خـال الآن ــ للذى سيلقى الكلمة •

كان الفرماوى عجوزا ، شاربه أبيض • بينما شعر راسـه مصبوغا بالأسود ، ويرتدى بذلة زرقاء أنيقة • والمقاعد متراصـة

وممتلئة بالناس • وأكثر منهم لم يجدوا مقاعد ، فوقفوا حول المكان حتى وصلوا الى الترام التى تعذر سيرها على القضبان المليئة والكثيفة بالناس •

صاح ابراهيم مفتتحا اللقاء :

ـ فى هذه الأيام الخالدة من تاريخ مصرنا الحبيبة • نعقد هذا الاجتماع الجماهيرى ويشرفنا أن يكون معنا الأستاذ الكبير/ فاروق الفرماوى امين اللجنة عن دائرة الجمرك •

نظر ابراهيم بين الجمهور • الحاج الدسوقى شيخ الصيادين يجلس فى الصف الأول وبجواره الحاج محمد سماحة • ومحامى كبير من اصدقاء سماحة • ارتاح ابراهيم لوجود عواطف فى الصف الثالث • لكن أساءه ان يكون أحمد الدسوقى ـ هذا ـ بجوارها • فوجوده معها دائما يؤكد شكوك ابراهيم • ويجعله يسرع باتخاذ قرار سريع والا اخذ عواطف منه وضاعت اموال خاله ، وذهبت الى غريب •

قال الفرماوى ناظرا الى الموجودين فى الصف الأول :

ـ تفضل يا حاج دسوقى لتلقى كلمتك •

لوح الحاج بيده للجميع عندما صفقوا له • وربت على صدره للفرماوى ممتنا ومعتذرا • فصاح الفرماوى :

ـ نرحب بأن يكون الحاج الدسوقى شيخ الصيادين معنا هنا على المنصة •

وصفق الجمهور ثانية ، وأصر الفرماوى على صعوده • فالحاج مهم جدا فى بحرى ، الصيادون أتباعه • ولدى كل منهم تذكرة

انتخاب . ومن ضمن هؤلاء فى الانتخاب ، ضمن دائرة الجمرك كلهـا .

اضطر الدسوقى أن يصعد ، وظل الحاج سماحة ومن معه فى الصف الأول .

اقترب الولد حسن من عواطف وصافحها . قالت عواطف وهى تربت على شعره :

ـ كيف حالك يا حسن فى المدرسة . سلم على الدكتور أحمد . تعرفـه :

ـ هو ابن معلمى .

صـاح احمـد :

ـ أبلة عواطف مهتمة بك . وأريدك أن تشرفها بأن تكون الأول على فصلك .

ـ سأكون طبيبا مثلك يا دكتور .

اسرع عوض ـ عم حسن ـ ليصافح عواطف . صاح :

ـ جئت لكى أشكرك على كل ما قدمته لابن أخى حسن .

أحس احمـد أن ابراهيم فهيم يشرأب فوق مقعده ليتـابع ما يحدث فى الصف الثالث باهتمام . وأحس بأنه غير راض عن الحركة التى تحدث امامه . فصاح أحمد :

ـ ارجعا الى مكانيكما . وسنتقابل بعد اللقاء .

قـال ابراهيم :

ـ والآن نستمع الى كلمة الأسـتاذ فاروق الفرماوى امين الاتحاد الاشتراكى عن دائرة الجمرك .

تحدث الرجل طويلا • قال كلاما مثل كل الكلام الذى يقال فى المناسبات الحماسية ، خاصة من رجل مثله احترف النشاط السياسى والجماهيرى منذ أن كان شابا صغيرا • فهو عضو بارز فى حزب الوفد • وبعد الثورة أصبح احد قادة هيئة التحرير ، وتقدم للترشيح فى الاتحاد الاشتراكى •

وتحدث الحاج الدسوقى ، اثنى على جمال عبد الناصر وقال انه سينتصر باذن الله • لأن اسرائيل ليست فى قدرتنا • وهى ولا حاجة اذا ما تخلت عنها أمريكا • وتخلى عنها الانجليز •

وصفق الجميع للكلمة التى كانت قصيرة جدا • وذكر فيها اسم جمال عبد الناصر عشرات المرات ليصفقوا له • وعندما تحدث ابراهيم فهيم قال كلمات شبيهة بما قاله الفرماوى • وفجأة وقف أحمد الدسوقى رافعا يده طالبا الكلمة أحس ابراهيم بالاحباط فأحمد حاصل على الدكتوراه من المانيا ويستطيع أن يتحدث أفضل من ابراهيم وربما من الفرماوى نفسه • وسيظهر قدراته أمام عواطف وأكيد ستعجب به •

وقف الحاج الدسوقى فرحا :

ــ ابنى الدكتور أحمد • عاد من المانيا منذ أيام قلائل • كان يدرس الطب هناك •

صفق الجميع • ظنوه سيقول مثل الذين سبقوه • ومثل كل الذين يتحدثون فى مثل هذه المناسبات • لكن عواطف أحست بالخوف عليه • فأمسكت يده وهو خارج من بين الصفوف :

ــ أحمد • احترس •

نظر اليها ولم يجب •

أسرع أحد الصيادين بتوصيل مقعد الى المنصة ليجلس عليه أحمد . لكنه لم يجلس . ولم يمسك الميكرفون . وقف امام المنصة ، فى منتصفها . حجب الرؤية عن ابراهيم فهيم وجزءا من القرماوى . قال :

ـ اسمعونى يا ناس . منذ أن عدت من المانيا وانا اريد ان أتحدث أن أحذر . كلنا نحب عبد الناصر . ونثق فيه ونعرف مدى وطنيته ونزاهته وطهارة يده . لذا ، نريد ان ننبهه . صدقونى يا ناس اننا غير مستعدين لحرب اسرائيل . الحرب ستفرض علينا . وسنضطر ان نخوضها .

صاح ابراهيم فهيم من مكانه بعد أن وقف :

ـ انه مجنون . انه مجنون .

وضربت عواطف بيدها على فمها دون أن تحس . فما كانت تخافه قد حدث . أحمد يعرض نفسه للخطر الآن . أما الحاج الدسوقى فلم يحس بخطورة ما يقوله ابنه الا بعد أن سمع ما يقوله ابراهيم فهيم . أسرع الى ابنه :

ـ احمد . احمد . ارجوك .

ابتعد أحمد . سار حتى نهاية المنصة المقامة وقال :

ـ المصيبة الاكبر أننا سنبدو أمام العالم معتدين . ومرحبين بالحرب . لقد كنت فى المانيا واعرف أن هذه مصيدة تريد أمريكا ـ يا ناس ـ أن نقع فيها .

صاح ابراهيم فهيم للقرماوى :

ـ افعل شيئا يا قرماوى . انه بهذه الطريقة يقضى علينا .

صـاح الفرماوى :

ـ عندك حق ٠

ووقفا ٠ اقتربا منه ٠ أسرع أحمد الى نهاية المنصـة من الناحية الأخرى :

ـ لقد أرادوا اغتيال عبد الناصر ولمـا فشـلوا بحثوا عن حل آخر مشابه للاغتيـال ٠ وربما أقوى منه ٠ وهو اغتيـال الأمة كلها بالهزيمة ٠

اسرعت عواطف اليه ٠ اخترقت الصف الذى تجلس فيه ٠ داست على أقدام الجالسين ٠ ولم تعبأ باعتراضهم ٠

صاح ابراهيه فهيم فى الميكرفون :

ـ لا تتركوا هذا المهندس من أعداء الثورة والوطن أن يفلت من بين أيديكم ٠ لابد أن تقاوموه وتدافعوا عن مكاسبكم التى حققها عبد الناصر لكم ٠

حاول البعض أن يصعد الى المنصة لمواجهة أحمد وضربه ٠ فأسرع والده اليه ٠ ضمه لصدره وصاح فيهم :

ـ انه ابنى يا عالم ٠ ابنى ٠ تريدون أن تضربوا ابنى ٠

تراجع الصيادون ٠ فقد أفاقوا ٠ أيضربون ابن معلمهم ٠ لكن البعض مازال يصيح ويسب ويتهم احمد بالخيانة والعمالة ٠٠ الخ وابراهيم يصيح فى الميكرفون :

ـ لابد للجماهير أن تقضى بنفسها على كل من يشـكك فى قدرات قواتنا المسلحة ٠

صاحت عواطف ، ولا تدرى كيف صعدت الى المنصة • ضمت أحمد اليها • الغريب انه ارتمى فى صدرها كطفل كان منهارا •

ــ تعال يا أحمد • تعال •

والدسوقى وسماحة والمحامى ــ صديق سماحة ــ وعوض يقفون فى وجه الناس الثائرين • يبعدونهم عنه •

أسرعت عواطف • شدت أحمد من ملابسه وجسده كله :

ــ ابتعد الآن عنهم • ابتعد •

سار معها فقد كان متعبا • يلهث • يحس باختناق • وانه قد يموت فجأة • وامسك الحاج الدسوقى بالميكرفون اخذه من ابراهيم فهيم عنوة :

ــ يا أهالى بحرى الكرام • أنتم تعرفوننى • أنا الحاج الدسوقى شيخ الصيادين • تعرفون مدى ارتباطى بالبلد ومشاكلها وانجازاتها وانتصاراتها • أنا اعتذر بالنيابة عن ابنى • فهو كان فى ألمانيا وعاد متعبا ••

سارت عواطف بأحمد باتجاه البحر • بعض الرجال الذين شاهدوا ما حدث ، تابعوها • وساروا خلفها وخلف أحمد • قالت عواطف :

ــ سنذهب الى البيت •

لم يجبها بشىء • لم يظن أبدا أنه سيأتى عليه يوم يحدث له فيه ما حدث • تهاجمه الناس كأنه سارق ضبط حين يسرق • الكل يحاول ضربه وايذاءه لقد سمع سبابا لم يظن أبدا أن يقال له •

يتمنى أحمد أن يسير وحده على الكورنيش • يلفحه الهواء

البارد · فيبكى وحده ، لا يراه أحد وهو يبكى · ولا حتى عواطف ·

وجد نفسه داخل التاكسى · وعواطف بجواره · تحدثه · لا يدرى ماذا كانت تقول ؟

المكان : ميناء حيفا العسكرى :

فى الوقت نفسه الذى وضعت فيه الخطة الجريئة لضرب الطيران المصرى فى جميع مطاراته · وضعت خطة اخرى لضرب ميناء الاسكندرية · وبذلك يتم القضاء على الطيران والسفن المصرية فى الوقت نفسه ·

حضر الاجتماع فى ميناء حيفا (مركز قيادة البحرية الاسرائيلية عدد قليل من جنرالات البحرية) وانتهى الاجتماع الى الآتى :

١ ـ أن تشترك الغواصة « التمساح » (أكبر غواصات البحرية الاسرائيلية فى ذلك الوقت) بالهجوم على مينائى الاسكندرية التجارى والبحرى ، تحسبا لما يمكن أن يحدث لانتشار السفن الحربية فى الميناء التجارى (الجمرك) ·

٢ ـ تدمير المدمرات والفرقاطات التى تحرس مدخل الاسكندرية بواسطة الغواصات ·

٣ ـ تدمير كل ما تصل اليه يد الضفادع البشرية للكوماندوز البحرى الاسرائيلى بداخل مينائى الاسكندرية التجارى والبحرى ·



فى يوم الاجتماع نفسه . استدعى قائد البحرية الاسرائيلية ، المقدم ايفان ـ قائد الغواصة التمساح وابلغه بنتائج الاجتماع . وناقش معه تفاصيل الهجوم . وهو أن تبحر الغواصة فى اتجاه الاسكندرية . على أن يختار ايفان الضفادع البشرية المناسبة للهجوم . ويقوم بتوجيه التعليمات والأوامر لهم . مبلغا اياه أن رئيس الوزراء ليفى أشكول . ووزير الدفاع الاسرائيلى يتابعان هذه العملية الهامة باهتمام شديد .

* * *

قسم ايفان فرقه كوماندوز الضفادع البشرية ثلاثة تشكيلات صغيرة . لكل منها : ضفدعان ، ضابط ومساعد يربط بينهما حبل طوله متر ونصف المتر .

أول المجموعة : الرائد ايتان ومعه ذابيك بن يوسف .

ثان المجموعة : دانى ومعه جادى باطيش .

ثالت المجموعة : ايلان ومعه المساعد ابراهام مخلوف وهو من أصل مصرى وكان يعيش فى الاسكندرية وسافر مع أسرته عام ١٩٥٧ الى اسرائيل . وكان عمره حينذاك خمسة عشر عاما . وقد اختاره ايفان ليساعد المجموعة فى التنقل بين شوارع الاسكندرية اذا احتاج الأمر لذلك .

بعد ايام من ابحار الغواصة التمساح . تصل الى حدود الاسكندرية على بعد ١٥٠ كيلو متر من شواطئها وتستقر على قاع البحر فى انتظار أوامر جديدة . وعن طريق شفرة جهاز « الموريس » الذى كان مستخدما فى الاتصالات البحرية الاسرائيلية فى ذلك الوقت . تصل رسالة صباح الأحد ٤ من يونيو :

ـ تقدم الى الساعة ٦٫٣٠ مساء بمسافة ١٨٠ مترا من شاطىء الميناء • واستقر فى تلك المنطقة على أرض القاع ثم تصل رسالة اخرى بعد دقائق :

ـ على فرقة الضفادع الخروج الى الهدف فى تمام الساعة الثامنة مساء •

* * *

بعد خمس ساعات أخرى يأمر المقدم ايفان قائد الغواصة التمساح • ضفدعى الاتصال (بين الغواصة والفرقة فى ميناء حيفا) الصعود الى سطح الغواصة لتحديد نقطة عودة الضفادع الستة ويتوصلان الى الآتى :

١ ـ موعد الانتشال والعودة الثالثة صباحا • ستنتظرهم الغواصة حتى شروق الشمس والا ستضطر للعودة دونهم •

٢ ـ تضبط الألغام المستخدمة • على أن تنفجر فى الساعة الخامسة صباح يوم ٥ من يونيو •

يجتمع الضفادع الستة حول المقدم ايفان • ويكون ابراهام مخلوف قريبا جدا منه • يشير ايفان الى خريطة موضحا بها كل اماكن الاسكندرية الهامة • يشير الى مبنى قلعة قايتباى •

ـ انظروا جميعا الى هذا المبنى العتيق • انه يشبه القلاع الأثرية التى بنيت فى القرون الوسطى • والتى تشاهدونها فى الأفلام التاريخية • لقد شاهد هذا المبنى معارك عديدة • وينتظر

معركتكم القادمة · ذلك المبنى هو ملجـأكم الأخير اذا لم تتمكنوا من العودة الى الغواصـة فى الموعد المحدد لأى سبب من الأسـباب وهو مبنى مهجور يمكنكم الاختباء فيه لبعض الوقت .....

* * *

تبدأ الغواصة التقدم باتجاه مينـاء الاسكندرية · وتقترب لمسافة ٢٣ كيلو مترا من الشاطىء ·· يصيح أحد مسـاعدى ايفان ممن يعملون على جهاز « السونار » وهو شبيه لجهـاز الرادار العادى ، الذى يكشف الأشياء حول الغواصة ·

ـ هناك زوارق مصرية تقوم بمسح دورى فى المنطقة لمسافة ٥٥ كيلو مترا فى عمق البحر ·

يأمر ايفان أن تستقر الغواصة فى المنطقة نفسها التى وصلت اليها ، خشية أن تكتشفها الزوارق المصرية ، فتنسف الغواصة · وتواصل الغواصـة التقدم بعد أن تبتعد الزوارق المصريـة عن المنطقـة ·

فى الساعة الرابعـة وعشر دقائق من بعد الظهر · وعلى مسافة أربعة عشر كيلو مترا من شاطىء الاسكندرية يلتقط جهـاز السونار ذبذبات تؤكد وجود مدمرة مصريـة طراز سكورى على مسافة ٨٢ مترا ·

يصيح ايفان فى رجاله استعدادا لاطلاق الطوربيدات لاغراقها · لكن المدمرة المصرية تبعد عن طريق الغواصـة الى طريق آخر · ويستمر التقدم حتى النقطة المحـددة على بعد ٢ كيـلو متر من الشاطىء · لتصلها الغواصة فى تمام السـاعة السابعـة مسـاء يوم ٤ من يونيو ·

يلتف الضفادع الستة حول منظار البريسكوب • يشـاهدون مدمرة راسية أمام الميناء • فيدرجونها ضمن قائمة الأهداف التى سيقومون بتدميرها •

فى تمام الساعة الثامنة مساء يوم ٤ من يونيو يتأكد المقدم ايفان من معدات الضفادع البشرية : الوجه الزجاجى « المـاسك » ، الحزام الرصاصى ، ساعات الغطس ، جهاز قياس العمق ، وحزام المـاسك •

واطمأن ايفان بنفسه على الألغـام والزراجـين التى تربط الألغام فى السفينة أو الهدف المراد تدميره •

يؤكد ايفان على أن يكون الضفادع الستة فى كتلة واحدة حتى لا يفقدوا بعضهم • وانه فى حالة الطوارىء وعدم تمكنهم من العودة لأى سبب من الأسباب الى نقطة الانتشال المتفق عليهـا فى الساعة الثالثة فجرا • فانهم يختبئون فى قلعة قايتباى • وسيعود لانتشالهم بالغواصة نفسها ، من المنطقـة نفسها الساعة نفسها بعد يومين • اى فجر الخميس ٨ يونيو •

ثم يتسلل الضفادع الستة واحد تلو الآخر باتجـاه رصيف ميناء الاسكندرية فى ليلة حالكة الظلام • استمر ظلامها تسعـة ساعات كاملة • يسبحون أول الأمر فوق سطح المـاء • فهم بعيدون عن مرمى المصريين •

وجد ايلان وابراهام مخلوف أنفسهما وحيـدين • فانتظرا ظهور باقى الفرقة ــ كما أمرهم ايفان ــ حتى لا يفقدوا بعضهم • وذلك حتى الساعة الثامنة والربع • ولم يظهر أحد من الأربعـة الباقـين •

فقرر ايلان ومخلوف العوم فى اتجاه الضــوء الساطع · لم يستطيعا رؤية مصــدات الأمواج بوضوح نظرا لارتفاع الأمواج فى تلك الليلة ·

رغم ذلك استطاعا الوصول الى أحد مصدات الأمواج · وحددا هدفا كبيرا لتلغيمه · سبحا نحوه بسرعة · وصــلا اليه حوالى الساعة الثانية عشرة ـ منتصف ليل الاسكندرية ·

- ١٦ -

عاد عبد الله الى السفينة فى العاشرة مساء . وموعد حراسته فى الثانية عشرة . كان محملا بأشياء كثيرة طلبها الضابط والبحارة من السوق . لانشون وسدق وجبنة تركى . وكفتة من بائع يقف بعربة فى شارع محرم بك . قريبا من شارع جرين . فقد أصر الرائد سيف ــ الذى طلب هذا ــ أن تكون الكفتة من ذلك البائع ، وليس من أحد غيره . فسيف اعتاد مذاقها . ولا تعجبه كفتة سواها .

وآخر أصر على شراء سندوتشات الفول والطعمية من محل بنيامين فى محطة الرمل .

ضباط وبحارة السفينة لم يبرحوها الا للشديد القوى . لابد من وجود سبب قهرى لمغادرتها . ولابد أن يخص الصالح العام . ولقد ملوا من طعام السفينة المعتاد .

عندما غادر عبد الله القارب الذى اقله من الرصيف الى مكان السفينة واجهه رمضان بوجهه الممتلىء . قال :

ـ حمدا لله على السلامة ٠

ـ الله يسلمك ٠

ـ قابلت الدكتور أحمد الدسوقى ؟

ـ نعم ٠

حمل رمضان بعض اللفائف وضعها فى طاولة بجواره ليخفف الحمل عن عبد الله :

ـ أخباره ؟

ـ كل خير ٠

كان عبد الله قد اشترى له سندوتشات الكفتة من البائع المفضل لدى الرائد سيف ٠ وأصر عبد الله الا يدفع رمضان مليما ٠ فالرجل كانت مهمته الاتصال الادارى وكثيرا ما جاء بأشياء مثل هذه لعبد الله قبل أن يترك عمله فى هذه الظروف ٠

أسرع عبد الله الى سريره ٠ بعد أن أعطى اللفائف الى أصحابها ٠ خلع الملابس البيضاء (ملابس الخروج) وارتدى الزى الأزرق الذى يعملون به داخل السفينة ٠ كان عبد الله بطيئا مما لفت نظر زملائه الموجودين فى العنبر ٠

قال أحدهم :

ـ ماذا بك ؟ انك تتحرك وكأنهم يصورونك بالبطىء ٠

افاق عبد الله ٠ لقد كان يفكر فى صابرين ٠ كيف استقبلته بابتسامتها الرقيقة ٠ اثبتت البنت أنها تحبه ٠ وان رميها للدبلة كان من شدة حبها له ٠ بعد أن ضاقت برعونته لاستقبال نساء كازينو اليهودى بفيلته ٠

بعد أن تنتهى هذه الأزمة · وتحل المشكلة القائمة ونسترخى الأمور كما كانت · سيفاتح أحمد الدسوقى فى أمر الزواج · ما الذى يعطله ؟ الفيللا واسـعة وتكفى لأربع أسر بأطفالها · والأثاث فيها كثير جدا وبحـالة جيدة ولو أن الحاج الدسوقى سيصر على أن يأتى بأثاث لابنته حقنا لمـاء الوجه امام الصيادين أهل الحى · فذلك لا بضر · زيادة الخير خيرين ، أثاث آخر ينضم الى الأثاث العتيق الذى ورثه عن آبائه الأثرياء · ملاك المدفن القديم والمعروفين جدا فى بحرى ·

عبد الله متفـائل · أيام قـلائل وتنتهى الأزمة · فكثـيرا ما تصاعدت الأحداث والتهبت بين مصر واسرائيل وسرعان ما تبرد ويعود كل شيء الى ما كان عليه من قبل · ويعود عبد الله الى المبيت كل ليلة فى فيلته وسط أثاثه القديم النادر والتحف التى اشتراها من مزادات الاسكندرية · ومن الموانى الغربية التى رست فيهـا السفينة على طول البحر المتوسط ·



انتظرت الغواصة الاسرائيلية التمسـاح حتى الساعة الثانية والنصف صـباح يوم ٥ من يونيو · وصعد الضفدعان المكلفـان بالاتصال على سطح الغواصة · لكن أجهزتهما فسدت · وجرفتها الأمواج · فابتعدا عن الغواصـة ·

أحس الضفدعان بالزوارق المصرية تدور فى المنطقة · فأسرعا الى غواصتهما فى الساعة الثالثة والربع صباحا ليختبئا فيها ·

واتضح للمقدم ايفان أن بقاءه فى مكانه سيعرض غواصته كلها للخطر · فقرر الابحار والعودة الى ميناء حيفـا لكن أحد مساعديه قـال :

ـ فلننتظر بعض الوقت ، فقد يعودون ٠

ـ لا تنس أننا بذلك نعرض أكثر من خمسين بحارا للخطر مقابل ستة فقط ٠

ـ بعض الوقت القليل لن يسبب مشكلة ٠

نظر ايفان الى ساعته متضايقا وقلقا ٠

ظلت الغواصة على مقربة من المكان المحدد لالتقاط الغواصين الستة ٠ الى أن ظهرت فرقاطة مصرية مضـادة للغواصات من طراز « سلوب » (هكذا اكتشفها السونار بالغواصـة) فأسرع ايفـان باصدار الأوامر بالهروب بأسرع ما يمكن ٠ بعد أن أرسل رسالة الى قيادة البحرية فى حيفـا ٠ شارحا فيها ما حدث بالتفصـيل فيأمرونه هناك بالبقاء بعيدا عن الشاطىء المصرى فى نقطة محددة ٠ وأن ترسو الغواصـة على القاع فى انتظار أوامر جديدة ٠

* * *

حمل عبد الله رشاشه قبل موعد حراسته بربع سـاعة ٠ وصعد الى سطح السفينة ٠ داعب العديد ممن يقابلونه فى طريقه خاصة الذين أوصوه بشراء أطعمـة لهم ٠ ووقف فى مكانه قبل موعده بدقائق ناظرا الى المـاء الأسـود أمامه فالأضواء تكاد تكون معدومة فى هـذه المنطقة ٠ السفينة الهولندية التى كانت تجـاور الفرقاطة برحت مكانها ربما أحست بالخطر فأبحرت بعيدا ٠ ليس هناك سوى كراكة صدئة ٠

لمح عبد الله شبحا يسير بجوار الكراكة المجـاورة ٠ فرفـع رشاشته وحرك أجزاءه استعدادا لاطلاق الرصاص ٠ لكنه بعد وقت قصير جدا اكتشف أنه الخفـير النظـامى الذى يحرس الكراكـة

الصدئة · تابعه عبد الله مبتسما بعد لحظات اقترب الخفير بمعطفه الأصفر من الفرقاطة وسار فوق سطح كراكته وقال :

ــ من يقوم بالحراسة الليلة ·

صاح عبد الله :

ــ أنا يا رجل يا عجوز ·

معروف عن ذلك الخفير انه « يشحت » السجائر من القائمين بالخدمة · يتسلى بها فى وقت حراسته للكراكة رمى عبد الله علبة سجائره الى الكراكة · كادت تقع فى الماء · لولا أنه أسرع بالتقاطها ·

ظل عبد الله يتابع الكراكة حتى رأى الخفير يلف جسده جيدا بالمعطف وينام داخلها مطمئنا · فمن ذا الذى يفكر فى تفجير كراكة قديمة صدئة خرجت من الخدمة منذ سنوات طويلة · ولولا الروتين السخيف لبيعت الى تجار الخردة · والخفير يحرسها طوال الليل ليس خوفا من تفجيرها وانما خوفا من لصوص الميناء الذين من الممكن ان يسرقوها قطعة قطعة ويخرجون بها من باب الميناء ·

عاد عبد الله الى رؤية الماء أمامه · بمرور الوقت اعتادت عيناه رؤية الأشياء من خلال الظلام · وبدأت تميز أنواعها ·

فكر فى صابرين ، سيدعوها الى فسحة فى المنتزه بعد انتهاء الأزمة وهدوء الجو واستقرار الحال وسيدعوها مع أسرتها جميعا الى حفل عشاء فى فيلته · هى ووالدها الحاج وأحمد · سيأتى عبد الله بطباخين من الفرقاطة ليعدوا لهم أطعمة لم يتذوقوها فى

حياتهم . وسيجعل صابرين واسرتها يحكون عن هذه السهرة لسنوات عديدة قادمة .

يقترب الكومندان حسن المختار . الرجل فقد كثيرا من وزنه خلال هذه الأيام . من شدة الأعصاب التى يعيشها ومن الجهد الذى يبذله . رغم ذلك يبتسم لكل من يقابله :

ـ هاه . يا حضرة الشاعر ألفت قصيدة وانت تنظر الى مياه البحر .

ـ كدت . لولا حضور سيادتك فجأة .

يبتعد الكومندان . يتابع عملا آخر ...

* * *

تنطلق الفرقاطة مصر الى عرض البحر .. هكذا صدرت لها الأوامر بالانطلاق ....

فجأة يلمح عبد الله حوالى أربع أو خمس طوربيدات تتجه ناحية الفرقاطة . فيصيح بأعلى صوته :

ـ طوربيدات عدو . أفندم .

يسرع حسن المختار . يوجه « ضمان » الفرقاطة من فوق سطح المركب « الممشى » ينظر الى تليسكوب يكبر ٢٠٠ مرة . يستطيع بعبقرية شديدة ان يهرب بجسم الفرقاطة من الطوربيدات الموجهة اليه .

كل أفراد الفرقاطة يصيحون فرحين عند زوال الخطر وابتعاد الطوربيدات :

ـ الله أكبر .

لولا الحراسة المكلف بها عبد الله . لأسرع ليقبل ذلك الرجل النادر وجوده : حسن المختار .

تزيد الحراسة على سطح الفرقاطة . يأتى صول حاملا رشاشه . يقول :

ـ الكومندان فى انتظارك فى حجرته .

يسرع عبد الله هابطا الدرجات . حتى كاد ينزلق من فوقها . يجد الرائد سيف قائد سلاح الصواريخ للغواصات .. يسمع عبد الله حسن المختار يقول :

ـ نجاح لفرقاطتنا . أن تهرب من هذه الطوربيدات . والنجاح الآخر الذى باذن الله سنفوز به . هو أن نصيب هذه الغواصة التى تجاسرت واقتربت منا ، بدون صواريخ مضادة للغواصات . فهى غير موجودة عندنا . ما رايكما ؟

ـ تحت أمرك يافندم .

هكذا صاحا معا .

يقف حسن المختار والرائد سيف . ويتبعهما عبد الله . يمسك الكومندان ضمان الفرقاطة . ينظر الرائد سيف من خلال جهاز السونار الذى يكشف كل الأشياء حوله . يصيح حسن المختار :

ـ حدد لى مكانها بالضبط . وساقترب منها على حذر .

هدأت الأصوات . صارت الكلمات كالهمس . وأحيانا بالاشارة . وحسن المختار بين الضمان وجهاز السونار وباشارة

من يده • أسرع سيف وعبد الله الى مكان القاء المفجرات على سطح الغواصــة • لابد أن يتأكد الكومنــدان أن الفرقاطة ركبت فوق الغواصــة تماما • وأن ما ستلقيه من الكوة المخصصــة لذلك • ستصيب ظهرها •

دحرج عبد الله المفجرات • وهى تشبه البراميل الصغيرة • وتبعه سيف • كوة الفرقاطة مفتوحــة وعند اشــارة الكومندان ستلقى هذه البراميل الصغيرة •

لم يســمع أحد صوت انفجــار • ولا أى شىء يدل على أن الغواصة انفجرت •

* * *

فى الساعة الثالثة وخمس وثلاثين دقيقــة ظهرا •• تصــل رسالة القيادة وتطلب من الغواصة الاسرائيلية التمســاح الدخول ثانية الى بعد ٢ كيلو متر من الشاطىء المصرى فى اتجاه النقطــة المحددة نفسها لالتقاط الضفادع الستة ومتابعة المكان • من خــلال أجهزة الغواصة • لكن القيادة فى حيفا لم تكن تعلم أن الغواصــة تعانى وتقاوم الغرق فقد ألقيت على ظهرها قنبلتــان فأصابتــا مؤخرتها اصابة بالغة • جعلتها تسير على حافتها وكأنها انسان يعرج •

* * *

كان الرائــد ايتان يضــع اللغم فى بدن سفينــة تقف على المحطاف • لكن « الحشف » (نباتات فطرية ملساء تلتصق بجسم السفينة) حالت دون ان تلتصق زراجين الألغام بها • فأخرج ايتان خنجره من مكمنه ليزيل ذلك الحشف •

لكن الزوارق المصرية التى تدور فى المنطقة • جعلته يقفز الى اقصى عمق يستطيعه ليهرب من قنابل الأعماق التى تلقيها الزوارق فى المـاء •

أما ايلان وجلعاد فقد سبحا واقتربا من الشـاطىء المصرى وحددا سفينة قابعة قريبـا من الرصيف وعندما يقتربان عنهـا يكتشفان أن الزراجين التى تلصق اللغم ببدن السفينة قد فسـد وأصابـه البلل • ولم يعد صالحا للاستعمال فأحسا بالاحبـاط وخيبة الأمل الشديدة •

* * *

يمكن للسـفن التى ترسـو على المخطـاف ان تتحرك حول نفسها • بعكس السفن التى ترسو على الرصيف فلا تجد مجـالا للتحرك • لذا • تحركت السفينة الناصر وأصبحت مقدمتهـا التى عاينها ايتان من قبل • وحدد مكانها ، بعيدا عن مكانها القديم • وجانبها الأيمن لم يعد فى مكانه • وظن ايتان أن الكراكة الصـدئة التى خرجت من الخدمة منذ زمن بعيد ، هى السفينة التى حددها من قبل • وكاد أن يلصق اللغم فيها ، لولا أن احس به الحارس •

اقترب ايتان من الكراكة وألصق اللغم بها دون صعوبـة • فهى ليس بها حشف فى حاجة الى ازالة ورفع اصبعه الابهـام لزميله ذابيك الذى كان يحميه من بعيد • بعلامة النصر • ثم أسرعا بالابتعاد •• وانفجر اللغم فى الساعة الخامسة صباح يوم الاثنين الخامس من يونية ٦٧ ، ليموت الخفير النظامى الملفوف بمعطفـه الأصفر • والقابع داخلها ليحرسها من لصوص الميناء •

* * *

يصل ايلان وابراهام مخلوف الى المكان الذى حدده المقدم ايفان لعودتهما الى الغواصـــة ·· وذلك بعد الثالثة والربع من صباح اليوم · فقد أحس ايلان بالاعياء · واضطر للاختبـاء بعيدا ومعه ابراهام مخلوف ·

كان ايلان قد التحق بالكوماندوز فى مارس ٦٧ من البحريـة الاسرائيلية · ولم يستغرق تدريبه سوى مارس وابريل ومايو · وهذه أول عملية فعلية يقوم بها ·

ظن ايلان ومخلوف ــ أول الأمر ــ أن الغواصـــة قد حملت زملاءهم الأربعة وأبحرت · بعد أن يأسوا من الحصـــول عليهما · وظلا فى انتظار الغواصة لبعض الوقت دون فائدة ·

كان ابراهام مخلوف يردد من وقت لآخر :

ــ لا فائدة من الانتظار · ولابد من الاعتماد على النفس ·

لم يكن أمامهما سوى اتباع الأوامر الصـــادرة لهما · وهى الذهاب الى قلعة قايتباى للراحـــة · واســـتبدال ملابس الغوص السوداء بملابس دكرون (معلقة فوق ظهريهما ومغطـــاة بطبقة من البلاستيك ليحميها من البلل) ثم التصرف بعد ذلك ·

قال مخلوف :

ــ اننى أعرف هذه القلعة وكثيرا ما ذهبت اليها لاصطـــاد السمك من أمامها ·

سبح الاثنان الى أن وصلا الى الشاطىء · المكان مظلم وايلان لا يعرف فى أى مكان يسير · لولا ابراهام مخلوف السكندرى الأصل ما استطاع ايلان الوصول الى القلعة وحده ·

قال مخلوف :

ـ اخشى أن تكون القلعة قد عمرت ٠ وأصبح فيها سكان أو عمال ٠

ـ أكيد الموساد يعرف عنها كل شيء ٠ والا ما كان اختارها لنا ٠

قال ايلان :

ـ أحس بتعب شديد ٠ انني فى أشد الحاجة للراحة ٠

ـ ها هى القلعة أمامنا ٠ دقائق معدودة ونصل اليها ٠

لم يجدا صعوبة فى الوصول اليها ٠ المكان مظلم تماما ليس هناك مصباح واحد لينير المكان ٠

أرتمى ايلان فوق الأرض الترابية فأحس بآلام شديدة أثر اصطدام جسده بالحصى الملقى فى كل ركن ٠ ساعده مخلوف فى الانتصاب ٠

ـ اسرع ، لابد من التوارى فى الداخل ٠ والا اكتشفوا أمرنا ٠

سار ايلان الى الداخل وخلفه مخلوف ٠ ابتعدا عن الطريق المؤدى الى البحر ٠ شما رائحة عفنة ٠ فكثير من الرجال ـ خاصة الصيادين ـ يتخذون منها مرحاضا عموميا ٠

تخففا من بعض الأجهزة التى تثقل كاهليهما ٠ وتمددا فوق الأرض اليابسة ٠ ود ايلان لو نام بعض الوقت ٠ لكن من أين يأتى النوم وهو فى أشد حالات الخوف ٠

أخرج ابراهام مخلوف الريتسا من مكمنها ٠ وأخرج خنجره، وشقها من منتصفها ٠ وقدم ما فى داخلها الى ايلان ليأكله ٠ ثم فتح له واحدة أخرى وشقها ٠ ثم أكل ما فى داخلها ٠

كان الاعياء واضحا على ايلان • بينما ابراهام مخلوف متماسكا • فنظر الى جدران القلعة العتيقة •

بعد ذلك أخرج مخلوف لفائف صغيرة من الشيكولاتة • فض واحدة ودسها فى فم ايلان • فأخذ يلوكها شاردا وفض مخلوف أخرى ولاكها أيضا •

بدأ ضوء الشمس يتسلل الى القلعة من منافذها الحجرية الكثيرة • فقام مخلوف فجأة :

ـ ايلان • هيا نسرع بالخروج قبل أن يأتى أحد الى هنا •

ـ ألا تقول انها قلعة مهجورة •

ـ نعم • لكن الصيادين يقصدونها دوما •

قام ايلان دون كلمة أخرى •• خلع ملابس الغطس • وارتدى بذلة دكرون قريبة الشبه بالبذل الصيفية التى انتشرت فى مصر أخيرا • وكان تصميم ادارة البحرية الاسرائيلية لها ، أن تكون مثل سائر ملابس المصريين الصيفية حتى لا تثير الدهشة والريبة •

أخفيا ملابس الغطس فى مكان مظلم • وبعيدا عن أعين الداخلين الى القلعة • وصاح ايلان :

ـ أين سنذهب ؟

ـ لدينا ألغام عديدة لم تنفجر •

ـ لا • هى ليست ذات أهمية • نفجر مدافع سيدى بشر التى تهدد السفن الاسرائيلية •

ـ سيدى •• بشر • هذه داخل البحر ؟

ـ لا · مبنى عسكرى عتيق مواجه للبحر · أعرفه جيدا · لا تهتم ·

ـ لكن ·····

ـ لا تضيع الوقت · قد يأتى الصيادون الى القلعــة فى اى وقت ·

وخرج ايلان ومخلوف فى طريقهما الى ســيدى بشر حاملين لغمين داخل لفافتين بلاستيكيتين · قال مخلوف :

ـ دعنى أتحدث مع سائق التاكسى والمــارة · فلغتى ليست بعيدة عنهم ·

- ١٧ -

وصلت الضفادع البشرية الأربعة الى قلعة قايتباى بعد خروج ايلان ومخلوف منها بدقائق معدودة .. كانوا يلهثون جميعــا من تعب السباحة التى قطعوها طوال اثنتى عشرة ســاعة ، ليبدلوا ملابس الغطس ببذل دكرون خاصة بالهروب داخل المدن ..

أرتموا فى الداخل منهكين . بعد لحظات قصار لمحوا انسانا يأتى ناحيتهم . وقف ايتان ، وأخرج خنجره مستعدا لمقابلته . وابتعد دانى وجادى حتى لا يراهما القادم . أما ذابيك ــ زميــل ايتان فى المهمة ــ والذى قضى أكثر من اثنتى عشرة ساعة مربوطا بحبل طوله متر ونصف المتر مع ايتان وهما يسبحان . فقد وقف لحمايتــه .

لكن ذلك الانسان توقف عند مصــدات الأمواج الكبيرة . وفرد كرسيا مقعده من القمــاش وجلس فوقه . ثم مد سنارته ليصطاد السمك فى هدوء .

صاح ذابيك ضاحكا :

ـ انه صـياد ٠

وقال ايتان :

ـ اطمئنوا ٠ الرجل لم يكن يصدنا ٠

التصق داني وجـادى بالحـائط حتى لا يراهم من يأتى من بعيد ٠ وفضـوا باقى مكعبات الشيكولاتة التى تصرفها البحريـة الاسرائيلية لهم ٠ ووضع كل منهم قطعة فى فمه راغبا فى أن يلوكها٠ لكن الفم توقف عن الحركة ٠ الخوف شـل كل أعصاب الجسم ٠ قال ايتان وكان أكثرهم شراسة :

ـ من رأيى أن نقتل ذلك الصياد ونرتاح ٠

صاح جادى وكان أكبرهم سنا :

ـ الرجل لم يرنا ٠ وليس له شأن بنا ٠

وقال داني وهو يتثاءب :

ـ ارغب فى النوم ٠

ضحك ذابيك :

ـ تريد أن تنام رغم الخطر الذى يحيق بنا من كل جانب ؟

ـ لقد سبحنا أكثر من كل الأوقات التى سبحناها منذ أن التحقنا بالضفادع البشرية ٠

تابعوا الصـياد فى قلق وخوف ٠ رغم أن الرجل لم يلتفت اليهم ولا كان يحس بهم ٠ قال ذابيك :

ـ لو قتلناه سنترك أثرا فى المصريين أنفسهم ٠

اكمـل ايتـان :

ـ خاصة أننا لم نقم بالمهمة بنجاح ٠

قـال جادى :

ـ فسدت زراجين الألغام وأصبح من المستحيل الصاقهـا ببدن السـفن ٠

قال دانى هو مازال يتثاءب :

ـ لا تنسوا أن ايلان وابراهام لم يأتيا بعد ٠ وقد يراهمـا الصياد وهما يتسلقان الصخور فى طريقهما الى القلعة ٠

صاح ايتان :

ـ دانى يقول الحق رغم أنه نائم ٠

أكدوا جميعا على قوله هذه المرة ٠ فقتل الصياد ـ الآن ـ ضرورة وحماية لهم ولزميليهما اللذين قد يأتيان فجـأة وسيراهما الصياد لاشـك وهو ناظر الى المـاء فى انتظار أن تشبك سـمكة فى سـنارته ٠

صـاح ذابيك :

ـ أذهب اليه يا ايتان بخنجرك وسأحميك ٠

قبل أن يخطو ايتان خطوة واحدة ٠ جاء صياد آخر يلبس نظارة ٠ تحدث مع الصياد الجالس ٠ لوحا بأيديهمـا ثم حمـل الصياد ـ الذى كان يجلس ـ أمتعته وسار مع زميله ٠ ربمـا اكتشفا وجود مكان آخر فيه صيد أوفر ٠

ضحك ذابيك قائلا :

ـ انكتب له عمر جديد ٠

قــال دانى :

ــ قل انكتب لنا عمر جديد ٠

قــال جادى :

ــ لقد استردينا أنفاسنا الآن ٠ وعلينا الآن أن ندخل القلعة على حذر ، نكتشف ما بها ٠ ونبتعد عن مرمى البصر ٠

قــال ايتــان :

ــ لن نرتاح فى الداخل ٠ مكاننا هذا يكشف لنا الداخل الى القلعة ٠

قــال ذابيــك :

ــ ندخل القلعة ، ونترك أحدنا يحرس المدخل ٠ ويبلغنــا بأى خطر ٠

قال دانى فى ملل :

ــ ألن نرتاح من هذه الحراسة اللعينة ؟

حملوا أمتعتهم وساروا الى الداخــل قبل أن يحــددوا من سيبدأ بحراسة المدخل ٠ افترشــوا الأرض فى الداخل اختــاروا مكانا مواجها لنافذة بلا غطاء ٠ مواجهة للبحر ، تنير المكان ٠

خلع دانى بعض أجزاء ملابس الغطس ٠ ارتاح ٠ قبل أن يفعل الباقى مثله ٠ سمعوا صوتا غريبــا فى المدخل ٠٠ صوت حركة اقدام فوق الحصى ٠ نظروا الى بعض فى خوف ٠ ثم تلامسوا صــامتين ٠

وتعالى صوت غلام فى حوالى العاشرة يغنى :

ـ صـياد ورحت اصطـاد   صادونى

رموا شباكهم رموش العين   صادونى

كان الولد حسن الذى يعمـل لدى الحـاج الدسوقى شيخ الصيادين واعادته عواطف الى المدرسة منذ أيام قلائل •

قـال جـادى :

ـ انه ولد صغير •

صـاح ايتـان :

ـ صغير أو كبير من الممكن أن يكون سببا فى قتلنا •

أحس دانى بالضيق من العملية كلها • كل ما قالوه له اتضح كذبه : السفن متلاصقة كموقف التاكسيات فى تل أبيب ولن تجدوا صعوبة فى الصاق الألغام بها • والقلعـة مهجورة ليس بها أحد • لو تقيموا فيها شهرا • أو أكثر لن يحس بكم أحد •

اقترب الولد حسن من جدار مواجه للمكان الذى اجتمعوا فيه ، وتبول •

اعتاد حسن دخول القلعة كل يوم • يهرب فيها من العمـل لدى الحاج ، يغنى بصـوت مرتفع داخلهـا • فيسمع صـدى صوته • ثم ينام ساعة أو ساعتين ويعود الى دكان السمك •

وكان يأتى مع أصدقائه ـ أبناء المدرسة ، أو أبناء الحى ـ يلعبون « ولـأن » • يشكلون أنفسهم الى فريقين •• يختبىء فريق • والآخر يبحث عنه • والقلعة واسـعة وخالية وبها أركان ومنافذ يسهل اللعب فيها • قل ذابيك :

ـ سأخرج وأقتله بخنجرى •

أحس الولد بحركة غير عادية خلف الجدار المواجه • أكمل نبوله وهو صامت كف عن الغناء وعن التصفير بفمه • ونظر الى هناك • رآهم أمامه • أشباحا يرتدون ملابس ســوداء ويعلقون أقنعــة فى رقابهم • أيكونوا عفاريت ؟ القلعــة كانت محل حروب عديدة • وقتل فيها الكثير على مر التاريخ • هكذا يقول مدرس التاريخ فى المدرسة •

اقترب ذابيك بخنجره • فأسرع الولد • هو يعرف مداخل ومنافذ القلعة • كثيرا ما اختبأ فيها من معلمه الذى يشرف على محل الأسماك الذى يمتلكه الحــاج الدسوقى • فيجىء معلمــه ليخرجه من القلعة ، فلا يجده فيها أبدا • يخرج الولد من أماكن لا تخطر على باله • ولا يعرفها الا القليل •

قفز حسن الى حجرة بعيدة مظلمة يقولون انه كان يتم اعدام الجناة فيها • أو الخونة أو الأعداء •

وقفز من نافذتها المواجهة للبحر • ومنها الى الشــارع • تذكر ما يقولونه فى القهوة عن رؤية سفينة مصرية لغواصــة جاءت لتلقى بالضفادع البشرية لقتل أهالى الاسكندرية •

صاح الولد بصوته الحاد وسط الصيادين القريبين من حلقة الســمك :

ـ ضفادع بشرية فى القلعة • ضفادع بشرية فى القلعة •

تجمع الصيادون من القهوة المجاورة • وجاء من كان بالحلقة تاركين أشياءهم وحاملين ما استطاعوا حمله من سكاكين وعصى وحــديد •

* * *

قـال داني :

ـ الولد كالعفريت • قفز قفزات سريعة كالبهلوان •

أدخل ذابيك خنجره فى جرابه وصاح :

ـ فلنترك القلعة حالا • فسوف يعود الولد بالأهالى •

وأكد ايتان على قوله :

ـ سيعود بكل أهل الاسكندرية •

وقـال جـادى :

ـ وماذا سنفعل ؟

قـال ايتـان :

ـ نختبىء الآن خلف مصدات الأمواج •

قـال داني :

ـ فى المكان نفسه الذى كان الصياد يصطاد فيه •

أعادوا الأقنعـة الى وجوههم • وتأكدوا من وجود كل شيء فى مكانـه •

* * *

عاد عوض ممسكا بيد ابن أخيه حسن ، الذى كان يبـكى بشدة وخلفه العديد من أهـالى الحى • أحدهم حمل مجدافا غليظا فوق كتفه • وآخر أمسـك سكينا كبيرا • وفران أخرج من النار حديدة ـ يقلب بها الوقود ـ كانت حمراء ملتهبـة • والحـاج الدسوقى حمل مسدسه المرخص لأعلى وسار به • أما الحـاج سماحة فقد أشهر موساه الذى يطاهر به الأولاد •

خبر موت الخفير النظامى داخل الكراكة الصدئة انتشر فوق القهاوى وخرجت أرملته تصرخ وسط حوارى بحرى وتصيح :

ــ ياهوه ·· يا هوه ·· قتلوه اليهود

ــ ياهوه ·· ياهوه ·· قتلوه اليهود

قال الولد حسن وهو مازال يبكى :

ــ احدهم اشهر خنجره · لكنى هربت منه ·

قبل أن يدخلوا القلعة ، صاح الحاج محمد سماحة وهو مازال يشهر موساه لأعلى :

ــ احذروا فقد تكون معهم رشاشات وقنابل ومدافع ·

قال الولد حسن :

ــ أعرف أماكن دخول غير هذا المدخل ·

العديد منهم ــ خاصة الأولاد يعرفون هذه المنافذ البعيدة والمواجهة للبحر · ويتطلب الوصول اليها المشى بحذر على سياج طويل فوق البحر ·

دخلوا من هــذه المنافذ · أشعلوا مشاعلهم لينيروا الطــريق امامهم · لم يجدوا شيئا · قال الحاج الدسوقى :

ــ فى أى مكان هاجموك ؟

اشار الى المكان · بحثوا فى الأرض بحذر ودقة · رأوا قطعا من الشيكولاتة تركوها دون أن يفضــوا غلافها · ووجدوا حزاما لشد غطاء الوجه ملقى ، وقع من أحدهم دون أن يحس ·

وفى أماكن أخرى من القلعة رأوا أشواك الرتسة • واغلفة الشيكولاتة • وفى ركن بعيد وجدوا ملابس الغطس التى تركها ايلان وابراهام مخلوف كاملة • قال سماحة :

ـ دعوا كل شيء فى مكانه • وسأذهب الى ضابط نقطة الأنفوشى • ليعاين المكان •

وجاء الضابط • وهو معروف لديهم • وصديق لأكثرهم • يجلس معهم فى القهوة • ويشاركهم مناسباتهم •• كان معه العديد من المساعدين • حملوا البطاريات للاضاءة • عاينوا الأشياء التى تركها الضفادع الاسرائيلية بعناية ثم حملوها معهم وخرجوا وهم يتحدثون مع الحاج سماحة والحاج الدسوقى •

***

توقف التاكسى الذى يقل أحمد الدسوقى وعواطف على كورنيش البحر أمام الشارع التالى لقلعة سيدى بشر • ذات المدفعين الكبيرين المشهورين والموجهين الى البحر •

قال أحمد للسائق :

ـ توقف أرجوك •

قالت عواطف :

ـ الن تاتى البيت معى ؟

ـ لا • سأنزل هنا • لا اريد أن أدخل بيوتا الآن • أحس باختناق • سأسير على البحر •

ـ الى متى ؟

ـ لا أدرى · سأمشى حتى أتعب وقد أنام على الشاطىء ·

نزلت عواطف · هى التى أعطت للسائق اجرته · أحمد فى حالة لا تسمح له بفعل شىء · ملابسه ممزقة من شد الناس لها · ومهرولة · وهو شاحب ومتعب · قالت :

ـ سأسير معك ولو حتى للصباح ·

ـ ارجوك اذهبى الى البيت ودعينى ·

صاحت فى تحد وثورة :

ـ لن أتركك أبدا وأنت فى هذه الحالة ·

بكت هى ·· وهو كان كالولد الذى يعاند أمه · ويعذبها برفضه · وهى جزعة عليه · سار معها دون كلمة ·

منظر الناس وهم يهجمون عليه راغبين فى ضربه وسبابهم له ما زال يطارده · لا يبرح مخيلته أبدا · وابراهيم فهيم بأنفه المنتفخ الكبير يفح هواء فاسدا ملوثا · ونيران تشعل جسد أحمد ·

اقتربا من كازينو على البحر · قالت :

ـ أراك متعبا · تعال لترتاح ·

نظر اليها مندهشا :

ـ عواطف · لا أريد أن أتعبك أكثر من ذلك · اذهبى الى البيت الوقت متأخر ·

ـ لا أستطيع أن أتركك وأنت فى هذه الحالة ·

دخلا الكازينو معا · جلسا قريبا من البحر · قال

ـ الأسطى محفوظ أكيد قلق عليك ٠

ـ أعلم ٠ لكن ماذا افعل ؟

ظلا هكذا ٠ ينظر هو الى مياه البحر السوداء تحته صامتا ، كانت هادئة وحزينة ٠ ثم وقف فجأة :

ـ هيا ٠ سأوصلك الى البيت ٠

ـ بل ستذهب معى اليه ٠ ستقضى الليلة معنا ٠ فى الصباح تفعل ما يحلو لك ٠

ـ أى ليلة ٠ الفجر اقترب يا عواطف ٠

عاد ثانية فوق الرصيف الآخر ٠ قبل قلعة سيدى بشر وجد رجلا عجوزا فات الستين بقليل (يبدو هذا من شعر راسه الأشيب) كان يقف على ناصية الشارع المؤدى لبيت عواطف ٠ عندما رآهما آتيان نحوه صاح :

ـ يا أستاذ ٠ يا أستاذ ٠

ود أحمد لو تحاشاه وتظاهر بعدم السمع ٠ لكى يقف ويتحدث معه ٠ يريد أن يقضى الساعات الباقية من الليل دون أن يتحدث مع أحد فى أى موضوع ٠ قالت عواطف للرجل :

ـ ماذا تريد ؟

تركها الرجل ٠ وأمسك ذراع احمد :

ـ اننى أقف هنا منذ وقت طويل ٠

أراد أحمد أن يدفع يده عنه بعيدا ٠ ويسير ٠ قالت عواطف التى اعتبرت هذا من سوء الحظ ٠ فهى تريد أن تريح أحمد وتخرجه من حالته السيئة ٠ فيأتى هذا ليزيد حالته سوءا ٠

ـ وما شأننا نحن • قف حتى للصباح لو أردت •

أمسك ذراع أحمد ثانية وقال :

ـ اصطبر قليلا • لاحظت أن أحد الشباب يتسلق جدران قلعة سيدى بشر • وآخر يتابعه • وينظر حوله فى ترقب وحذر •

قالت عواطف باستخفاف للرجل :

ـ ذلك أمر بديهى • اننا فى حالة حرب ـ وأكيد ـ يعدون القلعة لذلك •

أحس أحمد بالقلق • نسى كل همومه وصاح فى الرجل :

ـ تعال معى لنعرف حقيقة ما يحدث •

صاحت عواطف بعد أن أحست بأن أحمد هذا يبحث عن المشاكل بطريقة غريبة :

ـ وما شأننا بهما • انهما عسكريان •

كان أحمد أول من وصل الى مخلوف • سأله :

ـ ماذا تفعل هنا ؟

ارتبك مخلوف أول الأمر • وارتعش • كاد ينكشف أمره • فكر فى أن يجرى • خاصة أن هذين الرجلين مدنيين ولا يحملان سلاحا • فكر بسرعة فى أشياء عديدة • ووجد أن الحل هو أن يلعب بعقول المصريين • وقد أفهموه هناك أن ذلك سهلا • وهو سكندرى الأصل ويعرف مدى طيبة الناس :

أنا موكل من مقاول البناء بعمل ترميمات لجدار القلعة •

ـ بطاقتـك من فضـلك ٠

كان قد تجمع العديد من المـارة ٠ رغم أن الوقت متأخر ٠ أحاطوا بمخلوف ٠ صوته لم يكن عاديا ٠ فيه لكنة غريبـة تكشف عن غربته ٠ أمسكه أحمد بيد من فولاذ ٠ لم يستطع أن يخرج خنجره ٠ سلاحه الوحيد :

ـ أنت من الكوماندوز الاسرائيلى ٠

أحد الرجال ـ وكان شابا فى مقتبل العمر ـ فتش مخلوف اخرج خنجره ٠ صاح أحمد :

ـ أبلغ زميلك بأن ينزل ٠

كان جنود قلعة سيدى بشر قد جاءوا من الداخل ٠ ولا تدرى كيف ؟ ومتى صعدوا ليأتوا بايلان ؟ والتف الجميـع حولهمـا ٠ صاح أحمد :

ـ ابطلوا مفعول الألغام قبل أن ينفجر ٠

* * *

انهى ابراهيم فهيم ليلته الطويلة التى لم يحس أنه عـاش ليلة اطول منها فى حياته ٠ كان يبنى آمالا كبارا على لقاء الليلة ٠ ان يكون مسئولا عن الاتحـاد الاشتراكى عن دائرة الجمرك ٠ ثم عضـو مجلس أمة ٠ ومسـئول الشباب فى المحافظة كلهـا ٠ لكن احمد هذا جاء كالعفريت الذى خرج من القمقم ليفسد كل خططـه ٠٠

غبى ٠ ماله هو ومال البلد ٠ البلد لها رئيس ومشير وحكومة ووزراء ومجلس أمه وبوليس ٠ كل هؤلاء لا يعرفون الحقيقـة وهو الوحيد الذى يعرفها لمجرد انه عاش فى ألمـانيا بضع سنين ٠

نعرف أن أمريكا وراء اسرائيل • وأن الأمريكان هم أسياد العالم وهم الذين يمنحون المساعدات والمعونات لمن أرادوا • وإن من الغباء أن نغضبهم ونحارب اسرائيل التى يعشقونها • لكن ما لنا نحن ومال هذا الحديث • البلد لها مسئولون يقررون ونحن خلفهم كما يريدون •

المهم أن غباءه المفروض أن يصيبه وحده • لكن من الممكن أن يصيب أبرياء معه •

بعد أن انتهى اللقاء ركب ابراهيم بجوار الفرماوى فى سيارته وأصر أن يذهب الى بيته ليوصله • ودعاه الفرماوى الى بيته لكنه اعتذر • ووعد بأن يأتى اذا ما حدث حادث سعيد لديه •

وركب ابراهيم ترماى الرمل • لحق ـ لحسن الحظ ـ بآخر ترام فى تلك الليلة العجيبة • وسار على قدميه من محطة الترام حتى بيت خاله الذى ليس بقريب من المحطة • فوجىء أمامه بتجمهر • سأل :

ـ ماذا حدث ؟

ـ هذا الشاب ـ الله يحميه ـ أمسك ضفدعين بشرين اسرائيليين •

وعواطف وسط الجميع بقامتها التى تميل للقصر • تتحدث وتلوح بيدها وتشير الى الاسرائيليين اللذين يمسكهما الجنود •

أبتعد ابراهيم • تابع الموقف من بعيد • لقد جاء ليحتفل بانتصاره مع خاله محفوظ وابنة خاله التى أتعبته • لكنه يفاجأ بحدث لم يخطر على بال •• أحمد الدسوقى الذى يشكك فى مقدرة الجيش المصرى على الانتصار • كان سببا فى القبض على ضفدعين اسرائيليين ، وأمام عواطف وسيذهبان بعد ذلك الى خاله الذى

ينتظر فى البيت .. سيضحك الرجل ـ كعادته ـ ويضم أحمد لصدره ، وستكون الجلسة كلها حول هذا الحديث . وربما ستتحدث الصحف عن هذا . وسيتحدثون عن بطولة هذا الطبيب الذى كان يدرس الطب فى المانيا وجاء وقت الحرب .

ابتعد ابراهيم مخزيا . التصق بعمود نور فى أول الشارع الذى يقع فيه بيت خاله . تابع الموقف من مكانه . استعاد أحمد نشاطه وحيويته . الضفدعان البشريان قريبان جدا منه وهو يحرسهما مع الجنود ليت أحدهم يخرج خنجرا أو مسدسا ويقتله ليستريح ابراهيم .

فجأة توافد عدد كبير جدا من الرصيف المقابل . ملأوا مدخل الشارع الذى يقطع كورنيش البحر . انهم رواد المسرح القريب . انتهى العرض وهاهم يعودون الى بيوتهم . واجهوا ابراهيم الذى يقف وحده بعيدا يتابع الموقف فى أسى . سأل أحد رواد المسرح :

ـ ما الذى يحدث ؟

لا يدرى ابراهيم كيف فكر سريعا وأجاب . لاشك هو لم يقل ما قاله . انما شيطانه تدخل وانقذه . قال :

ـ ثلاثة ضفادع بشرية كانوا يريدون نسف قلعة سيدى بشر .

قال آخر :

ـ اين هم ؟

ـ هذان اللذان يلبسان الدكرون الزيتى . والآخر الطويل ذو الشعر الأصفر الذى يرتدى القميص الأبيض الممزق .

أسرع رواد المسرح الى الجميع . امتدت يد احدهم ، صفعت أحد الضفدعين ، وآخر صفع أحمد فى عنف :

ــ يا يهودى .

رأت عواطف ابراهيم مازال يتحدث مع رواد المسرح ، ويشير الى أحمد . أرادت أن تجرى نحوه . لكن جمع كبير هجم على الضفدعين وعلى أحمد . قال أحدهم :

ــ شكله واضح انه يهودى .

حاول أحمد الدفاع عن نفسه . صاح :

ــ أنا مصرى مثلكم . لست منهم .

وصاح :

ــ لا تضربوهما . دعوا الشرطة تحقق معهما .

قال آخر :

ــ هو يهودى مثلهم . لذلك يدافع عنهم .

وقال زميله :

ــ هو الذى أخذهم الى قلعة سيدى بشر . هو يهودى يعيش معنا هنا . جاسوس علينا .

دخلت عواطف وسط الجمع . ضمت احمد لصدرها وصرخت :

ــ ابتعدوا عنه . ابتعدوا عنه . انه زوجى . زوجى .

صاح أحد الرجال :

ـ تدافعين عن يهودى جاء ليقتلنا ؟ •

الرجل العجوز الذى دل أحمد على الضفدعين صاح :

يا عالم يا هوه • هو ليس معهما • صـدقونى • هو الذى أمسك بهما • كان يمشى مع زوجته فى أمان الله • وناديت عليه • لكن صوت العجوز ضاع وسط الأصوات الأخرى الأكثر علوا •

ابراهيم فهيم سعيد • لقد كان السبب فى ضرب أحمد هـذه المرة • والسبب فى محاولة ضربه فى المرة السابقة عند اجتمـاع الاتحاد الاشتراكى •

ردد لنفسه سعيدا « ها قد أوقعت به • عقلى يوزن بلد • الشيطان نفسه لا يعرف كيف يخطط مثلى » •

ساقت الجماهير الثلاثة الى قسم الشرطة • الدماء تغطى وجه أحمد • وأخذ الرجال يمسـكه من ياقة قميصـه وآخر من بنطلونه • وعواطف تصرخ وتشد الذين يمسكونه • بعض الصفعات جاءت فوق وجهها ورأسها وظهرها لم تهتم • التصقت بأحمد عندما زادت الضربات عليه • كان يلهث • خافت أن يموت قبل أن يصل الى قسم الشرطة ويكتشفوا الحقيقة • ورأت ابراهيم يتسلل بعيدا عن الجمع ذاهبـا الى الشارع الذى يقع فيه بيتها •

* * *

سمع محفوظ صوت جرس الباب • قام اليه وهو موقن أنها عواطف •• لقد تأخرت كثيرا • وها هى قد جاءت •

لكن الرجل فوجىء بابراهيم فهيم أمامه • غريبة • الصباح يقترب • فماذا جاء به الآن • أجاء لينام ؟ !

أحس الرجل باحباط · دخل الشقة دون أن يتحدث معه :

ـ ايه يا خالى · مالك ؟

ـ قلق على عواطف ·

ـ لا تقلق · الجو صيف وقد تكون مع أحمد أمام البحر · يشاهدان أمواجه · فكما تعلم البحر جميل فى الليل ·

لاحظ محفوظ أن هناك نبرة غريبـة فى حديث ابن أخته · المفروض انه خطيبها ويغـار عليها · ويغضب لو سـهرت خارج البيت فى وقت مثل هذا مع شاب آخر غيره ·

كان هدوء ابراهيم أمرا جديدا عليه · لكن الرجل سـكن وهدأ وكف عن التفكير فى ذلك · فابن أخته كل ما يهمه المـال · هو لا يحب عواطف ولا يحب خاله · ما يريده منهما هو المـال · المـال فقط ·

تحب عواطف غيره · تسهر معه · ليس كل هـذا مهما · المهم أن تتزوجه ليأخذ ما سيتركه خاله بعد ذلك ·

جلس الرجل فى مقعده صامتا · مصغيا الى احتكاك الأقدام بدرجات السلم · لعله يسمع صـوت احتكاك حذاء ابنته الذى يستطيع أن يميزه من بين ألف حذاء صاعد للعمارة ·

بينما ابراهيم فهيم ظل واقفا :

ـ ايه يا خالى · تعشيت ؟

احس الرجل بالضيق منه ومن أخته التى أنجبته · ولم ينطق بشىء ·· فلو نطق سيقول له ما يسيئه ·

ــ أنــا لم أتنــاول عشــائي للآن · ها · ستنتظر عــودة عــواطف ؟ ·

اعتدل الرجل فى جلسته ولم يجب :

ــ سأذهب الى المطبخ ــ بعد اذنك ــ لأعد العشــاء لى · وانت انتظر عواطف كما تشاء ·

عندما ابتعد ابراهيم عنه صاح :

ــ يا تقل دمك ·

- ١٨ -

كان ابراهيم فهيم فى شـقته بشـارع التتويج • والده العسكرى قابع فوق الكنبة العربى يعد نقودا صغيرة برايز وشلنات ورق ، يطويها ويفردها فى أناة وعناية واهتمـام شـديد • وأمه مكومة بجسدها الممتلىء فوق الكنبة المواجهة تتابع الرجل الحريص على نقوده • تريد أن تقول له أن يعطيها شيئا من هـذه القطـع الصغيرة • لكنهـا تعلم أنه لن يسكت • سيصرخ بصـوته الرفيع الحـاد • وسترد عليه مضطرة • فيسمع الجيران صوتهما وسبابهما لبعض • وقد يتدخل ابنها ابراهيم • ويحدث ما حـدث فى المرة الأخيرة حين تطورت الأحداث • فدفع ابراهيم والده فوق الكنبة العربى فى عنف حتى كاد الرجل يختنق • أخذ يلهث ويخرج رغاوى من فمه ويتنفس فى صعوبة ظنته المرأة مات • لكنـه بسبع أرواح • فقد قام بعد ذلك كالجن •

خافت المرأة أن تتحدث معه فى أمر النقود • فهى أغلى عنده من اى شىء • هو يستحق الموت • لكن كل خوفهـا على ابنهـا الوحيد ابراهيم • الذى أتت به على أربع بنات تزوجن جميعـا

وتركن البيت • فقد يضربه ابنها ضربة يضيع الرجل فيهـا • فهو قد تهدم ولم يعد قادرا حتى على التنفس المنضبط • وابراهيم غدا قويا • طويلا وعريضا •

يأخذ ابراهيم علبة أبيه الصدئة • يخرج ورقـة بفرة ويلف له سيجارة • أول الأمر كان والده يغضب ويثور • يأخذ العلبـة منه فى عنف لكن الآن ـ بعد أن أظهر له قوته ـ يراه الرجل يفعل ما يريد • فيتابعه فى خوف وقلق •

كثيرا ما اشترك ابراهيم مع أمه فى سرقة خزينة والده • صندوق الكنبة العربى • يغلقه بقفل • ويضـع المفتاح فى جيب سترته العسكرية • الكنبة مليئة بالجنيهات والخمسات • فالرجل يأخذ الشلنات والبرايز ويستبدلها بالجنيهات والخمس جنيهـات من البقالين الموجودين فى الحى الذى يعمل فيه • وتكون فيه وردية حراسـته •

يأتى الرجل ـ أيضا ـ بأشياء كثيرة أخرى : خبز فينو وقطع جبن وحلوى ولوف للاستحمام وقباقيب ، اذا ما قابله بائع القبـاقيب •

ابراهيم منذ طفولته وهو يرتاح لأمه • يحكى لها ما يحدث فى الحارة وفى المدرسـة • ثم ما يحدث فى عمله ، بعد أن عمل • لكن والده لا • فالرجل لا هم له سـوى الاعتناء بالبدلة العسكرية ومسح زرايرها النحاسـية واخراج العملات الورقيـة الصغيرة منها وحفظها فى صندوق الكنبة العربى التى ينام عليها •

طوال عمره وهو لا يحبه • رغم ذلك كان يخاف أن يموت فجأة • فحينذاك ماذا سيفعل ابراهيم • وليس لديه مورد سواه •

الآن ــ بعد أن عمل وصار له راتب • لا يحرص على بقائه • وعندما يسألونه فى العمل عنه يقول :

ــ مات منذ ان كنت طفلا • وخالى محفوظ صاحب محلات الكهرباء المعروف فى محطة الرمل هو الذى ربانى كان يساغد أمى بالمال • وهذا لم يحدث قط • فمحفوظ أيام كان ابراهيم صغيرا • لم يكن غنيا • وكان فى حاجة لمن يساعده • تسأله عواطف كثيرا :

ــ لماذا لا يأتى والدك لزيارتنا ؟

فيقول مرتبكا ومتلعثما :

ــ هو لا يحب الخروج من البيت •

لو لم تكن عواطف قريبة منه ، ومن الأسرة • وتعرف كل اسرارهم لقال لها انه مات ! كما يقول للذين لا يعرفون بيته واسرته •

حكى ابراهيم لأمه عما حدث بالأمس • وقت الاجتماع الهام • ضحكت امه وقالت :

ــ الكل فى الحى يتحدث عن هذا •

اقترب منها فرحا • جلس بجوارها كما كان يجلس وهو طفل لتحكى له عن الحارة التى يسكنونها قبل الانتقال الى شارع التتويج بمساعدة أخيها الأسطى محفوظ • قال ابراهيم فرحا :

ــ ماذا يقولون ؟

ــ يقولون ان الدكتور ابن شيخ الصيادين قد جن •

نظر فهيم اليهما • ثم شد قفطانه « المقلم » بخطوط بنية رفيعة باهتة حول ساقيه • ونظر بعيدا عنهما • يريد الرجل أن

يقول شيئا · لكن النقاش الهادىء بينه وبين امراته وابنه مات وضاع منذ زمن بعيد · ليس بينه وبينهما ـ الآن ـ سوى السخرية أو الشجار · وقد وصل أخيرا ان ضربه ابنه الوحيد ـ ابراهيم ـ الذى كان يفخر به بين زملائه العساكر · ويقول :

ـ سيكون ضابطا عندما يكبر وسيعوض صبره خيرا ·

قالت المراة :

ـ يقولون انه احب المانية ايام دراسته وأنجب منها بنتا · وعندما عاد لم يسمحوا له بأخذها معه · وقد جن لذلك ·

ضحك ابراهيم فرحا :

ـ وماذا يقولون عني ؟

أعاد فهيم ساقيه الطويلتين الى أسفل الكنبة · وتابع ابنه السعيد بنفسه ·

دق الباب · فأسرعت الأم ـ رغم جسدها المكتظ باللحم ـ فمن سيفتح الباب غيرها : زوجها ـ رغم نحافته الواضحة وقدرته على صعود الدرجات العالية فى قفزات معدودة ـ لا يشترك فى عملية فتح الباب · وابنها ابراهيم مركزه لا يسمح له بذلك · فهو موظف وملتحق بكلية التجارة · وأمين لجنة الاتحاد الاشتراكى المساعد عن دائرة الجمرك ·

طل وجه عوض التومرجى :

ـ مساء الخير يا حاجة ·

أم ابراهيم تعرف عوض · ومن فى بحرى لا يعرفه · فهم يذهبون الى مستشفى السبع بنات ، التى يعمل عوض بها ·

ويذهبون ايضا الى عيـادة الدكتور يوسف داود • وعوض ـ أيضا ـ تومرجى بها •

ـ اتفضل يا عوض •

ـ الدكتور ـ لامؤاخذة ـ يريد مقابلة الأسـتاذ الليلة بعد العيـادة •

سمع ابراهيم ما قيل • فأحس بمدى أهميته • فعوض ذكره بلفظ « أستاذ » دون أن يقرن به اسمه • وهـذا يعنى أنه الأستاذ الوحيد الآن فى العمارة كلها • وربما فى المنطقة كلها أيضا •

اما والده فقد اكتفى بأن نظر طويلا الى جسد المرأة الذى يسد درفة الباب المفتوحة • وسرد فيما يقوله عوض • ما الذى يريده الدكتور اليهودى من ابنه ؟ وأحست الأم بمدى أهميـة ابنها • فها هو أشهر طبيب فى المنطقة يسأل عنه ويطلب مقابلته •

* * *

ذهب ابراهيم الى العيادة متأخرا • قصد من هذا أن تكون خالية من المرضى • فالكثير منهم يعرفونه جيران ومعارف وسيظنونه مريضـا يجيء للعلاج • والدكتور يوسف يحصـل على أجرة أقـل •

كانت العيادة خالية فعلا كما أراد ابراهيم • ظن أن الدكتور وحده فى الداخل ينتظره • فأسرع الى الحجرة • أمسـك المقبض • قبل ان يفتح • وجد عوض أمامه • لا يدرى من أين جاء • أمسك ذراعه وقال :

ـ الدكتور مشغول • عنده ضيوف •

عاد الى المقاعد الكثيرة الخالية دون قول • جلس • اراد ان يشعل سيجارة • لكنه قال لنفسه « اوفرها » فالدكتور يوسف يعطيه سجائر وقهوة وشاى فى الداخل كما يريد •

اقترب عوض منه :

ــ اعمل لك شايا ؟

ــ من عند الدكتور • طبيب مثله ؟

ــ لا • ليلى المغنية المشهورة •

ــ آه ....

بعد قليل خرجت ليلى • نظرت الى ابراهيم وسارت مسرعة •

دخل ابراهيم الحجرة دون أن يستأذن عوض • فما الداعى لهذا • وهو يعرف أن الدكتور فى الداخل وحده •

وقف يوسف بقامته القصيرة :

ــ أهلا أستاذ ابراهيم • مالك • هل أنت غاضب منى ؟

ــ لماذا لا سمح الله ؟

ــ لأنك لا نزورنى •

جلس ابراهيم ، أحس بالسعادة • أكيد الدكتور سمع عن نشاطه الملحوظ فى الاتحاد الاشتراكى •

ــ مشاغل يا دكتور • لعلك سمعت عن الاجتماع الأخير الذى عقدته امام قهوة فاروق بالأمس •

ــ ومن فى بحرى لم يسمع عنه •

اخرج يوسف علبة سجائره المستوردة ، وضعها أمامه ٠

ـ دخن كمـا تشاء ٠

أسرع ابراهيم واخرج سيجارة ، فقد كان خرمانا ٠

ـ لعلك سمعت عما فعله ابن شيخ الصيادين ٠

قال يوسف فى اسى :

سـمعت ٠

ـ لقد جن بلاشك ٠

أقترب يوسف منه ٠ جلس على المقعد المجـاور له ٠ وانحنى وقـال هامسا :

ـ أتراه قد جن فعلا ٠

- ١٩ -

استطاع الضفادع البشرية الأربعة (ايتان وذابيك وجـادى وداني) من الاختباء بجانب الصخور بالقرب من قلعة قايتباى • ظلوا بلا حراك حتى حل الظلام ، فقد كانت قوات خفر السواحل تجوب المنطقة بحثا عن الضفادع التى تسربت داخل البلاد •

أسرعوا بخـلع الملابس وكل ما له صـلة بالغطس • ورموا الأشياء بين الصخور لكى لا تساعد المصريين فى الوصـول اليهم ، وارتدوا الملابس الدكرون المخصصة للسير فى المدن •

ليس امامهم الآن سوى المرحلة الأخيرة التى أمرهم ايفان ـ قائد الغواصة ـ باتباعها • ساروا على كورنيش البحر • الشوارع خالية بسبب الليل المتأخر • وبسبب حالة الحرب التى خيمت على المدينة فقد هجمت الطـائرات الاسرائيلية صباح اليوم على المطارات المصرية • لكن الموقف غير واضـح لدى المصريين حـالة من القلق والحيرة تعترى الشعب المصرى •

صـاح ايتـان : "

ـ تاكسى • تاكسى •

التاكسيات تحرص على السير على الكورنيش فى ذلك الوقت ، لوجود رواد الكازينوهات الذين يعودون منها متأخرين • وراقصات فى حاجة للعودة الى بيوتهن ، يدفعون مبالغ أكثر •

قال جادى الذى يجلس بجوار السائق ، وحاول ان تكون لهجته قريبة من لهجة المصريين :

ـ كازابلانكا •

أومأ السائق مبتسما • هو يطوف الشوارع القريبة من البحر بحثا عن الخارجين من الكازينوهات • وها هو يجد اربعـة ما زالوا يبحثون عن كازينو فى ذلك الوقت •

ارتعش دانى فقد يكون السائق قد أحس بهم واكتشف أمرهم• وسيأخذهم الآن الى اقرب قسم شرطة • أو أقرب وحدة جيش •

حاولوا الا يتكلموا أمام السائق حتى لا يرتاب فيهم • خاصة أن خبر انتشار الضفادع البشرية فى المدن شاع وعلم به الناس • وكطبيعة الشعب المصرى • فقد زادت عليه قصصا :

* الضفادع البشرية ظهرت فى مدرسـة عسكرية وذبحت كل طلابهـا •

* شـاهدوا امرأة تسـير فى « سـوق باب عمر باشـا » بالاسكندرية المزدحم بالبشر خاصة النسـاء • ولاحظوا أنها تلبس حذاء رجاليا • وعندما أمسكوا بها اتضح أنها ضفدع بشرى اسرائيلى •

* ضبطوا ضفدع بشرى اسرائيلى فى حارة اليهود القريبـة

من حى بحرى • وجدوه يبحث عن بيتــه القديم الذى ولد فيه •

كان جادى يبتسم للسائق دون سبب ، حتى ظنه الســائق أبلها • ثم قدم له جادى قطعة شيكولاتة مغلفة بورق سيلوفان • ليس فيها ما يدل على جنسيتها :

ــ شــيكولاه •

أخذها السائق ولم يأكلها • وضعها أمامه فوق التابلوه • مما زادهم خوفا منه • فالرجل ارتاب فيهم وظن الشيكولاتة تحوى مخدرا • أو أن الرجل سيأخذها ويسلمهــا الى الشرطة المصريــة لتحللها وتعرف مصــدرها •

يقف السائق امام الكازينو • دس جودى مبلغا من المــال فى يده (نقودا مصرية سلموها لهم لمثل هذه الحالات) •

سار الأربعة الى الداخل • كانوا يرتعشون • قابلهم بوللى بوجهه الأبيض المكتنز باللحم والذى يبتسم دائما قال ايتان :

ــ فيــكتور •

أشار بوللى الى حجرة المدير •

كانت ليلى قد عادت من عيادة الدكتور يوسف غنت أغنيتهــا المعتادة لرواد الكازينو • كانت تغنى بلا حماس • تتصرف ببرود • لم ترقص مع النغمات كعادتها كل مرة • بينما فريدة أكثر مرحــا منها • فداعبت الزبائن وجعلتهم يفتحون زجاجات خمر أكثر •

الكازينو به عدد قليل جدا من الزبائن • اكثر الزبائن عادوا الى بيوتهم • بوللي ولالى يجمعان المقاعد ويرصونها لأعلى •

دق ذابيك الباب الزجاجى المصنفر . سمعوا صـوت فيكتور الغليظ :

ـ أدخـل .

كان الرجل العجوز يعد ايراد الكازينو . عندما رآهم داخلين اليه . صاح غاضبا :

ـ ايه . ماذا تريدون ؟

أخفى نقوده . دس الحقيبة أسفل المكتب . ووقف بجسده الذى يشبه البلاص .

جلسوا حوله . كلمات قليلة . وابتسم فيكتور ونادى الولد بوللى لكى يأتى لهم بالطعام اللازم .

بوللى ولالى أبلهان ولن يعرفا شـيئا عما يدور أمامهمـا . لكن الخوف من باقى العاملين . فلو علموا لن يسكتوا فقد شاهدهم فيكتور الليلة والليلة السابقة يخرجون بالسكاكين والهراوات بحثا عن الضفادع البشرية الاسرائيلية فوق ساحل البحر .

قال بوللى للالى الذى يقف بجوار المقاعد المتراصة عاليا :

ـ اردنا أن نرتاح ونذهب للنوم . جاء أربعة زبائن يريدون طعامـا .

ـ ولمـاذا يجلسون فى مكتب فيكتور ؟

ـ الظاهر أغنياء . ويريد فيكتور أخذ نقودهم منهم .

ـ سيرســل الآن فى طلب فريدة وليلى لكى يأخـذوا ما فى جيوبهم .

وبالفعل خرج فيكتور خارج الحجرة · ونادى احد العمال · قال له :

ـ أرسل لى ليلى حالا ·

كانت ليلى تجلس فوق مقعدها تدخن سيجارتهـا · وفريدة تهتز للاشيء · تضحك وتغنى بدون مناسبة ·

أحداث الحرب الجديدة تؤرق ليلى · عبد الناصر بعد حرب ٥٦ قلب على اليهود · وهـذه المرة سـتكون « قلبته » اشـد وأعتى · لن يرحمهم ·

غنت ليلى فى أفراح الاسكندرية · وبعض الوقت فى كازينوهات القاهرة · لكنها فشلت فى أن تكون مطربة فى اذاعة القاهرة · قالوا انها تغنى من أنفها · ونصحها أحد أعضـاء لجنة الاختيار · ان تجرى عملية ازالة لحمية من أنفها · لكنها سخرت منه · وحملت متاعها وعادت الى الاسكندرية · واكتفت بها ·

انحنى العامل العجوز :

ـ الخواجة ينتظرك فى حجرته ·

ضاقت ليلى بما سمعت ففيكتور لا يأتى من ورائه سـوى الهم والغم ووجع القلب · وتتوقع أن يأتى بسببه ما هو أسـوأ قالت له ان تقلل من العمل هذه الأيام حتى تمر العاصفة · لكن الرجل رأيه مخـالف · تذهب الى عيادة يوسف داود ، تتظاهر بانتظار دورها للدخول اليه ، وتسمع الأخبـار من المريضـات ، وتنقلها الى فيكتور ·

سارت ليلى بعد أن رمت سيجارتها · وهرستها بحذائهـا فى عصبيـة ·

دقت باب فيكتور . ودخلت . رأت الشبان الأربعة الذين كانوا فى حالة ارهاق شديد . شعر راسهم يقف بطريقة مضحكة من تأثير الماء المالح . وعيونهم حمراء كعيون العفاريت . كانوا يأكلون فى نهم كأنهم لم يأكلوا منذ شهور .

نظروا الى ليلى فى توجس وهى تتابعهم فى استخفاف وعدم اهتمام . قال فيكتور :

ـ أصدقاؤنا .

جلست فى المقعد الوحيد الخالى فى الحجرة . ماذا يقصد فيكتور . هل هؤلاء اسرائيليون ؟ .

لقد سمعت عن حكاية الضفادع البشرية وأكد فيكتور لها . لكنها رغم ذلك لم تصدقها . ظنتها حكاية من حكايات المصريين التى يتسلون بها .

ابتسم ايتان وقدم زملاءه . قال فيكتور :

ـ سنتركهم ـ هنا ـ فى الكازينو . وعليك أن تخبرى يوسف عما حدث .

ـ اذهب اليه فى عيادته ؟

ـ لا . لن ننتظر حتى المساء . اذهبى اليه فى المستشفى . على أن يكونوا فى عيادته بعد ظهر اليوم .

وقفت مبتسمة :

ـ سأنام ساعة أو ساعتين . ثم أذهب اليه .

قبل أن تفتح ليلى الباب المغلق ، قال فيكتور :

ـ ابحثى عن مكان فى الكازينو ونامى فيه . أريد أن تخرجى من هنا على المستشفى .

- ٢٠ -

اضطر محفوظ أن يغلق باب شقته خلفه ويخرج فى « وش » الصباح • للبحث عن ابنته التى لم تعد منذ ايلة أمس • خرجت لتحضر اجتماع الاتحاد الاشتراكى فى حى بحرى •

سار على كورنيش البحر • الحراســة مشددة أمام قلعــة سيدى بشر • وشباب الجامعات والمدارس برداء « الفتوة » الأزرق يجوبون المنطقة ناظرين الى البحر •

فتشوا محفوظ ، واطلعوا على بطاقته • قالوا :

ــ تم القبض على ضفدعين بشريين اسرائيليين ، حاولا نسف القلعــة •

أراد محفوظ أن يقول لهم انه يبحث عن ابنته الوحيدة • التى لم تعد منذ مساء أمس • لكنه قال لنفسه « خليهم فى همهم » •

سار على كورنيش البحر • ماذا حدث لابنته ؟ أيكون قد قبضوا على أحمد لآرائه الغريبــة عن الحرب • وقبضــوا على ابنته

معه . أو قد تكون البنت ذهبت معه الى بيته لأى سبب من الأسباب ، فعليه الآن ان يصل الى بيته لو ذهب الى بيت أخته ـ ام ابراهيم ـ ستدله ـ فوالده شيخ الصيادين ومشهور هناك ـ وأكيد الولد السيىء ابراهيم يعرف بيته .

استقل محفوظ تاكسيا وذهب الى بحرى . أسرع الى شقة أخته . ضرب الجرس طويلا . فلم يفتح له . فاضطر لأن يدقه بكفه فى عنف . المرأة ـ أخته ـ فى الداخل تسمع صوت الجرس . لكن السكر والضغط يعلان عليها خاصة فى المساء ، فلم تستطع الاسراع لفتح الباب ـ وزوجها ـ ليس له شأن بهذه الأشياء .

وابنها لم يتحرك . فهو يعرف أن ذلك القادم لا يخصه فى شىء . فمن سيأتيه فى وقت مثل هذا . القادم اما يقصد أمه او أبيه . جارة من الجارات . أو ابنة من بناتها الأربعة المتزوجات . أو ربما عسكرى زميل والده جاء ليتفق معه على الذهاب الى مكان يخص العمل . أ

أضاءت المرأة المصباح ، فرأت محفوظ أمامها :

ـ محفوظ ؟ تفضل .

أسرع الى الداخل . نظر حوله حائرا :

ـ ماذا بك يا محفوظ ؟

حديث أخته بهذه الطريقة أوحت اليه بأن ابنته لم تأت اليهم . لكن لابد أن يذكر لها شيئا يبرر فيه سبب مجيئه فى ذلك الوقت وبهذه الطريقة :

ـ عواطف . عواطف .

ـ اجلس يا أخى لترتاح . ماذا حدث لعواطف ؟ . أ

ـ لم تعد الى البيت من ليلة أمس ·

صاح ابراهيم الذى كان مستيقظا · وعندما وجد أن الموضوع يهمه ويخصــه ويستحق تدخله ، تدخل :

ـ كيف حدث هذا ؟

صاح محفوظ بلهفة عندما رأى ابراهيم :

ـ قد تكون فى بيت أحمد · فلنذهب اليه ·

قــال ابراهيم :

ـ ليس من رأيى الذهاب الى بيت أحمد الآن · فقد تكون غير موجودة فيه · ولا ينوبنا غير « الشوشرة » ·

قالت أمه :

ـ ابنى عنده حق · قد لا تكون معه فى البيت ·

ردد ابراهيم لنفسه · وابتسم سعيدا دون أن يلمحه أحد :

« انكما لا تعلمــان بما حدث له أمام قلعــة سيدى بشر » وقــال :

ـ سأرتدى ملابسى بسرعة وأنزل معكم للبحث عنه ·

* * *

دخلت ليلى مستشفى السبع بنات · أمســكت نظارتهــا (نظارة الشمس) بيدها · ايشاربها الحريرى الملون حول رقبتها ليخفى تجاعيدها التى باتت واضحة · ســارت فى ردهات المستشفى بجسدها المشدود والتى تحاول أن تشده أكثر ·

تمنت أن تكون مطربة مشهورة ونجمة سينما • ألح عليها البعض أن تسافر الى اسرائيل مثل الكثيرات ممن سافرن • لكنها فضلت السفر الى القاهرة حيث المجد والشهرة والسينما • ففى اسرائيل لن تجد الفرصة التى تحلم بها • لقد تشربت وتربت على الموسيقى المصرية والغناء المصرى ، الذى يربطها باسرائيل شيء واحد • هو الدين ـ لا أكثر ـ لكنهم فى اذاعة القاهرة رفضوها ولم يعتمدوها مطربة •

وافقت أن تغنى فى كازينو فيكتور • تغنى فيه صيف شتاء • تغطى صدرها العارى دائما بشال أحمر حريرى فى وقت الشتاء بعد أن تنتهى نمرتها على المسرح •

لم يستطع الشال الحريرى أن يمنع دخول البرد وتغلغله الى عظام الصدر • لا تدرى لماذا يكره فيكتور زكى داود • لقد حدثته فى ذلك كثيرا • قالت له :

ـ انه يهودى مثلنا • ونحن الآن فى الاسكندرية معدودين • وفى حاجة لمساندة بعض •

فيقول فيكتور فى حزم وتصميم :

ـ بل هو عدو لليهود • أنت صغيرة ولا تعرفين ما حدث •

تعرف هى حجرة يوسف • فكثيرا ما جاءته المستشفى للكشف على صدرها الذى تعب الآن • وأحيانا تأتيه تلبية لرغبات فيكتور الذى يتجسس على المصريين • ويطلب من جميع يهود الاسكندرية أن يساعدوه فى هذا •

كان عوض يجلس أمام الباب • هى تعرف أن عوض لا يحبها • كثيرون لا يحبونها لمجرد أنها يهودية • وكثيرون لا يحبونها لأنها

مغنية فى كازينو فيكتور · لكن عوض يكرهها ــ ربما للاثنين معا ــ ولانه يخاف على طبيبه من أن تضحك عليه ليلى · فيتزوجها · أو ــ على الأقل ــ ينفق عليها ما يكسبه فى المستشفى والعيادة ·

صباح الخير يا عوض ·

وقف لها :

ــ أهلا ست ليلى ·

ــ ممكن أدخل ·

ــ دقائق ويخرج المريض ·

جلست على مقعد مقابل · كان عدد المرضى قليلا جدا · فقد جاءت مبكرة طبقا لأوامر فيكتور · تعمدت أن تضع ساقا فوق أخرى · لتكشف عن لحمها · لمحت عوض يمعن النظر فيهما ·

أشعلت سيجارة · ثم نادته · أسرع اليها · أعطته واحدة · أخذها منها فرحا · فهى سيجارة غالية يفرح عوض كثيرا عندما يدخنها · يأخذها منها ويضعها فى علبة سجائره فى عناية · ويتعمد تدخينها فى القهوة وسط الصيادين أصحابه · لكى يسألوه عن نوعها ، وعن الذى أعطاها له · ويتلذذ فى سحب النفس منها متعاليا عليهم ·

عندما خرج المريض ، دخلت ليلى دون استئذان ·

* * *

ــ اهلا ليلى · مبكرة اليوم ·

ــ فيكتور لديه رسالة من الأصدقاء ·

قام من مكانه مسرعا · اغلق الباب من الداخل حتى لا يدخل

عوض فجـأة • هو قلق منذ أن استعدت مصر للحرب وكلما مر يوم من أيام يونيو ازداد قلقه :

ـ انتظر حضورك كل ساعة • أتوقع أن تأتينى فى المستشفى أو فى العيادة ، وأخشى أن تضطرى أن تأتى الى البيت أيضا •

ـ تخاف أن ترانى آمال ابنة عمك فى شقتك ؟

ـ ما الذى يريده الأصدقاء ؟

ـ اربعة من البحرية الاسرائيلية لدى فيكتور فى الكازينو •

ـ ضفـادع بشرية ؟

تسربت الأخبار فى الاسكندرية • خاصة فى حى بحرى • عندما أعلن عبد الله عن اكتشاف غواضـة فى مياهنا الاقليمية وتأكد هذا بعد قتل الخفير النظامى الذى كان يحرس الكراكة الصدئة •

ـ وماذا يريدون ؟

ـ الاختباء فى عيادتك لعدة أيام حتى نجد طريقة لتهريبهم •

شرد يوسف قليلا :

ـ الأمر ليس سهلا • العيادة تزدحم بالمرضى كل ليلة •

لم تجبه بشىء • أكمل هو وقد تذكر :

ـ وعوض • عوض وحده مشكلة •

وقفت ليلى ايذانا بانصرفها • قال :

ـ لم نتفق على التفاصيل •

ـ تصـرف •

ـ أسرعت ليلى • وجدت عوض فوق مقعده • سارت بضع خطوات • ثم عادت اليه • قالت :

ـ لماذا لم تدخن سيجارتك ؟

قال فرحا وهو يربت على المكان الذى وضعها فيه ـ داخل سترته :

ـ سأشعلها فى القهوة وسط الأصدقاء •

ضحكت • أخرجت العلبة وأعطتها له :

ـ أنت وحظك •

فرح عوض كثيرا • وأخذ يعد السجائر المتبقية فى العلبة • ثم وضعها فى سترته سعيدا • ممنيا نفسه بجلسة هنية مع أصدقائه الصيادين فى القهوة •

* * *

عاد محفوظ الى الشقة متعبا وابراهيم ابن أخته خلفه • قال :

ـ بحثنا فى كل المستشفيات وأقسام البوليس • ماذا حدث لها يا بنى ؟ !

ـ لا تخف يا خالى • ستعود •

أحس ابراهيم بالسعادة • رغم كل ما حدث • فأكيد تم القبض على أحمد مع الضفدعين الاسرائيليين • ومازال فى الحجز معهما • فقد يعود الاسرائيلان مع تبادل الأسرى • لكن هو لن يعود • سيتهمونه بالخيانة العظمى • سيقولون ان « الموساد » جندته أيام كان يدرس الطب فى ألمانيا •

حتى لو حزنت عواطف من أجـله ٠ وتغيبت عن البيت ٠ وباتت خارج المنزل ليلة من أجله ٠ فسـوف تعود آخر الأمر لابراهيم ٠

وضع محفوظ المفتاح فى « الكالون » واداره وهو يردد :

ــ تعال يا ابراهيم يابنى ٠

عندما دخل محفوظ الشقة وجد عواطف فى منتصفها ٠٠

ــ عواطف ابنتى ٠ أين كنت ؟

وصـاح ابراهيم :

ــ بحثنا عنك فى كل مكان ٠

صرخت :

ــ لو كان عندك دم ما جئت الى هنا ثانية ٠

صاح ابراهيم مندهشا :

ــ لمـاذا تحدثيننى هكذا ؟ !

وصـاح محفوظ :

مالك يا عواطف ٠ ابن عمتك كان يبحث عنك معى ٠

ــ آسفه يا أبى ٠ ابن أختك لابد أن يخرج من الشقة الآن ٠ ولا أريد ان ارى وجهه ثانية ٠

صاح محفوظ غاضبا :

ــ كفى يا عواطف ٠ ما الذى يحدث ٠ تبيتين خارج البيت ٠ ثم تطردين ابن أختى أمامى ٠ هذا كثير ٠

ـ آسفة يا أبى · ابن أختك هو الذى تسبب فى هجوم الناس على الدكتور أحمد ·

ـ أنا يا عواطف · أم تصرفاته الخائنة ؟

صاحت بصوت حاد ناسية كل شىء :

ـ أرجوك · اخرج من الشقة الآن ولا تعد اليها ·

ـ أنت خطيبتى · ومن حقى أن أحميك · وأن أعرف أين قضيت ليلتك · ؟

ـ أنا لن أكون لك ولو كنت الرجل الوحيد فى هذا الكون · فارجـوك ·

صرخت عواطف · وحاولت أن تنشب اظافرها فى وجهه · لولا أن امسكها والدها وهو يصيح :

ـ اذهب يا ابراهيم الآن · ولنا حديث آخر بعد ذلك ·

تردد ابراهيم قليلا · ثم خرج حزينا ·

بكت عواطف فى صدر والدها :

ـ تعالى يابنتى أحك لى ما حدث ·

سارت معه حتى حجرة النوم · فوجىء محفوظ بأحمد ينـام فوق سريره وهو ملفوف بالأربطة · والورم والكدمات واضحـة فى وجهـه ·

ـ ماذا حـدث ؟

ـ أعطاه الطبيب حقنة لينام ·

* * *

نادى يوسف على عوض الذى يجلس على مقعده خـارج حجرته بمستشفى السبع بنات :

ــ أمرك يا دكتور يوسف ٠

ــ اجلس يا عوض ٠

أحس عوض بالقلق ٠ فهو لا يأمره بالجلوس أمامه الا عندما يكون فى الأمر مشكلة ٠

ــ سأحصل على اجازة أسبوع من المستشفى ٠

ــ لمـاذا يا دكتور ٠ ماذا حدث ؟

ــ لاشىء ٠ أحس بتعب ٠ وفى حاجة الى الراحة ٠

ــ والعيـادة ؟

ــ اننى أتحدث معك الآن من أجل هـذا ٠ فحتى العيـادة سأغلقها خلال هذا الأسبوع ٠

ــ اننا لم نغلق العيـادة من قبل سـوى يومين او ثلاثـة على الأكثر ٠

صاح يوسف فى عصبية :

ــ ظروف يا عوض ٠ ظروف ٠

ــ دكتور يوسف ٠ أنت تعرف أنى أحب مصلحتك ، فاسمح لى بأن اتجـاوز حدودى معك وأحدثك بصراحـة ٠

قلق يوسف وأحس بالخوف ٠ فقد يكون عوض قد احس بالعلاقة بينه وبين ميلى المغنية ٠ وأحس أنها تنقل أخبار البلد عن طريق جلوسها بين المرضى فى العيادة والمستشفى ٠ وأنها رسـولة فيكتور اليه ٠

ـ ليلى المغنيـة ٠

صاح يوسف فى خوف شديد :

ـ مالهـا ؟

ـ هى السبب لاشك ٠

ـ ماذا تقصـد ؟

ـ أقصد أن هنـاك مشروعا بينك وبينها وأخشى أن يصـل الأمر الى الزواج ٠ فهى ليست مناسبة لك ٠

أحس بارتياح وضحك قائلا :

ـ لا تهتم بهذه الأشياء ٠ فأنا أدرى الناس بليلى ٠ وهذا لن يحدث أبدا ٠

ووقف يوسف لينهى المقابلة :

ـ هل سأذهب الى العيادة فى غيابك ؟

صاح يوسف مسرعا :

ـ لا ٠ وأريد مفاتيحها الآن ٠

ـ لـماذا يا دكتور ٠ فأنا ٠٠٠٠

أحس عوض بالضيق فلم يكمل ٠ الدكتـور لا يأتمنـه على العيادة ٠ فأخرج المفاتيح حزينا وأعطاها له ٠

* * *

عاد الأسطى خلف الله الحـلاق من مولد سـيدى ابراهيم الدسوقى ٠ قضى هناك سبعة أيام كاملة ٠ استأجر حجرة وحده ،

عرض عليـه حـلاق ممن يطوفون الموالد مثله ، بأن يشتركا فى استئجار حجرة ، ويوفرا المصـاريف .. لكن خلف الله رفض ، فلقد اعتاد رغد العيش ، والده الحـاج مرزوق لم يكن يبخل عليه وعلى اخوته ..

استأجر خلف الله عشة من الخوص لقضـاء عمله ، كانت قريبة من المسجد ، وخرج الى الناس ببذلته السـوداء الكاملة والقميص الأبيض ذى الياقة العالية والبمباخ معلق فى رقبتـه ، والمقص بين أصابعه .

التف الراغبون فى الحلاقة حوله ، وامتلأت بهم العشة ، رجال من البلدة وآخرون جاءوا يتبركون بالحـلاقة بجـانب سـيدى ابراهيم الدسوقى ، وأمهات وأباء يمسكون بأولادهم الصغار ، جاءوا لهم وفاء للنذر الذى قطعوه على أنفسهم ، بأن تكون أول حلاقة لشعرهم فى سيدى ابراهيم .

كان خلف الله مميزا بقامته المديدة وبذلته السـوداء وأناقته الواضحـة ، الشـكل عليه عمل ، باقى الحـلاقين يرتدون أية ملابس : قفاطين وقمصان ، وجاكيت قديمة صفراء ، وأشياء أخرى غريبة وعجيبة .

يسأل خلف الله أهل الولد الذى يحلق شعر رأسه :

ـ طاهرتم ؟

ـ ممكن تطاهره .

واتفق معهم على الحلاقة والطهارة معا ، فليأت محمد سماحة ويرى الزبائن وهم يتزاحمون ويتصـايحون ، يريدون أن يحلق أولادهم قبل غيرهم ، ليعرف سماحة أنه ليس وحده الذى يتكالب الناس عليه .

عندما يفرغ خلف الله من العمل . ويضع جانبه على الفراش الخشن داخل حجرته ، يحس بالتعب الشـديد والآلام فى ساقيه من طول الوقفـة . فيردد دون أن يحس « منك لله يا محمـد يا سماحة ، أخذت زبائن الدكان وتركتنى دون شىء » .

خلف الله عنده زوجة جميلة . وأولاد يلعبون فى الشـارع مع باقى اطفال الحـارة . ويريدون طعاما وكسـاء . لذلك يقفل دكانه ويرحل من مولد لآخر . « ينصب » عدته ويعرف مهارته ويصطاد زبائنه بقامته المديدة وبذلته السـوداء والبمبـاخ المعلق فى الرقبـة .

عاد خلف الله محمـلا بالهدايا للزوجة وللأولاد . ايشارب لزوجته وقلادة جميلة كانوا يبيعونها فى المولد اشتراها لها وأحس أن رقبتها الطويلة الجميلة تستحقها . وحلوى من كل صنف ونوع لها وللأولاد .

دخل خلف الله الشقة . المغلقة من كل جانب . زوجتـه امامه بقامتها الرشيقة . وجسـدها الممشوق . ووجهها المسحوب الرفيع . وشـعرها الشديد السواد . الذى ينسدل على الظهر . ولده على ساقه . والابنة على الساق الأخرى ، قبلهما . وهزهما فرحا . لولا الشديد القوى ما برح حى بحرى . لولا أن محمد سـماحة اخذ الزبائن وتركه بلا زبائن . ما ترك زوجتـه هـذه الجميلة وأولاده .

اعطى الهدايا لها . وفض لفائف الحلوى .

ـ كلوا ، اشبعوا .

أحس أن فى زوجتـه شيئا غريبـا . كانت مرتبكة . وشاردة

ومتلعثمة . ماذا حـدث لك يا امرأة . لقد كنت تتحـدثين بألف لسان . فماذا جرى لك ؟ !

النافذة مغلقة كما هى . والشرفة مغلقـة أيضـا . والمرأة أقسمت على المصحف بانها لن تطل من نافذة أو شرفة ولن يراها صنف رجل كان . وهى تريد أن تعيش وتبقى مع أولادها الذين تحبهم .

خرج خلف الله الى شارع السيالة . سار فرحا . الرزق فى سيدى ابراهيم كان وفيرا .

اقترب من قهوة عبد الزردونى ، الناس تتحدث همسا قبل أن يصـل اليهم . وعندما يصـل يبتسمون ويتحدثون ويقسمون بانهم أحسـوا بوحشة لفراقه ولغيبته عنهم . شىء غريب لم يعتده فى حديثهم معه . تركهم وسار .

أصحاب المحلات ــ جيرانه ــ يبتسمون له يتابعونه .

اقترب من أرض المدفن القديم القريب من دكانه . أكثر من اسبوع لم يفتحه . وقفت حافظـة عندما رأته . ضحكت وصاحت :

ــ حمدا لله على السلامة يابن الحاج مرزوق .

ــ أهـلا حافظـة .

اخرج جنيها من سترته ومده لها :

ــ خذى يا حافظة .

لم تمد يدها ، تابعت وجهه وصاحت :

ــ زوجتك الجميلة كشفت وجههـا لرجـال الحى ، فتحت الشبابيك والبلكونات . وسارت فى الشارع سافرة .

صاح غاضبا :

ـ تكذبين يا حافظة ·

ترك الجنيه · فوقع على الأرض وأسرع الى البيت · لقد فهم خلف الله الآن سر نظرات الناس الغريبة عليه · وهمساتهم لقد لطخت سمعته وأصابته بالعار ·

دخل الشقة · كانت زوجته تغير ملابس ابنها · أغلق باب الشقة خلفه وصاح :

ـ رآكى رجال بحرى ؟

ـ من أخبرك ؟

ـ سرت فى الشارع كاشفة عن وجهك ؟

ـ وما فى هذا يا خلف كل النساء تمشى هكذا ·

ـ لا أريد أن يراك رجل غيرى ·

لم يضربها · أسرع الى الشارع · وسار فى الطريق نفسه · لم يغير عاداته خيا من حياه ، وابتسم لمن رآه ·· وتحدث معه وفتح باب دكانه العتيق ·

اعتاد بعض الزبائن الحلاقة عنده · ولم يستطيعوا تغييره · جاءوا اليه · سألوا عنه فى غيابه · وانتظروا عودته حلق خلف الله لهم · كان عاديا · حكى لهم ما لاقاه فى رحلته الى دسوق ·

أرسلت زوجته ابنها الكبير الى عمته · زوج الحاج محمد سماحة · قال لها :

ـ تعال . أبى يريد أن يطلق أمى .

سياسة سماحة مع خلف الله ـ شقيق زوجته ـ هى « الاختصار » . « ابعد ده عن ده ، يرتاح ده من ده » لذا هو لا يتدخل بينه وبين أهل بيته . بل لا يتدخل بينه وبين أى انسان آخر فى الحى . فهو يعرف أن خلف الله لا يحبه . وأن مشكلته الأولى فى حياته هى « محمد سماحة » الذى تربى معه فى الدكان ، فتفوق عليه واخذ زبائن والده ورحل بهم وافتتح دكانه فى شارع رأس التين .

ـ يا حاج تكسب ثواب . الرجل سيخرب بيته بيديه .

ـ وافق سماحة أخيرا .

انتظر حتى عاد خلف الله من دكانه فى المساء . وذهب اليه مع الحاج الدسوقى وعوض وبعض رجال الحى كانت الزوجة تغطى وجهها بغطاء حتى لا يرى الرجال الأغراب وجهها ، فيكفيها ما حدث من خلف الله .

خرج خلف الله اليهم بقفطانه ومسبحته . قال سماحة :

ـ تريد أن تطلق زوجتك وأم اولادك ؟

ـ هذا شأنى وحدى يا محمد يا سماحة .

صاح سماحة غاضبا :

ـ ليس من شأنك وحدك . فالطلاق ليس سهلا . كما أن الأمر أولاد بينكما ليس لهم ذنب .

صاح الدسوقى :

ـ وحد الله يا أسطى خلف . وحد الله .

ـ لا اله الا الله . لكن الطلاق لابد منه .

بكت المرأة . لم يروا وجهها ولا دموعها . سمعوا صوت نحيبها . وبكى الأولاد جميعا .

قال عوض :

ـ من أجل الأولاد سامحها هذه المرة ولن تكررها ثانية .

قال خلف الله :

ـ يا تتطلق يا تحلق .

قال سماحة غاضبا وقد فهم مقصده :

ـ لكن هذا ظلم يا خلف الله .

لم يلتفت اليه وأسرع اليها وهى قابعة فى ركن الحجرة . غطاؤها الذى يلفها من شعرها حتى قدميها يكشف عن مدى جمالها ورشاقة جسدها . قال بلهجة أهل بحرى القدامى :

ـ تتطلجى والا تحلجى .

بكت . وعلا نحيبها ونحيب الأولاد . قال خلف الله فى عناد وتكبر :

ـ ليس هناك فصال . يا تتطلج يا تحلج .

قال الحاج الدسوقى :

ـ السلام عليكم . أنا لا اشهد مجلسا فيه ظلم أبدا .

وخرج صوتها مخنوقا ضعيفا وهى تضم أولادها نحوها :

ـ احلق يا خلف الله .

خرج سماحة وباقى الرجال غاضبين ، لاعنين .

وأغلق هو الحجرة على الأولاد . وكشف عن راسها . كانت جالسة كما هى تبكى فى صمت . قص الشعر بالمقص ثم بماكينة الحلاق أزال الباقى .

- ٢١ -

عاد الصول عبد الله الى السيالة ، عدة أيام لم يمر فيها من أمام قهوة عبده الزردونى – كالعادة – حيث يتجمع الصيادون. فيمازحهم ويمازحونه . انتهت الحرب وانتصرت اسرائيل انتصارا لم يخطر على بالهم كان عبد الله مهموما . يمسك حقيبة مليئة بالملابس المتسخة . سيتركها فى الحمام الى أن تأتى الغسالة لتغسلها .

اقترب من القهوة – ليس لديه الرغبة فى أن يرفع يده ويحيى النـاس .

الشمس مشرقة . رغم ذلك يحس أنها لا تضيىء المكان كما يجب . هناك سحابة قاتمة تخيم فوق الشوارع . سكون غريب . لا نسمة . لا هواء . ولا حركة . اندهش عبد الله . فالناس باقون ، يعيشون ويتنفسون . رغم أن الشوارع بلا هواء . كيف استطاعوا الخروج من قانون الطبيعة . ليعيشوا بلا هواء .

« ما اتعس موت الأشياء » .

وقف عبده الزردونى ـ صاحب القهوة • صاح :

ـ اتفضل يا صول عبد الله •

وقف الجميع • انهم ينتظرونه منذ أيام • منذ أن تضـاربت الأقوال ، وتاهت كل الحقـائق • صحف مصر واذاعاتهـا تقول أشياء • واذاعات العالم المختلفة تقول أشياء أخرى • مغـايرة ومختلفة ومتناقضة •

جاء ابراهيم فهيم الى القهوة بالأمس • واجتمـع رواد القهوة حوله • فهو أكيد لديه حل لبعض الألغاز • فهو متعلم ـ منتسب لكلية التجارة وفى البكالوريوس هـذا العـام ـ وفوق هذا وذاك (وهذا هو الأهم) : أمين لجنة الاتحاد الاشتراكى المسـاعد عن دائرة الجمرك ، وقريب ـ لاشك ـ من المسئولين الذين يعرفون كل شيء • سأله الصيادون • قال أشياء سخيفة ، ثقيلة ، مريرة قواتنا انسحبت الى الضفة الغربيـة لقناة السويس • معنى هذا أن اسرائيل احتلت سيناء كلهـا • قال أشياء كثيرة • كان يقولها شماتة • يعاتب عبد الناصر « مادمت مش قد الناس دى ، بتقف قدامهم ليه » •

وقف عوض واراد أن يضربه • والولد حسن قال له « أنت تستحق الاعدام فى ميدان عام » • فغضب ابراهيم وترك المكان لاعنا سابا • قال « اسرائيل سوف تسبى نساءكم • وتفعل كذا وكذا » • قال كلمات بذيئة لا يصح أن تقال • أراد الصيادون أن يفتكوا به • لكن عبده الزردونى منعهم • قال لهم :

ـ لسنا فى حالة تسمح لنا بالشجار •

ثم وضع يده على كتفه وسار به بعيدا • ثم دفعه فى عنف وغيظ قائـلا :

ـ من الآن لا ترينا وجهك الكئيب :

الولد حسن منذ أن أخبر عن وجود الضفادع البشرية الاسرائيلية فى قلعة قايتباى وهو يحس أنه كبر وأصبح مهما ومسئولا . يتحدث فى السياسة ، عن اليهود وفلسطين . ويقول انه سيكون ضابطا ليحارب اسرائيل عندما يكبر .

الكل كان ينتظر الصول عبد الله . كل الوقت يتساءلون « لم يأت للآن » ؟

فهو يعمل فى سفينة حربية . ومشترك فى الحرب ويعرف نتائجها . كما أنه ليس مجرد صول عادى . فهو يقرأ الكتب والجرائد والمجلات . وينشر قصائده فيها .

اقترب عبد الله رغما عنه منهم . لو كان يعلم بما سيحدث لكان ذهب الى بيته من طريق آخر بعيدا عن القهوة .

ـ قل لنا يا عبد الله يا أخى . بل ريقنا الذى جف .

ـ كل خير يا اخوة كل خير .

ـ وما يقوله ابراهيم فهيم ؟

ـ ابراهيم فهيم مجرد مساعد معمل فى شركة .

كان المذياع يذيع أغانى وطنية حزينة تحث المواطنين على حب الوطن والتمسك به . بلدى أحببتك يا بلدى لمحمد فوزى . اغنية جميلة لماذا لم يذيعوها بكثرة من قبل ؟ آكان لابد من وجود هزيمة وازمة لتذاع ؟

ودعاء الشرق والكرنك لمحمد عبد الوهاب . ورددت أم كلثوم فى أسى :

انا لو قدر الاله مماتى لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى

شد عبده الزردونى مقعدا · وأقسم ان يجلس عبد الله ليشرب قهوته · وان امراته ستكون طالقة لو لم يطيع ويجلس · وأن هذه القهوة على حسابه هو ·

وجلس عبد الله مضطرا · الحدث جلل والخوض فيه يعذبه ، يضنيه · وصياد يأتى من آخر القهوة ، كان يحمل كوب شـايه الذى يتصاعد البخار منه · قال :

ــ ما حكاية السفينة الأمريكية التى أغرقتها اسرائيل ·

ــ آه · ليبرتى ·

يضيق عبد الله بذلك الصياد · والزردونى لا يعجبـه الكلام « مالنا ومال أمريكا واسرائيل » · صاح :

ــ خلونا فى بلادنا ·

ــ مازال الجيش موجودا يا معلم · وهذه معركة فى حرب مستمرة بيننا ·

صـاح آخر :

ــ الم اقل لك يا معلم ان قواتنا ما زالت تحارب فى سيناء ·

أراد عبد الله أن يسأل هذا عن مصـادره · وعن أخبـاره الجديدة عليه والعجيبة · من أين استقاها ؟ وأكمل الرجل :

ــ كل اللواءات استجـابت لنداء الانسحـاب · الا اللواء الشاذلى · لقد واصل تقدمه بجنوده وضباطه · وأسر لواء اسرائيلى بأكمله وقيد أياديهم بالحديد والحبال ·

قال عبد الله مضطرا :

ـ يا سـلام ؟

ـ نعم • وسيعرضون الأسرى فى محطة مصر يوم الجمعـة القادم بعد صلاة الظهر •

قال عبد الله مندهشا :

ـ محطة مصر فى الاسكندرية أم القاهرة ؟

ـ الاسكندرية يا حضرة الصول •

أراد عبد الله ان يسأل « ولمـاذا لا يعرضونهم فى القـاهرة فهى أولى » • العاصمة أحق بالعرض • لكنه صمت وظل يتابع الرجل الواثق من معلوماته • وقد أمسـك كوب شايه السـاخن ودخل القهوة • والناس ملتفون حوله • وهو مازال يحكى ويذكر تفاصيل التفاصيل •

وقال آخر ظل صامتا طوال الوقت رغم أنه يجلس قريبـا جدا من عبد الله :

ـ يقولون ان موشى ديان سيضرب كل مدن مصر • فيما عدا الاسكندرية •

وصـاح عبد الله :

ـ اسرائيل قالت هذا ؟

ـ نعم قالته • لأن الاسكندرية غالية على ديان ويعزها دون مدن مصر كلها •

وصاح الزردونى مندهشا :

ـ ولمـاذا الاسكندرية بالذات ؟

ـ لأنه سكندرى ٠ ولد فى حارة اليهود ٠

قـال عبد الله :

ـ ديان سكندرى ومن حارة اليهود أيضا ؟

ـ نعم ٠ وأهله ما زالوا يعيشون فيها للآن ٠ ويأتون الى فى حلقة السـمك يشترون منى ويحدثوننى عنه دائما ٠

بكى عبد الله عندما علم بما حدث ٠ وعندما تتبع الموقف فى الفرقاطة الحزية وجد الحزن قد خيم على الجميع وكل فرد عبر عن حزنه بطريقته ٠ البعض أصيب بحـالة هياج وصراخ ٠ واقتحموا كابينة الكومندان وطالبوه بالهجوم على ميناء حيفـا وضربه بكل ما لدينا من أسلحة ٠ لو كانوا تفوقوا علينـا فى الطيران ٠ فنحن اقوى منهم فى البحرية ٠

قـال الكومندان :

ـ ليست لدى أوامر بالهجوم ٠ كما أن الأمر ليس سهلا ٠ لابد من التنسيق مع الأسلحة الأخرى ٠

واصيب البعض بحـالات اسـهال ومغص وصـداع ٠ وتغير الوضع فى اليوم التالى ، الكل كان يعمل بهمة ونشاط والعمل الذى يحتـاج لفرد واحد يجرى اليه عشرة يريدون انجـازه عن طيب خـاطر ٠

كان الكومندان احسن المختار حزينا لأنه لم يغرق الغواصـة التى هاجمتنا وارسلت الينا طوربيداتها ٠ وردد فى أسى ، لو لم تتعنت تركيا ٠ لكنا عدنا من الاتحاد السوفيتى بالصـواريخ المضادة للغواصات ٠ وكنا أغرقناها بسهولة ٠

قال شاب كان يجلس خارج القهوة هو وبعض زملائه صغار السن مثله :

ــ ديان سيضرب كل الكبـارى فى الاسـكندرية فيما عدا الكوبرى ابو عين واحدة ٠

قـال آخر :

ــ لمـاذا ؟

ــ لأنه أعور مثله ٠

قام عبد الله ٠ الوضع زاد عن حده ٠ وهو أراد أن يهرب من جو القتامة فى السفينة ٠ أراد أن ينغمس فى أشياء تلهيه وتبعده عن الحقيقـة المرة ٠ أن يزور كازينو اليهودى ٠ يشرب ويداعب النساء هناك ٠ يشاهد ليلى وهى تغنى وتغمز له بعينيها من بعيد ٠ وفريدة وهى تتمايل بل وتكشف عن جسدها فى خلاعة ٠

لكن صـابرين ستغضب لو علمت ٠ المفروض أن تقـدر ٠ الا تحس بما حدث للبلد ؟ ! هو فى أشـد الحاجة الى غيبوبة تبعده عن القتامة التى تدمى قلبه وتعذبه ٠

مر امام دكان خلف الله الحلاق ٠ الرجل يقف خارج الدكان بقامته المديدة مرتديا بنطلون بدلته والقميص المقلم بخطوط زرقاء ٠ والكرافتة معلقة فى الرقبة ٠ جاكيت البدلة معلق فوق المشجب فى الداخل ٠ عندما رأى عبد الله صاح :

ــ أهلا بك يا صول عبد الله ٠ تعال ٠

اضطر أن يذهب ليصافحه :

ــ ايه اخبار الحرب ؟

ـ كـل خـير ٠

ـ حقيقة حكاية الصين الشعبية ؟

اقترب عبد الله ليعرف حكاية الصين الشعبية ٠

ـ أرسلت الصين الشعبية الفين طائرة صغيرة جدا ٠ بداخل كل طائرة صينى صغير ٠ هؤلاء سيهجمون على اسرائيل وسيغيرون الموقف لصالحنا ٠

قـال عبد الله :

ـ من بقك لباب السماء يا أسطى خلف الله ٠ بعد اذنك لأنى متعب جـدا ٠

سار ٠ تابع حافظة التى تجلس خارج كوخها فى أرض المدفن القديم ٠ عندما رآته ضحكت باستخفاف قالت كلمـات كثيرة غير واضحة ٠ وبصوت خافت ٠ لم يتبين منها سوى كلمة الحرب ٠

باب الفيللا الخارجى مغلق ٠ والحديقة مهملة ٠ لم يهتم بها أحد فى غيابه ٠ دخل باب الفيللا ٠ سيرتاح ويتخلص من ملابسه المتسخة ٠ ويستحم ويخرج الى كازينو اليهودى ٠

* * *

ما أن خرج عبد الله من الحمام الا وسمع صـوت جرس الباب الخـارجى :

ـ من الذى علم بعودتى ؟

ربما الغسالة جاءت من أجل الغسيل ٠ ياه ٠ لو كانت هى ستحل مشكلة ٠ ملابسـه المتسخة كثيرة جدا ٠ أو ربمـا أحد

الصيادين اراد ان يتأكد من حقيقة الموقف فى الحرب والسياسة فجاء الى بيته ليسأله بعد أن علم بعودته من رواد قهوة الزردونى .

فتح الباب فرأى العجب . صابرين امامه بوجهها الرائق الجميل . انها أول مرة تأتى الى هنا .

ـ اننى غير مصدق .

ـ سمعت أحد الصيادين يخبر أبى بعودتك . فجئت لاطمئن عليك .

سبحان الله ، لقد تغيرت صابرين كثيرا . تظهر الآن عن حبها له بكل شجاعة ودون خوف من أحد .

ـ اننى سعيد لأنك شرفتى الفيللا . تفضلى .

وسارت هى وهو خلفها . ظلت تنظر الى الأسقف العالية جدا . والجدران المطعمة بالتماثيل الجميلة الصغيرة .

ـ ها هى الفيللا التى ستكون عش حبنا الجميل .

لابد أن تسرع صابرين وتخبره بسبب حضورها حتى لا يسيىء بها الظنون . ويظنها جاءت من أجل قضاء وقت ممتع . وأنها مثلها مثل ليلى وفريدة اللتين تعملان لدى فيكتور اليهودى .

ـ أخى أحمد لم يعد الى البيت منذ عدة أيام .

ـ كيف ؟

ـ الموضوع خطير . وسأحكى لك ما حدث .

حكت صابرين . منذ أن أبدى أحمد رأيه بصراحة فى الاجتماع .

ـ وما الذى يخيفك عليه ؟

ـ اخشى ان يكون قد قبض عليه لتجرؤه على الجيش بهـذه الكيفيـة ٠

ـ لكن ما قاله أحمد ٠ ثبت صدقه ٠ وما توقعه حدث ٠

ـ الكل قال ان أحمد لم يكن مجنونا ٠ وما قاله حدث ٠

ـ سأخرج للبحث عنه ٠

* * *

لم تقل صابرين لوالدها عن ذهابهـا الى فيللا عبد الله ٠ سمعت أحد الصيادين يحكى للحـاج عن الحرب وما يقوله عبد الله فى قهوة الزردونى ٠ كان الحـاج الدسوقى مستلقيا فوق الفراش ، الرجل ما عاد قادرا على السير ٠ يذهب الى دورة الميـاه بصعوبة وبمساعدة ابنته ٠

منذ ان ذهب أحمد مع عواطف ـ الاخصائية الاجتماعية ـ قبل الحرب بيوم واحد وهو غائب ٠ لم يعد الى البيت ٠ الرجل يخـاف عليـه ٠ قد يكونوا تعقبوه بعد أن سمعوا اعتراضـه فى الاجتماع ٠ واخذوه من عواطف أو ربما اخذوها معه ٠ ذلك هو الاحتمال الأكبر ٠ وان كانت هنـاك احتمالات أخرى ٠ كأن يكون قد ترك مصر كلها وعـاد من حيث جاء ٠ بعد ما لاقى من المجتمعين فى السرادق ٠

وجاءت أخبـار الحرب العجيبـة هذه لتزيد حالة الحـاج الدسوقى سوءا ٠ هو الآن غير راغب فى الحياة ٠ أصابته آلام البطن ٠ وعندما يدخل دورة المياه ينزف دما كأنه امرأة تحيض ٠

فكرت صابرين . لم تجد سوى عبد الله تلجأ اليه . هى لم تجتز منطقة المدفن القديم ولا مرة واحدة . كانت تخشى العفاريت . الآن ـ هى تجتازه وتسير فيه مسرعة . هل سبب عدم خوفها تفكيرها فى أخيها الغائب وأبيها المريض . أو لأنها تريد مقابلة عبد الله . وأن تصل ما انقطع من علاقتهما معا .

اغلق عبد الله باب الفيللا وسار معها .

تابعت حافظة المشهد فى دهشة . ما الذى جاء بابنة شيخ الصيادين الى هذه الفيللا . هل أصبحت مثل النسوة اللاتى يأتين اليه ؟ !

وعندما اجتاز عبد الله وصابرين المنطقة . قامت حافظة مسرعة وامسكت بنصف قالب طوب ورمته ناحيتهما . لكن نصف القالب لم يصبهما . حافظة تعرف أنه لن يصيبهما ، وتعمدت أن ترميه بعد أن ابتعدا . لكن فعلت هذا لتعبر عن غضبها مما يحدث .

كان عبد الله سعيدا . لأن صابرين جاءت اليه . هو لم يلمسها . لا يدرى ـ حتى ـ ان كان قد صافحها أم لا ، لكنه فرح وسعد بها . الموقف صعب أخوها أحمد غائب ولا يعرفون مكانه . والحرب جعلتنا نحس بمرارة الهزيمة والانكسار . واسرائيل لا تكف عن استفزازنا . « محاولة اذلالنا » .

كان ينوى ان يذهب الى نسوة كازينو اليهودى . لم يفكر ان كان سيقدر على التعامل معهن فى مثل هذه أم لا . يا للفضحية . أمن الممكن أن يرفع عن طرفه فاذا به عنينا . وعاجزا عن التعامل مع النساء . الحمد لله ان جاءت صابرين لكى تحميه من ذلك الاحساس .

كان الحاج الدسوقى مازال فى فراشه يئن من الم مقعدته • الرجل لا يذكر أنه قد اصيب بالبواسير من قبل • فلماذا هـذا النزيف الصعب • والحاج سماحة يجلس امامه • كان يذيب بعض الأعشاب فى اناء الومنيوم لكى يصنع منها دهانا ، يضعـه فوق مكان النزيف •

صافح عبد الله الرجال الموجودين • وقبل الحاج سماحة ! وانحنى ليقبل الحاج الدسوقى • قال الحاج :

ـ اخوك أحمد اختفى يا عبد الله • ولا اعرف طريقه •

قـال سماحة :

ـ يا دسوقى كن فى نفسـك الآن • والدكتور أحمد أكيد فى امـان •

ـ وجعى سببه غياب ابنى يا حاج • هذا هو الى •

قـال عبد الله :

ـ لا تخف من شيء • سنجده الليلة باذن الله •

ـ كيف يا عبد الله يأبنى؟

ـ ساصل الى مكان الاخصائية الاجتماعية التى كانت معه•

ـ ربنا يوفقك يابنى •

- ٢٢ -

يعود عوض من مستشفى السبع بنات الى بيته فى السيالة · يدق باب الشقة الوحيدة فى الدور الأرضى تفتح الباب امرأة شابة بيضاء جميلة ، ترتدى الملابس السوداء · هى زوجة أخيه الذى مات فى نوة من النوات وترك لها الولد الوحيد حسن ·

عوض يزور زوجة اخيه كل يوم · يسألها عما تريد · واذا ما وجد معه نقودا زائدة · أو أعطاه أحد فى المستشفى او الدكتور يوسف شيئا · يمر عليها قبل أن يصعد الى شقته فى الدور العلوى ويعطيها منها ·

زوجته تغار منها ، وتتهمه ــ عندما يفيض بها الغضب ، بانه يريد أن يتزوجها · يضربها عوض ويسبها ــ أحيانا ــ يقول لها ان حسن هذا أمانة فى رقبته · فترد زوجته فى عناد رغم ضربه لها :

ــ وامه أيضا أمانة فى رقبتك ·

وجود ارملة ــ مثل زوجة أخيه ــ جميلة وشابة · فى بيت

ملىء بالزوجات الأقل منها جمالا ــ يمثل مشكلة لا حل لها سوى ان تذهب هذه الأرملة بعيدا أو تتزوج ٠

كل امرأة فى البيت تخاف على زوجها من أن تأخذه هــذه الأرملة الصغيرة الحسناء ٠

من يسمع هذا يظن ان الأرملة تفعل شيئا للفت نظر الأزواج ٠ لا والله ٠ المراة حزينة على زوجهــا الذى مات فى عز شبابه ٠ والحزن جعلها منكسرة وزاهدة حتى فى أكلهــا وانوثتهــا ٠ وهى بطبيعتها من النوع الذى لا يضع المساحيق على وجهه ٠ ولا تبالغ فى زينتها ، جمالها يكفيها ويغنيها ٠

عوض لديه وقت فراغ هذه الأيام ٠ فعدم ذهابه الى عيــادة الدكتور يوسف فى شارع التتويج يجعله قلقا وعصبيا الوقت طويل جدا ٠ يدخن سجائره فى شراهــة ٠ يتذكر سجائر ليلى المستوردة٠ السيجارة الواحدة بمقام خمسة من سجائره التى اعتادها ٠ لقد ذهبت ليلى ٠ لن يراها طوال اجازة الدكتور ، وربما أكثر ــ فهى لا تأتى الى العيادة كل يوم ٠

يقوم عوض بالبحث عن شىء يفعله ٠ يطلب الشــــاكوش والمسامير ويدق ٠ يصــلح الكرسى المخلع ٠ والمــائدة المكســور ساقها ٠ ويضطر الى الذهاب لقهوة عبده الزردونى القريبــة من بيته ٠ أيام عمله فى العيادة كان يجلس فى قهوة تحت العيــادة مباشرة ٠ يطلب عوض شيشة وقهوة زيادة ويجلس فى الخــارج يتابع المــارة ٠ يبتسم لمزاح الصيادين مع بعض ٠ جــاءه الولد حسن هامسا :

ــ عمى ٠ عمى ٠ رأيت الدكتور يوسف خارجا من العيــادة منذ لحظــات ٠

ـ دكتور يوسف مسافر يا حسن • لقد خانتك عيناك هذه المرة •

ـ انني واثق مما أقوله يا عمى • رأيته ورآنى جيدا • تردد قليلا • كان يريد ان يقول لى شيئا • ثم غير رأيه وواصل مسيره •

أخذ عوض يسحب النفس من الشيشة وهو شارد • الولد ـ أكيد ـ رأى انسانا آخر غير الدكتور يوسف •

أمسك كوب القهوة وهو يحب شرب القهوة فى الكوب ـ ويغضب اذا ما جاءه بها الساقى فى فنجان •

من الممكن أن يكون حديث حسن صحيحا • فهو يعرف يوسف منذ وقت طويل • ويستطيع أن يخرجه من بين ألف • كما أن تصرفات يوسف مع عوض (بشأن الاجازة) كان غريبا ، ويثير الشبهة والارتياب •

رمى عوض مبسم الشيشة وقام :

ـ اين ستذهب يا عمى ؟

ـ اجلس مكانك • ساعود بعد قليل •

* * *

يعرف عبد الله ابراهيم فهيم منذ أن كانا تلميذين فى مدرسة الحجارى الابتدائية • ولم يكن يرتاح لآرائه التى أفسدتها حالة الفقر والفساد المسيطرة عليه •

وعندما علم أنه قريب لعواطف التى اختفت مع أحمد الدسوقى • قال لصابرين :

ـ أنه سيصل الى بيت عواطف من خـلال ابراهيم فهيم ، فهو يعرف بيته ٠

أصرت صابرين أن تذهب معه ٠ وأراد العديد من الصيادين الذهاب معه ٠ لكن عبد الله أصر على الرفض الأمر ليس فى حاجة الى الكثرة ٠

لكن عندما أعلن الحاج سماحة عن رغبته فى الذهاب معهما ٠ لم يستطع عبد الله أن يرفض أو يعترض ٠

سار الثلاثة فى طريقهم الى بيت ابراهيم فهيم ٠ قال الحاج سـماحة :

ـ ألم يحن الوقت يا عبد الله لأن نحرر الولدين « بوللى ولالى » من عبودية اليهودى فيكتور ؟

ـ انهما يعملان لديه بالأجرة يا حاج ٠ وليسا عبدين عنده ٠

ـ لا تنس انه يهودى ٠ والولدان ـ للآن ـ لم يتم ختانهما طبقا للشريعة الاسلامية ٠

ـ اتريد أن تفعل هـذا معهما ، وهما فى هذا السن ؟

ـ ذلك شرع الله ٠

احست صابرين بالضيق من حديث الحـاج ٠ فالأمر الأهم الآن هو أخوها الغائب والذى لا يعرفون طريقه ٠

وقف الحاج بعيدا عن باب الشقة وصابرين معه ٠ بينمـا دق عبد الله جرس الباب وظل قريبـا منه ٠ فتحت أم ابراهيم الباب ٠ صاحت :

ـ من يريد الأستاذ ؟

هى تغنى ابراهيم ابنها بكلمة « الأستاذ » فمنذ ان التحق بكلية التجـارة · صار اسمه عندها « الأستاذ » · وكل سـكان العمارة ، والذين يتعاملون معها من الشارع والحوارى المجاورة ـ ينادونها ـ « بأم الأستاذ » سخرية منها ·

قـال عبد الله :

ـ قولى له عبد الله ·

وصعد الحاج محمد سماحة الدرجات الثـلاث · فراتـه ، صاحت المراة فى دهشة :

ـ اتفضل يا حاج · اتفضل :

الحاج سماحة معروف فى الحى · والكل يحسـب له الف حسـاب ·

ـ يا أستاذ ابراهيم · الحاج سماحة يريدك ·

كل يوم تزداد قيمة ابنها · منذ أيام ارسـل اليه الدكتور يوسف داود · وها هو ياتيه الحاج سماحة حتى بيته ·

جاء ابراهيم يجرى · عندما رأى عبد الله صافحـه فى كبرياء · فعبد الله ـ رغم أسرته ذات الأصل العريق ـ لم يكمل تعليمـه وتطوع فى الأسطول بالثانوية · لكن عندما راى الحاج سـماحة اسرع اليه وضمه لصـدره فى حركة تمثيلية · فالحاج يستطيع ان ينفعه اذا ما خاض الانتخابات · فهو له تاثير على أهل الحى ·

قال عبد الله وقد لاحظ تجاهل ابراهيم له :

ـ الأمر بسيط · نريد معرفـة عنوان عـواطف محفوظ الاخصائية الاجتماعية ·

فهم أبراهيم ما يريدون :

ــ من أجل أحمد الدسوقى . ألیس كذلك ؟

ــ نعــم .

ــ أحمد مريض . وموجود فى شــقة خالى محفوظ ــ والد عــواطف .

صاحت صابرين قلقة وخائفة على أخيها :

ــ مريض . ماذا حدث له ؟ !

أراد ابراهيم أن يذهب معهم . حتى لكى يعيد العلاقة بينه وبين ابنة خاله . فربما تعفو عنه وتعيد المــاء الى مجاريها وتتزوجه. لكنه أحس بأن الأمر سيزداد صعوبة فى وجود أقارب أحمد هذا . فاكتفى بأن أعطاهم العنوان .

* * *

عندما وصل عوض الى العيادة وجدها مغلقة . تأكد له ما ظنه فى الولد حسن ابن اخيه . الولد رأى شبيها للدكتور يوســف لا أكثر . لكن قبل أن ينزل درجــة من درجات الســلم أحس بحركة داخل العيــادة . فعاد مسرعا . ألقفل الكبير مازال على الباب . فكيف دخل الذى يحدث الحركة فى الداخل . الأمر غريب ومريب .

عاد عوض الى الباب ثانية . أصاخ السمع . فتأكد له وجود أصوات احتكاك أحذية . وأصــوات حديث غير واضح . كاد عوض يدق الباب بيديه ليسمع الكلام بصــوت مرتفع . يسمع ردا منهم. لكنه عــاد فى آخر لحظة . فمادام القفل على الباب . فأكيد الأمر فيه سر .

دخل عوض القهوة أسفل العيادة . سأل القهوجي :

ـ الدكتور يوسف يأتي الى العيادة ؟

ـ لقد خرج من باب العمارة منذ ساعة تقريبا .

لم يبد عوض دهشته أمام القهوجي . تماسك وتظاهر أنه يعرف كل شيء ، وسار .

الدكتور يخفي شيئا غير عادي داخل العيادة . قد تكون ليلى المغنية . لكنه لماذا يخفيها هكذا ؟ ليلى عالمة . وليس وراءها من يسأل عنها . ولو أراد الارتباط بها عاطفيا أو جسديا حتى . لن يسأل أحد . لا الأمر أكثر من هذا وأهم . ماذا ؟ أيكون يوسف على علاقة بامرأة من الحي ويخفيها داخل الشقة الآن ؟

عاد عوض ثانية الى شارع السيالة . وقهوة عبده الزردوني والولد حسن الذى ينتظره . قال حسن :

ـ ذهبت يا عمى الى العيادة لتتأكد ؟

الولد لم يتجاوز العاشرة . لكنه يتصرف كرجل . ويفهم الأشياء بسهولة وبسرعة .

ـ وجدت القفل على الباب .

* * *

كان أحمد قد استرد صحته . زالت الكدمات من فوق وجهه . ولم يعد يحس بآلام فى جسده . قال الحاج سماحة :

ـ أنت مخطىء يا أحمد يابنى . من الممكن أن تطمئن والدك وأختك بالتليفون .

ـ أسف يا عمى . حالتى لم تكن تسمح بعمل اى شيء .

قـالت عواطف :

ـ غضب منى عندما اردت أن ازورهم فى البيت واخبرهـم بذلك .

قـال عبد الله :

ـ جئت لكى آخذك معى . ماذا ترى ؟

ـ بالطبع سـأعود معكم . خاصـة أن ابى مريض . ولم يستطع أن يأتى معكم .

قـال محفوظ :

ـ انت تذهب لتطمئن على والدك وسأذهب معك لكى أعود بك ثانية . فلقد اعتدت على وجودك بالمنزل .

قال احمد . ما زالت بعض الآثار واضحة فوق وجهـه . وساقه اليمنى لا تستطيع أن يتحمل عليها تماما ، هذا غير جرح لم يلتئم فى راسه .

ذهب احمد الى دورة المياه . قال محفوظ :

ـ دفع احمـد ثمن صراحتـه . واتضح ان كل ما قاله كان صحيحـا .

تنهد عبد الله فى أسى . فسوف يخوضون فى الموضـوع الذى يوجعـه .

عادوا بأحمـد . كان يتحمـل على عبد الله وهو نازل على السـلم .



عندما خاض عبد الله أرض المدفن القديم ، واجتاز الحديقة العامة والمرحاض العمومي · رأى حافظة كاشفة عن نصفها الأسفل تقضي حاجتها في ركن من أركان ارض المدفن القديم · لعنها في سره الف مرة وسار الى فيلته القريبة ·

هناك ، وجد عوض في انتظاره · كان واقفا بجوار الباب الحديدى الكبير ·

ـ انتظرك منذ ساعة ونصف تقريبا حتى فقدت الأمل في عودتك الليلة ·

فتح عبد الله الباب · وسار في الحديقة الكبيرة :

ـ أهلا بك يا عوض ·

عوض لم يأت الى هنا من قبل · كما ان حضوره في الليل وفي أرض المدفن القديم ، أمر له أهميته · يقف ساعة ونصف وسط الظلام في منطقة يحكون على أنها مليئة بالعفاريت · وكثيرون من أهل بحرى يخافون اجتيازها في عز النهار · قال عوض :

ـ الدكتور يوسف داود يخفي بني آدمين داخل عيادته ·

ـ ما معنى هذا ؟

ـ لا اعرف · ولهذا جئت اليك ·

ـ الأمر ليس سهلا · ولابد أن تدخل الفيللا معى · وتحكى لي كل ما حدث لأفهم ·

حكى عوض ما حدث بالتفصيل · قال عبد الله ·

ـ واثق من ان داخل العيادة بني آدمين · والباب مغلق عليهم بالقفل · ؟

ـ طبعـــا ٠

ـ اذا ٠ هيا نصل الى ضابط الكركون ٠ ليتخذ اجراءاته ٠

ـ لكن يوســف له فضـــل على ٠ هـو الذى عيننى فى المستشفى ٠ وفى عيادته ٠

ـ هذه امور مختلفة ـ هيا ـ لا تضيع الوقت ٠

* * *

قالت ام ابراهيم لابنها الأستاذ :

ـ لمـاذا لم تذهب معهم لزيارة خطيبتك ؟

ـ لا استطيع يا أمى ٠ عواطف طردتنى ٠

ـ لا تهتم ٠ فهى لن تجد أفضـــل منك ٠ وســتأتى اليك راكعة متذللة ٠ تعتذر عما بدر منها ٠

ـ لقد وافقت على خطوبتها رغم أنها ليست جميلة من أجل مال خالى لا يذهب الى غريب ٠

دق جرس الباب ٠ أسرعت المراة اليه ٠ رات ما أدهشها : دكتور يوسف بكامل هيئته على باب الشقة لا ٠ الأمر زاد عن حده ٠ ابنها الأستاذ اصبح مهما للغاية ٠ وأكيد خـلال سنوات قليلة قد يكون محافظا أو وزيرا ٠٠ ابنها كان عنده حق عندما غضــب من أخواته لأنهن وأولادهن ينادونــه بابراهيم دون لقب اســتاذ ٠

دخل يوسف الشقة مبتسما ٠ قال ابراهيم :

ـ ليست على قدر المقام ٠

ــ لا . انها شقة ظريفة

أحس ابراهيم بالراحة لأن والده فى وردية عمل . والا كان افسد كل شيء بشكله . وقفطانه القديم البالى .

ــ ممكن نجلس فى مكان وحدنا ؟

ــ نعم . نعم . تعال .

اخذه الى حجرة صغيرة . واغلق الباب خلفهما .

تفوح من الحجرة رائحة عطنة بسبب عدم التهوية . وليس لها سوى كنبة عربى قديمة . ودولاب خشبى غير مدهون به ملابس ابراهيم .

ــ حجرتى .

ــ ظريفة .

ــ اطلب لك شايا ؟

ــ لا . لا اريد أن أضيع وقتى . الموضوع ان عندى أربع اسرائيليين أريد ان اهربهم من مصر .

أية جراة هذه . أيقول له هذا بالمفتشر وعلى بلاطة . وعلى عينك يا تاجر :

ــ انت تمزح يا دكتور لاشك .

ــ انا لا امزح ابدا .

ــ غريب ان تحدثنى هكذا دون استعداد وتمهيد .

ــ بل مهدت معك . وتحدثت معك طويلا . واعرفك جيدا . وبحثت لم اجد أنسب منك لهذه المهمة .

ـ الا يمكن أن أبلغ عنك .

ـ لو كان التبليغ سيعطيك أكثر مما ساعطيه لك .

ـ كـم ؟

ـ خمسة آلاف .

ضحك ابراهيم طويلا . « خمسة آلاف جنيه مرة واحدة » .

ـ مبلغ قليل لا يستحق المغامرة .

ـ ســـتة .

ـ عشرة والا لن أفعل شيئا .

ـ انت تحب الفلوس كثيرا .

ـ كيف سأستطيع تهريبهم ؟

ـ الأمر بسيط للغاية ، ستركب السيارة معى . وسنأخذ الضفادع الأربعة حتى السلوم على حدود ليبيا . سيكون هنـاك مندوبون من قاعدة « هويلس » يتسلمونهم منا ، ونعود بالسيارة ثانيـة .

ـ وما فائدتى . يمكنك فعل هذا وحدك .

ـ انت أمين لجنة الاتحاد الاشتراكى . ومعك كارنيه يفتح لك الأبواب المغلقة .

أخرج يوسف ألف جنيه من سترته :

ـ الف الآن . والباقى بعد العودة من السلوم .

ـ أريد الفين الآن .

ضحك يوسف وأخرج الألف الأخرى :

ـ ها هى الألف . سنخرج من الاسكندرية مساء الغد .

- ٢٣ -

كانت آمـال تجرى الكشـف على سـيدة من « بحرى » (تعرفها آمال وقد تحدثت معها مدة طويلة) وقتها سمعت دقات خفيفة على الباب • ثم رأت يوسف يدخل مندفعـا • قامت السيدة تلم ملابسها من شدة المفاجأة • أول مرة يدخل يوسف عليهـا هكذا منذ أن عملت فى مستشفى السبع بنات معه • قالت :

ـ انتظر حتى انتهى من الكشف •

سار منكسرا • لم يخرج من الحجرة • ظل واقفـا فى طرقة جانبية أمام الباب المغلق ، وآمال أنهت الكشـف على المريضـة بسرعة • وغسلت يديها وهى تحدثه :

ـ مالك يا يوسف ؟

جاء اليها فرحا :

ـ علمت بما حدث لصديقنا أحمد الدسوقى ؟

ـ لا •

ـ يقولون انه جن ٠

ـ اننى لا اصدق هذا ٠ انت طبيب وتعرف مراحل تطور المرض ٠ وتعرف أن الجنون لا يأتى فجأة ودون مقدمات وأسباب ٠

ـ هناك أسباب قوية يا دكتورة ٠ ألم تسمعى عن هجوم الناس عليه يوم الاجتماع ٠

* * *

كانت آمال تقف فى الشرفة ووالدها فى الداخل مسترخيا ٠ يتابع احد الأفلام القديمة ٠ سمعت آمال الكلمات كلمة فاروق الفرماوى ثم ابراهيم فهيم ٠ ووالد أحمد والحاج الدسوقى ٠ كان الصوت واضحا وعاليا من خلال الميكرفون ٠ فهو معلق فى شرفة قريبة من شرفته ٠

ناداها والدها وهو يضحك لتصرفات اسماعيل يس :

ـ تعالى يا آمال ستضحكين كثيرا ٠

ـ رايته مرات عديدة ٠

اتاها صوت الفرماوى ومساعده ابراهيم وسمعت الدسوقى يقول فرحا :

ـ الدكتور احمد الدسوقى ابنى ٠٠٠٠

اشرابت ٠ أرادت أن تقفز من الشرفة ٠ تطير الى الاجتماع القريب لتراه وهو يخطب ٠ وأصاخت السمع لكلمته لكن صوته لم يأتها من بعيد ٠ فقد كان يتكلم من غير ميكرفون ٠

ثم سمعت أصواتا متداخلة ٠ وحركة غير عادية ٠ لا يهمها الا ان تطمئن على أحمد ٠

ثم سمعت صوت ابراهيم فهيم يصيح « انه مجنون ٠ مجنون » ٠

أتراه يقصد أحمد ٠ فهو الذى يخطب منذ لحظات ٠ ثم رأت الناس تجرى فى الشارع وصراخ فى الاجتماع وشجار ٠ وتهديد من خلال الميكرفون ٠ وامرأة تجرى وتولول :

ـ انهم يضربون ابن شيخ الصيادين ٠

شيخ الصيادين يا آمال ليس عنده سواه ٠ أسرعت آمال الى الداخل ٠ ودخل والدها خلفها :

ـ الى أين يابنتى ؟

ـ انهم يضربون أحمد الدسوقى ٠

ـ وماذا تقدرين أن تفعلى ؟

أسرعت الى الشارع ووالدها حائر لا يدرى ماذا يفعل ٠ اكتفى بأن تابعها من الشرفة ٠

كانت بملابس البيت تجرى ٠ ووالدها يصيح من الشرفة :

ـ تعالى يا آمال ٠ تعالى ٠

كثيرون يريدون الوصول الى جسد أحمد ٠ ووالده يحميه ويحايلهم لأن يتركوه ٠ وفتاة تراها آمال لأول مرة تضم أحمد اليها ٠ تلتصق به ٠ حتى اذا ما ارادوا ضربه جاءت الضربة فوق جسدها هى ٠

اقتربت آمال ٠ صاحت بصوتها الضعيف :

ـ أحمد . أحمد .

ذاب صوتها وسط الجموع . وجسدها النحيل القصير لم يستطع الوصول اليه . الفتاة ـ التى تراها لأول مرة ـ كانت اطول واعرض منها . وكان احمد يميل اليها . فتشمله هى بكل ما تملك . وتبتعد به عن الحشد .

قـالت آمـال :

ـ لـماذا فعلو بك هذا ؟

لم يسمعها . تسمرت آمال فى مكانها . والفتاة ـ الأخرى ـ تبتعد به . كانت تمسك معصمه وهى تجتاز به الشارع ، وهو كطفل صغير .

ظلت آمال تراقبهما حتى دخلا الزقاق المؤدى الى البحر .. دخلت آمال بيتها . رات والدها يقف بملابس النوم .

ـ ماذا حدث يا آمال ؟

ـ لاشيء .

* * *

قالت آمال ليوسف ابن عمها :

ـ أراك فرحا لأنه جن .

جلس يوسف :

ـ لا طبعا . أنا لا افرح لمصائب الآخرين .

ليلة الاجتماع الذى اقيم فى بحرى لم تنم آمال . لم تبك . شردت . احمد لا يحبها . ولم يحس بها ابدا . كل تصرفاته . حتى وقت ان كان طالبا فى كلية الطب ، تؤكد هذا .

والفتاة التى راتها معه • واضح أنه يبادلها الحب • فقد ترك نفسه لها من شدة ثقته بها •

استظل آمال هكذا • تحلم كالمراهقات برجل امامها ولا تستطيع ان تبوح له بما تحلم • ثم يخطب ويتزوج وينجب • وهى ما زالت تحبه •

تعرف آمال طبيبة فى المستشفى • كانت تحب شابا لم يرها مرة واحدة • أحبته لمجرد أن رأته يأتى كل يوم فى انتظار الترام التى تمر من أمام بيتها • كانت تتابعه من الشرفة وتنتظر موعده • وتحلم بيوم أن يجتمعا معا • ولم يأت هذا اليوم أبدا •

آمال • لابد أن تضعى حدا لهذه المهزلة • يوسف ابن عمك يريدك ويتمنى رضاك • وهو أولى بك • وزواجك منه لن يسبب أية مشكلة •

اقتربت آمال من والدها فى الصباح • وضعت الافطار بينهما • وقالت :

ـ اننى موافقة على الزواج من يوسف ابن عمى •

ـ خيرا ما فعلت • يوسف سيفرح كثيرا •

* * *

قد تكون آمال ما زالت تحب أحمد للآن • لكنها لابد أن تحكم عقلها وتختار يوسف • رغم هذا غضب منه عندما تحدث عن أحمد بهذه الكيفية •

حتى لو جن احمد حقا • مع أن آمال لا تصدق هذا أبدا ـ ما كان يجب أن يفرح يوسف لذلك •

* * *

لم يصدق يوسف نفســه عندما اخبره عمــه زكي بالخبر السـعيد ٠

ــ عمي ٠ لم أتزوج الآن لأن آمال لم تكن موافقــة ٠ لكن ما دامت وافقت ٠ فلنسرع بالاجراءات ٠

ــ وانا أيضا أريدك أن تسرع بالاجراءات ٠

ــ نريد أن نعوض ما فاتنا يا عمي ٠ من باكر سنختار لوازم الحفل ٠ وعندما تنتهي حالة الحرب هــذه ٠ سنعلن خطوبتنا ٠

ــ على بركة الله ٠

ضابط كركون الأنفوشي ــ اصلا ــ ليس من بحرى ٠ لكنه احب الحي وأهله ٠ وصار كواحد منهم ٠ بعد أن قضى شهورا قليلة فى الكركون طلب من رؤسائه أن يتركوا له حرية العمل ٠ حتى وان خالف القواعد واللوائح حتى يضمن سير العمل فى الحي على أحسن وجه ٠ فهؤلاء الناس لا تنفع معهم الشدة ، والاصرار على تنفيذ القواعد كما أنزلت ٠ فأعطاه رؤسائه ما يريد ٠

اذا حدث خطأ من أحد الصيادين ، يرسل فى طلب الحــاج الدسوقي ويحكى له ما حدث ٠ فيقوم الحــاج بمعاقبــة المخطيء بغرامة مالية تذهب الى صــندوق الصيادين ٠ أو طرده من عمله اذا كان يعمل فى مراكبه أو أحد محلاته ٠

كان ضابط الكركون وسيما ٠ حلو الحديث ٠ حاضر النكتة٠ فأحبه شباب الحي ٠ كان يجالسهم ويسهر معهم لوقت متأخر من الليل بعد أن يخلع بذلته الرسمية ٠

عندما دخل عبد الله قابله الضــابط بترحاب ٠ حــكى له عما حدث ٠ قال الضابط لعوض :

ــ المشكلة اننا نتلقى هــذه الأيام بلاغات كثيرة عن وجود ضفادع بشرية اسرائيلية • ونذهب الى هنــاك • نجد الضفدع البشرى مصرى وطنى حظه السيىء جعله أصفر الشعر وذا عينين زرقاوين أو خضراء •

قــال عبد الله :

ــ انت تعلم ان يوسف هذا يهودى • والشكوك تحوم حوله •

ــ على أى حــال أنا لا أستطيع أن أتغاضى عن موضــوع كهذا • فمن الممكن أن يكون الدكتور قد أجرى عملية جراحيــة ممنوعة • ويخفى المريض بالداخل • وفى هذه الحالة يمكن أن تكسر الشقة ونعاين • لكن الخوف أن يكون الموضــوع له صلة بالأمن العام • وفى هذه الحالة لابد من ابلاغ المباحث العسكرية •

صمت الثلاثة لحظات • ثم صاح الضابط :

ــ لن نخسر شيئا • سنبلغ المباحث العسكرية •

* * *

خرج يوسف من العيادة عند المغرب ــ تقريبا ــ كان قلقا • نظر خلفه عدة مرات • سار بعيدا عن القهوة ثم انحرف فى أول زقاق قابله • وخرج الضفادع البشرية الأربعة فى نفس الطريق • كانوا يرتدون ملابس غير الدكرون التى جاءوا بها من اسرائيــل • لاشك أن هذه الملابس اشتراها لهم يوسف أو فيكتور • او ربمــا ليلى •• انحرفوا فى نفس الزقاق • كانت السيارة فى انتظارهم • وابراهيم فهيم يجلس فى الأمام • دخل يوسف مسرعا أمام مقود السيارة • والأربعة فى الخلف • التصقوا فى بعض • وعلى أى حال فقد كانوا نحافا فكفاهم المقعد الخلفى •

قال ابراهيم وهو ينظر خلفه :

ـ ازيكم يا خواجات ؟

ردوا عليه بكلمات لم يفهمها ابراهيم • لكنه ضحك بصوت مرتفع • لم يكن خائفا ولا مرتابا فى أى شىء • كله ثقة بانه سيخدع كل من سيقابله • خاصـة ان معه كارنيه الاتحاد الاشتراكى •

قـال يوسف :

ـ العمليـة مضمونة للغاية • فى السـلوم سـنتقابل مع المندوبين • وأعود أنا وانت وحدنا •

ـ لكننى أريد ان أقضى عدة أيام فى ليبيا • آه يا خواجـة يوسف لو وجدت لى عقد عمل فى ليبيا •

ضحك يوسـف • تحدث مع الأربعـة الآخرين بالعبرية • ضحكوا معهم • وقالوا كلمات قصيرة لم يفهمها ابراهيم خطر بباله انه من الممكن أن يكون يوسف يشتمه ويحكى عنه حكايات سخيفة • لكن ليس مهما • المهم أن يصل لمـا يريد •

قـال ابراهيم :

ـ ليبيا هى الجنة يا خواجة يوسف • ألم تسمع عن الصعيدى الذى مات • وسألوه فى الآخرة : عايز تروح الجنة ؟ قال : لا عايز اروح ليبيا •

ضحك يوسف وضحك الأربعة دون أن يفهموا ما يقال • قال يوسـف :

ـ اطمئن • سأجد لك عقدا •

ضحك ابراهيم وقال :

ـ لا · لن أترك ليبيا · هذه فرصتى · لماذا لا تحدث الخواجات أصحابك الذين يعملون فى قاعدة هويلس الأمريكية · لأعمل معهم فى القاعدة ·

ـ سأحاول يا ابراهيم · اطمئن ·

ـ سأخذ الثمانية آلاف الباقية فور استلام العهدة ·

ـ سيحدث · سيحدث ·

أمام تمثال سعد زغلول من ناحية البحر ، توقفت السيارة · فقد أغلق شرطى المرور السكة فى طريقهم · فجأة ، بعد أن أحس يوسف ان الطريق سهل وممهد ·

كانت هناك سيارة ملاكى تقف بجانب سيارتهم · وسيارة أخرى تقف فى المدخل · آتية من شارع صفية زغلول ، هبط منها شاب يرتدى بذلة سوداء · وتبعه عدد لا يقل عن ستة ، أجسامهم طويلة وعريضة · ومن السيارة المجاورة لهم · نزل العديد · أحاطوا بهم ظهر عبد الله وعوض ·

لكز يوسف ابراهيم بكوعه :

ـ حدثهم انت · حدثهم ·

لقد أعطاه ألفين · وسيعطيه ثمانية غيرهم من أجل لحظات مثل هذه · فليعمل · قال ابراهيم بكبرياء مصطنع :

ـ أنا ابراهيم فهيم أمين لجنة الاتحاد الاشتراكى المساعد عن دائرة الجمرك ·

وأخرج الكارنيه من جيب قميصه · وقدمه للضابط ذى البذلة السوداء ·

أمسك الضابط الكارنية · وقال :

ـ آسفين يا سعادة البك · من فضلك اخرج · سنسألك كام سـؤال ·

خرج ابراهيم مبتسما · لم يكن قد فهم ان كل شيء وضح · الذى أدرك هـذا جيدا هو يوسف · فلم يستطع الوقوف شدوه من داخل السيارة بالقوة · أخذوا يوسف وابراهيم فى السـيارة المجاورة · الضفادع الأربعة أخذوهم فى السيارة الثانيـة من ناحية شارع صفية زغلول ·

* * *

خرج الحاج محمد سماحة من بيته · ومعه أولاده جميعا · والكثير من أهل الشارع الذى يسكنه ··

عندما وصل الى كازينو كازابلانكا كان العديد من أهـالى الحى يحيطون به · هناك وجد سماحة الحاج الدسوقى يقف أمام الباب الكبير · وأحمد الدسـوقى ـ ابنه ـ بجانبـه · وعوض وعبد الله معهما ·

المخبرون أحاطوا بالمكان · وجنود من الجيش يقفون · وحافظة ترمى الكازينو بالطوب · كسرت الزجاج · وهى تصيح :

ـ فيكتور اليهودى سرق أولادى ·

خرج فيكتور يحمله رجلان عملاقان · كانا يرفعـاه لأعلى · وساقاه المعوجتان تزحف على الأرض · وبوللى ولالى يضحكان ويشيران الى فيكتور ·

وخرجت ليـلى · دفعت يد الضـــابط الذى يمســكها فى عجرفة · سارت والايشارب الحريرى معقود فى رقبتها ·

قـال سـماحة :

ــ سأخذ الولدين عندى يا حاج دسوقى ·

* * *

فى الصباح جاءت عواطف الى بيت الحاج الدسوقى · ظنت أنها ستجد أحمد مازال نائما · وستوقظه وقد يمانع فى الخروج معها · لكنها فوجئت به يفتح لها الباب وهو بكامل ملابسه ·

ــ معقولة ·

ــ انتظرك من نصف ساعة تقريبا ·

ــ وأوراقــك ·

قدم الأوراق اليها :

ــ كل الأوراق جاهزة ·

خرجا معا · ذهبا الى ادارة الجامعة فى الشاطبى · لتقديم أوراقه مدرسا فى كلية الطب ·

بعد ستة شهور ·· وبالتحديد فى الثامن من ديسمبر أعلنت اسرائيل عن غرق غواصتها التمساح فى البحر المتوسط · ايفـان قائدها لم يستطع الوصول بها سليمة الى ميناء حيفا ·

وتمت ترقية الكومندان : حسن المختار الى رتبة عميد · وأشرف بنفسه بعد ذلك على تسليح الفرقاطة مصر بالصــواريخ المضادة للغواصات ·

رقم الايداع ١٩٩٨/٥١٩٤

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 5651 — 5

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
فـرع الصحافة



مطابع الهيئة المصرية العامة